في القائمة الطويلة
لجائزة بوكر العربية 2011

مقبول العلوي

فتنة جدّة



فتنة جدّة

مقبول العلوي

فتنة جدّة



الطبعة الورقية الأولى، الكوكب، رياض الريس للكتب والنشر ٢٠١٠

الطبعة الورقية الثانية، ٢٠١٦

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٧

ISBN-978-614-03-0073-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ١١٣/٥٣٤٢.
الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١

إلى سامر

المصباح الذي ينير أمامي عتمة الطريق...

جدّة في عام 1814م

"... كان دخولي إلى مدينة جدّة يوافق صبيحة يوم الخامس عشر من شهر يوليو/تموز من عام **1814**م، وبعدها بأربعة أيّام أصبت بحمّى عنيفة أصابتني بالوهن والضعف وكان للحرارة والرطوبة الشديدة دور كبير في إطالة أمد شفائي، وبعد أن غادرني السقم والمرض تجولت في جدّة ووجدت أنها قائمة على أرض مرتفعة قليلاً ولها من ناحية البر بابان: باب مكّة في الجهة الشرقية وباب المدينة المنوّرة من الجهة الشمالية، وباب أصغر من جهة البحر ويحيط به سور إلا أنه غير متين ومتهدّم في أجزاء كبيرة منه، وبين كل خمسين خطوة وأخرى تعلو هذا السور أبراج مراقبة فيها بعض المدافع الصدئة..."

من أوراق الرحّالة لويس بوركهات

بعد مرور ثلاث وأربعين سنة

جدّة 1857م:

"... قيل لي قبل أن أسافر إلى جدّة ممّن سبقوني بزيارتها وكنت وقتها في مدينة القاهرة، إن مدينة جدّة عبارة عن حفرة كبيرة تحيط بها الرمال من كل جهة ولكن دهشتي كانت عظيمة حين وجدتها مدينة جميلة حسنة البناء آهلة بالسكان معبّدة الطرق ويحيط بها سور عظيم عريض حصين مرتفع تعلوه أبراج متينة لكن هذا السور الحصين لا يستطيع الصمود في وجه نيران المدفعية الأوروبية ساعة واحدة، ولكنه كان كافياً في الحروب الداخلية ولكنها رغم ذلك كانت تستحق بالفعل أن تكون ميناءً لمكة التي تبعد عنها حوالى خمسين ميلاً..."

بتصرّف من أوراق ومذكّرات الرحالة الفرنسي شارل ديديه

بعد مرور عام واحد

جدّة **1858**م:

"... وأمّا الفتنة التي كانت بجدّة والتي وقعت في عام **1274** للهجرة الموافق **1858** للميلاد وسببها هو صالح جوهر أحد تجّار جدّة الذي كان يمتلك سفينة يرفرف على صاريتها العلم الإنكليزي فأراد صالح جوهر استبدال علم بريطانيا بعلم الدولة العليّة الدولة العثمانية واستبدله بعد أن أخذ الإذن من الوالي نامق باشا فغضب لذلك القنصل الإنكليزي وذهب إلى البحر ودخل المركب المذكور وأنزل علم الدولة العثمانية ورفع علم الإنكليز، ولمّا أنزل القنصل علم الدولة العليّة داسه برجله وتكلم بكلام غير لائق فغضب لذلك سكّان جدّة وهاجوا هيجة عظيمة وذهبوا إلى دار القنصل........"

من أوراق أحد المؤرّخين الجدّيين الذين عاصروا تلك الأحداث

صالح جوهر

المدى حولي واسع في مجال رؤيتي ولكنّه ضيّق ومحبوس في ذهني. أعاني من اختلالٍ بصريّ وعقليّ يجعلني أفقد الحكم الصحيح على الأشياء والناس. أقسى ما يصيبني هو الشعور بالذنب؛ ذلك الشعور القاسي الذي ينقلني من النقيض إلى النقيض بلمح البصر وبدون إشارات تسبق هذا التغيّر.

تضاءلت الخيارات والأولويات فلم أعد أميّز ما بين الأهم والمهمّ.

جدّة توشّحت بالحزن المشوب بالترقب والانتظار. باتت كمن ينتظر صفعة ما من هنا أو ركلة من هناك، وأهل جدّة ما برحوا يسلقونني بنظراتهم التي تحمل ألف معنى ومعنى، نعم لقد أيقظت جدّة من سباتها ونومها وخفرها. قامت مفزوعة من كابوس مروّع. ماذا يقول عنّي أهل جدّة وساكنوها الآن؟

أعرف ما يقولون...

يقولون إنني كنت السبب الرئيس في إثارة تلك الفتنة. هكذا بعد أن استطعت أن أحطّم تلك العنجهية الكاذبة للإنكليز الكفرة؟ فليقولوا ما شاؤوا فما قمت بفعله صباح ذلك اليوم كان نابعاً ممّا يمليه عليّ ديني وأخلاقي وشرفي، وهم أيضاً شجّعوني وقدّموا لي النصائح تلو النصائح وقالوا لي بالحرف الواحد:

– أنت يا صالح رجل شجاعة وشهامة والكل يشهد لك بالفروسية والمروءة، وكل تجار جدّة وأهلها من البحر حتى جبال مكة وما جاورها يقفون وراءك صفاً واحداً وقلباً واحداً و...

كل هذا ذهب أدراج الرياح وتلاشى كزوبعة وقتية. الوجوه لم تعد تلك الوجوه المليئة بالعزم والتصميم والإصرار، والعيون المحمرّة من غضب مكتوم علاها الذلّ والانكسار والخنوع وأصبحت نظراتها زائغة ومنفلتة..

أزقّة جدّة لم تعد تتسع لي. الرواشين الخشبية المعلقة تلوح من خلفها أشباح هائمة ما إن تراني أسير في تلك الطرقات حتى تتوارى للداخل بهدوء قاتل...

جدّة تترقّب وأنا أترقّب. سادها هدوء وصمت مريب كانت تبدو كمن يترقب مصيبة أو في انتظار حدث جلل.

في صباح اليوم هذا بالذات كنت أسير على شاطئ البحر. كان كلّ ما حولي مهشّماً ومكسّراً وبصعوبة شديدة كنت أنقل ببصري هنا وهناك. الدمار في كلّ مكان ورائحة البحر النفاذة اختلطت

بروائح الأسماك النافقة وبقايا أحشائها. الأخشاب المبتلّة تطفو على الموج بدت كغرقى عبث بهم البحر ساعة من ليل عسير...

بالكاد لمحت سفينتي الصغيرة "إيرانيا" – سمّيتها بهذا الاسم تيمّناً باسم حبيبة هندية مسلمة جاءت للحج وغادرت جدّة بدون كلمة وداع – كانت تبدو كامرأة وحيدة ومهزومة تعاني قسوة الأيّام وصروف الدهر، كانت صاريتها مكسورة من الأسفل ومقدّمتها مغروسة في مجموعة من قوارب صغيرة وأخرى كبيرة، الكثير منها طالها شيء من الأضرار بفعل تزاحم تلك الجموع الهادرة والغاضبة التي كانت هنا في الميناء قبل ثلاثة أيام.

أقف على رمل الشاطئ الناعم. أدير ظهري عن البحر. ألتفت إلى جدّة. كانت تبدو كمدينة مليئة بالوعود. ألمح بيوت الصيّادين الواطئة تلوح بلونها الأبيض الحائل للصفرة بفعل الرطوبة وأشعّة الشمس اللاهبة، تبدو من ذلك البعد كخربشات قلم في يد طفل عابث. ألمح سورها العتيق بأبوابه الأربعة فأشعر برسوخي وثباتي ولكن في أرضٍ موحلة كنت أسأل نفسي:

ماذا سيحدث لجدّة ولنا في الأيّام المقبلة؟ هل ستبقى كما هي أم ستصيبها مكائد حيكت لها في الخفاء لتدمّرها بوحشية غير عابئة بها ولا بأهلها؟ أشعر بمرارة تكوي حنجرتي لمجرّد تخيّل ما سيحدث لهؤلاء المساكين الكادحين ليلاً ونهاراً في سبيل لقمة عيش صعبة دونها أهوال شديدة في بحر غادر مليء بالمفاجآت غير السارّة...

ماذا سيكون مصيرهم بعد الذي حدث وبعد أن فقدوا ما يوفّر لهم قوتهم وقوت أطفالهم من قوارب صيد بُنيت بعرق غزير وسواعد فتيّة لوّحتها الشمس فأكسبتها سمرة قانية.

انهارت أحلامهم فجأة بسبب غضب مدمّر ولحظات من انفعال غير مدروس العواقب. ولكن رغم كلّ ذلك فما حدث قد حدث لا سبيل إلى لوم أو عتاب لا فائدة منه.

ما حدث قد حدث...

– أنت رجل شجاع يا صالح...

رجل شجاع. ماذا فعلت هذه الشجاعة أمام حمم من موجات غضب لا ترحم أحداً؟ أو ماذا ستفعل أمام حشد من جنود – هم قادمون لا محالة – مدجّجين بالعتاد والسلاح وكثرة هي حتماً غالبة للشجاعة.

المسألة مسألة وقت لا أكثر، فهم لا ريب سيأتون عاجلاً أو آجلاً، سيأتون من مكّة حيث يكون الوالي العثماني أو من البحر حيث الأخطار تكون أشدّ فتكاً وضراوة. انشغل بعض الناس في جدّة بالنهب والسلب لبيت القنصل الإنكليزي والقنصل الفرنسي ولتجّار عابرين رمت بهم الأقدار أمام حشد

عاصف مدمّر. قتلوا من كان يدين بالنصرانية منهم؛ قتلوهم لمجرّد الشكّ ولمجرّد أنّهم غير مسلمين. فتنة أعمت القلوب والأبصار. يبدو كأنّهم في هذه اللحظة قد نسوا البحر فلم يعد يربطهم به أيّ رابط، نسوه هكذا بدون مقدّمات. طمس الغضب على عقولهم فلم يعودوا يحسبون أيّ حساب لما هو آتٍ. يبدو كأنهم مثل قشّ مكوّم رُميت فيه شعلة من نار فشبّت فيه تلتهمه ببطء وشره وتوق.

هناك في تلك البرحة – برحة المظلوم – أمام بيت الشيخ محسن يجتمعون كل مساء يرتشفون القهوة وما زالت غيمة الغضب تسكن حول عيونهم وترفّ حول مجالسهم. هل راحت السكرة وجاءت الفكرة؟

لا. لا يبدو ذلك، فما زال ذلك الغضب الموتور ينفلت عقاله من خلال حركاتهم وسكناتهم، يظهر جليّاً من خلال نهرهم للصبية الذين يصخبون ويلعبون غير بعيد عن مجلسهم أو من خلال ثورات عصبيّة تشتعل في ما بينهم لأتفه الأسباب...

منذ اليوم الأول لحدوث الكارثة يجتمعون في الساحة المجاورة لمسجد الشافعي بعد أداء صلاة المغرب، يعيدون ويكرّرون ما حدث ذلك اليوم وكأنه حصل في التوّ واللحظة. في المساء يتقاطرون إلى تلك البرحة الواسعة، يجلس كبار القوم من التجار وأصحاب المال الذين لا تخطئهم العين أبداً على سرر خشبيّة تسمّى المراكيز مشدودة بحبال من سعف النخل والدوم، والبقيّة يجلسون على الأرض على فرش قديمة مهترئة بفعل القدم وعدم الاهتمام.

كنت قادماً نحوهم وأنا أخترق باب البنط من جهة البحر، قلة منهم كانوا يتبادلون الكلام بخفوت وعندما تقع أعينهم عليّ وأنا مقبل نحوهم يبتسمون لي قليلاً ثمّ تتلاشى تلك البسمات عندما يتذكّرون ما قد يحدث لهم بسببي. يعبسون في وجهي. ذلك العبوس تزداد حدّته في وجوه من يجلسون على تلك الفرش المتهرئة وأعني بهم أولئك النفر من الصيّادين البؤساء المساكين الذين تحطمت مراكبهم تحت وطأة ذلك الغضب الهائج والمدمّر..

هل يلومونني بعدما رفعت علم الدولة العليّة دولة الإسلام على صارية سفينتي ومزقت علم دولة هؤلاء الإنكليز المجرمين؟

ثم إن الأضرار التي حدثت في قواربهم وسنابكهم قد حدثت لي أنا أيضاً. لقد تكسّرت "إيرانيا" سفينتي الأثيرة التي كلفتني مالاً كثيراً وجهداً كبيراً لبنائها الذي استغرق سنتين بالتمام والكمال...

إذاً نحن في الهمّ سواء، لنا نفس الظروف من الهموم والمصاب المشترك..

منذ أن مات الشريف محمد بن عون وهم ضائعون مرتبكون، انتابهم شيء من الحمق والجنون والعبث. كنت أسأل نفسي ماذا لو تأخّر الموت قليلاً عن الشريف، هل كانوا يجرؤون على قتل القنصل

الإنكليزي؟

ثمّ ما ذنب القنصل الفرنسي أن يموت هو أيضاً؟

نعم، لقد قتلوه واختلط دمه بتراب الأرض السبخة ونُهبت داره كما نُهبت دور بني جلدته من هؤلاء الخواجات...

تصفية دينية وعرقية كانت تلك الفتنة. جرت ببشاعة تقشعرّ منها الأبدان. كنت شاهداً على معظم أحداثها الدموية. رأيت بأم عيني ما جعل النوم يجافيني أيّاماً طويلة...

ما أصاب أهل جدّة في ذلك اليوم العسير كان خارج نطاق حدود العقل والمنطق، فالناس المحتشدون كانوا أشبه بوحوش طليقة خرجت من أقفاص حديدية فعاثت شمالاً ويميناً تقتل وتدمّر، طاش الدم وتناثر على الوجوه الغاضبة؛ والأفواه الهادرة ما انفكّت تنادي بالموت والفناء...

والآن هم مستكينون هادئون يغلب عليهم الهدوء أحياناً ولكنه هدوء حذر ومخاتل. كانوا ينتظرون شيئاً ما سيحدث لكنّهم غير قادرين على تحديد ماهيته...

لا بدّ من أن يكون هنا شخص مؤهّل لكي يدير دفة الأمور ريثما يأتي شريف مكّة الجديد المعيّن من لدن الباب العالي في الآستانة، فمنذ أن مرض الشريف الكبير قبل أن يموت يترقب الناس من سيخلفه.

نامق باشا يبدو الآن كرجل مرحلة فقط لا غير، يشغل الفراغ الناجم عن انتقال السلطة في مدّة زمنية قد تطول أو تقصر...

هو الآن معتكف في دار الإمارة بمكّة. بعد الأحداث الأخيرة لم يظهر مطلقاً كما أخبرنا التجّار القادمون من مكّة، وإن كان لا بدّ من خروجه فإنه يخرج على مضض. لا يكاد ينطق بحرف واحد، متجهّم الوجه بادي الانزعاج، كان دائماً ما يكرر أنّه على استعداد تام لفرض سطوة الدولة بالحديد والنار إذا لزم الأمر كما سمعه من كانوا بجانبه في تلك اللحظة...

لا أحبّ هذا الرجل ولا أكرهه في نفس الوقت. ما يربطني به هو ذلك التصريح المكتوب منه الذي عمّدني فيه برفع بنديرة (علم) الدولة العليّة بدل علم دولة الشيطان بريطانيا وكفى...

أراهم وأنا في طريقي إليهم وقد ران على وجوههم ذلك الوجوم...

أنا لا أختلف عنهم البتّة، هم تجّار وأنا أيضاً تاجر. تضرّرت مراكبهم ولحقت الأضرار بمركبي. ستبور تجارتهم مثلما ستبور تجارتي، وما سيحدث لهم من خير أو شرّ سيصيبني بنفس القدر. باختصار، ما سيحدث لهم سيحدث لي...

والعقاب أيضاً سيكون جماعياً ولن يمسّ شخصاً دون الباقين...

عندما اقتربت منهم كنت ألمح نور شمس الأصيل ينسكب على جدران البيوت المحيطة بمجلسهم

ومساحة الظلّ بدأت تتلاشى تحت وطأة زحف الظلام الوشيك...

سلّمت فردّ عليّ قلّة من الجالسين. التقت أعيننا لبرهة وجيزة وسرعان ما أشاحوا بوجوههم بعيداً، هذا ينظر إلى الرواشين المعلقة، وآخر يعبث بالرمل أسفل قدميه، وثالث يعضّ على شفته السفلى و...

ما بال القوم؟

هل سيتحوّلون إلى فئران بعدما كانوا أسوداً؟

الصمت سيد الموقف، لا يقطعه سوى كلمة من هنا وكلمة من هناك. ضاعت التفاصيل تحت تأثير التفكير الحثيث والمتواصل.

قطع حبل الصمت عبد الله المحتسب قائلاً:

– نحن في حال سيّئة بعد الذي حدث. لا بدّ من عمل أيّ شيء...

طالما توقفت كثيراً أمام هذا الرجل. أمعن التفكير في إحساسه العالي بالمسؤولية، كان محتسباً من طراز آخر. يراقب الأسعار ويلوم التجّار على غشهم وتدليسهم، لا تأخذه في الحق لومة لائم. دائماً ما تقع عيناي عليه وهو يجول في السوق يتفقد البضائع ويطالب التجّار بأن يخافوا الله في موازينهم وأسعارهم، يخفض سعر السلعة تلك ويتلف المأكولات التي بدأ يصيبها التلف. يحبّه الناس العاديون ويكرهه التجّار أصحاب الذمم الواسعة. رجل صارم لا يرضى بالحلول الوسط... في ذلك المساء كان يبدو أربط الرجال جأشاً وأكثرهم تقديراً للموقف، يرتّب أفكاره في عقله وعندما يترجمها إلى أقوال تأتي مرتّبة تثير العواصف قليلاً ولكنّها تشحذ العقول بمنطقيتها...

– الذي حدث هو أكبر من كلّ تفكير. لم نستمع لصوت العقل. قتلنا ونهبنا وسلبنا بيت القنصل الإنكليزي والفرنسي و...

أراد الشيخ عمر أكبر تجّار القماش أن يكمل ولكن سرعان ما قاطعه عبد الله المحتسب:

– ولكن يا شيخ عمر، القنصل هو من بدأ بالشرّ، أهاننا بتمزيق بنديرة الدولة العليّة وتلفظ بأقوال مخجلة بحق الإسلام والمسلمين، باختصار يا شيخ، لقد أهان هذا النصراني أمّة الإسلام بفعلته الشنيعة تلك...

– أمّة الإسلام؟

قال الشيخ عمر بسخرية ثم زوى بوجهه للجهة الأخرى...

استشاط عبد الله غضباً والكلام يخرج من فيه كرعد هادر يصمّ الآذان:

– نعم يا شيخ عمر، أمّة الإسلام، فالقنصل لم يكن يهمّه أن يدوس على علم الدولة العليّة تحت أقدامه بقدر ما كان يهمّه أن يؤذينا في مشاعرنا نحن هنا وعلى بعد أميال قليلة من أقدس بلد على وجه

الأرض...

ثمّ أردف قائلاً وما زال غضبه يختلط بكلامه:

– نحن لا نقبل ما حدث منه وما حصل له نتيجة منطقية حيال ما عملته يداه...

أذكره جيداً في ذلك اليوم وقد احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه وهو يحضّ الناس ويستحثّ الهمم وهو يقول وقد وقف في منتصف السوق:

– أيّها الناس، لقد أهين الإسلام هنا وعلى بعد فراسخ قليلة من أطهر بقعة على وجه الأرض. لقد تجرّأ هذا النصراني على الإسلام وأهله وبلغنا أنه قد داس بقدمه القذرة على بنديرة الدولة العليّة وتلفّظ بألفاظ وقحة لا تليق بنا كمسلمين.

كان الناس ملتفّين حوله في دائرة صغيرة سرعان ما كبرت واتّسعت فضاع صوته وسط التهليل والتكبير وهمهمات ذلك الحشد الغاضب. ألّب الناس في لحظات قليلة بسبب رصيده المتخم من محبّة الناس له. ما زال كما هو حتى بعدما انتهت تلك الأزمة بنهايتها المأساوية من قتل واحد وعشرين نصرانياً أوجدهم الحظ العاثر في الزمن الخطأ والمكان الخطأ، قُتلوا بالإضافة إلى القنصل الإنكليزي والفرنسي. معظم من قُتل منهم هم تجّار وأصحاب مصالح ومنافع مشتركة مع تجّار جدّة أنفسهم، ولكي أكون دقيقاً فإن بعض التجّار الكبار في السنّ والعقل والمقام لم تكن لهم ناقة ولا جمل في تحريض عوام الناس. سيكون هذا ضدّ مصالحهم بالدرجة الأولى لكن الفتنة عمياء لا تسمع ولا ترى. تحدّثت في ذلك اليوم بأصوات نشاز وأفعال كانت من صميم الحمق والتهوّر...

كان الحديث سينحو منحى أكثر خطورة لولا تصاعد أذان المؤذن لصلاة المغرب من مسجد الشافعي القريب، فتفرّق الجمع، فهناك من ذهب إلى المسجد مباشرة والبعض إلى جهة غير معلومة...

منصور التهامي

ما إن بلغني أن القنصل الإنكليزي قد أهان الإسلام والمسلمين بتمزيقه علم الدولة العليّة وبتلفظه بألفاظ تسبّ ديننا وتنال من عقيدتنا، حتّى تملكني غضب لا أعرف مداه. خرجت من البيت بعد ظهر ذلك اليوم عندما سمعت لغطاً وصراخاً بجانب بيتي...

ما إن خرجت من الباب حتّى اصطدمت بثلّة من شباب يحملون هراوات وبعضهم يحمل سكاكين وفؤوساً ومساحي.

استوقفت أحدهم مستفسراً عمّا يحدث. أخبرني بكلمات قليلة كانت تخرج من فيه كالسهام الطائشة. مع كل كلمة كان غضبي يزداد وأنفاسي تضطرب وأصابع يديَّ تتشنّج. سألته مرة أخرى إلى أين سيذهب هؤلاء الناس؟ قال لي إنهم متّجهون صوب منزل القنصل البريطاني. لم أضيّع أيّ وقت. حملت قطعة من خشب شجر سدر كان مركوناً بجانب بيت جاري يستخدمه في إشعال التنور. انتقيت أكبر قطعة منها ثمّ سرت مع الحشد الثائر إلى منزل القنصل، وعندما وصلنا إلى هناك وجدنا الأبواب مقفلة بإحكام فتوقفنا وأصواتنا المبحوحة تصيح:

– الموت للإنكليز. الموت للقنصل. الموت لمن أهان الإسلام والمسلمين...

طرقنا الأبواب الموصدة بعنف، دفعناها بأيدينا وركلناها بأقدامنا الحافية ووكزناها بعصيّنا وهراواتنا ولكن الباب كان مستعصياً على الفتح...

ما فعله القنصل الإنكليزي صباح ذلك اليوم على مركب صالح جوهر من أفعال، ينمّ بشكل فاضح عن حقد دفين لأمّة الإسلام. الناس في جدّة كانوا يناصبونه العداء ويكرهونه كرهاً شديداً. لم أبحث في سبب كرههم له ولكن داء الكراهية انتقل هذا اليوم بين الناس كالوباء الفتّاك...

جدّة كانت ممتلئة بالحجّاج القادمين من مختلف أصقاع الأرض، لم يخف عنهم ما قاله ذلك القنصل. تألموا واستاؤوا أشدّ الاستياء. كان لا بدّ من عمل شيء ما فكان ما كان...

صالح جوهر. أكنّ لهذا الرجل احتراماً غير عاديّ، تعجبني استقامته وخلقه ولكنّي كنت أحياناً أتضايق من اهتمامه الزائد عن الحدّ أحياناً بي وخصوصاً عندما أشتري منه ما يلزمني من حوانيته المنتشرة في جدّة. يعاملني معاملة خاصّة، يبيعني بسعر أقلّ من الجميع، وعندما لا أملك مالاً فإنه لا يطالبني بالدفع الفوري بل يقول لي:

– خذ ما تحتاج إليه ولا يهمّك المال، وعندما يتوفر لديك سدّد دينك وإن لم يكن معك مال فحين ميسرة...

كان يعلم أن البحر أحياناً لا يجود بما يكنزه في أعماقه. وعندما تطول أيّام القحط تلك كنت أتحاشى الذهاب إليه أو إلى حوانيته، لكنه لم يكن يتركني مطلقاً فما إن يقابلني في زقاق ضيّق أو على مدخل الجامع حتى ينتحي بي جانباً ويضع يده اليسرى على كتفي ويشير بسبّابته في وجهي ويقول:

– اسمع يا ابن التهامي، لا يدور في بالك أنني سأنسى ما هو مسجّل في الدفاتر من ديونك ولكني أطلب منك أن تأخذ ما تشاء وقتما تشاء طالت المدّة أو قصرت، وتسدّد ما عليك عندما يفتح الله عليك برزقه، أنا لا أمنّ عليك ولكني أقدّر الرجال ممّن هم على شاكلتك...

كان يمضي في طريقه مباشرة دون أن يزيد بكلمة واحدة، كنت أدرك خلالها أنه يريد بحديثه ذاك أن يشعرني بأنه لا يتفضّل علي، بل كان يخاطبني مخاطبة الندّ للند، رجل لرجل، مثيل لمثيل...

لعلّ من أسباب ثورة غضبي تلك، أن ذلك القنصل قد اعتدى على صالح جوهر بالذات. آلمني ذلك فالرجل لا يستحق ما حدث له، سأدافع عنه بكلّ ما أوتيت من قوّة لإيماني الشديد بأنّ ذلك الرجل هو من القلائل الذين ما زال للخير بقيّة في نفوسهم وأفعالهم، أبوابه مشرعة للجميع بدون استثناء، صلاحه وتقواه وحدبه على الفقراء والمساكين، توظيفه للعمّال في مراكبه وحوانيته، تفقّده لأحوالهم والسؤال عنهم من أسباب وقوف الناس إلى جانبه في هذا الحدث الخطير، وأنا بدوري سأقف إلى جواره حتى يأخذ حقه كاملاً بدون نقصان ممّن آذوه في مراكبه وتجارته...

منذ أن خرجت من قريتي الصغيرة في تهامة كانت وقتها أحزاني طازجة غضّة. أقف على قبر أمّي بعد أن دفنتها، لم يكن لي سواها، وعندما ماتت أحسست كأن تلك الحبال التي تشدّني إلى القرية قد انقطعت، كنت وقتها حائراً ماذا أفعل. كنت ككومة رماد في انتظار ريحٍ تبدّدها وتفرّقها في دروب مهجورة وأرض أصابها اليباس وأناس تصحّرت نفوسهم وأحساسيهم ومشاعرهم مثل أرضهم تماماً...

بعد أسبوع من موت أمّي دخلت القرية قافلة حجّاج قادمة من بعض الهجر والقرى والدساكر الجنوبية أناخت جمالها أسفل القرية لتتزوّد بماء قريتنا الشهير بعذوبته، كانت قريتنا لهذا السبب قد أصبحت محطة ضرورية للقوافل، لكنّ هذا لم يكن يشغلني البتّة، ما كان يهمّني بالدرجة الأولى هو أن أرحل من هنا وعلى الفور...

كانت النجوم خابية في سماء بعيدة وأنا أرنو إليها. رغبتي في الرحيل في مخاضها الأخير دفعتني للتوجّه إلى القافلة الرابضة أسفل القرية. وفي عقلي نضجت فكرة الرحيل من هنا إلى الأبد.

وجدت نفسي مساء ذلك اليوم وأنا أسير تجاه تلك القافلة كالمأخوذ والمسحور، اخترقت بيوت القش

المتناثرة للقرية وطرقاتها المتربة. كان رجال القرية يلوذون بتلك البيوت المتواضعة حول زوجاتهم وأطفالهم، أستمع لمناغاتهم لأطفالهم وحديثهم الحميم لزوجاتهم يسردون عليهن تفاصيل يومهم المتعب في سبيل لقمة العيش. لم يحفل بي أحد ولن أحفل بأيّ منهم، كنت كغصن سقط من شجرة فلم يلق له بالاً. كنت ككومة من متاع بالٍ وقديم أو حقل أجرد لا يجود بالثمار. أنا لا أنتسب لهذه القرية. كل ما في الأمر هو أنني وُلدت هنا على ترابها. هذا هو شعوري الأكيد. وحيداً كنت أنتقل بخطواتي فيها صوب قافلة عابرة تروم الحجّ وأنا أتوق إلى الفرار إلى حيث يجب أن أكون...

على مشارف القرية شممت رائحة الجمال والحمير النفّاذة وسمعت أصواتاً متداخلة، لوم وعتاب هنا، ترحيب حارّ هناك وتلاسن يكاد يصل للاشتباك بالأيدي، ضحكات عالية تصدر من صدور لا تحمل همّاً أو ضغينة لأحد، عالم مختلط يموج بعضه ببعض...

رأيت رجالاً عاكفين على نصب الخيام في فسطاطين أحدهما للرجال وآخر للنساء. أرى الهوادج المخصّصة للنساء وهي لا تزال منتصبة على ظهور الجمال. رجال يسرعون نحو بئر القرية يجلبون الماء العذب لكي يقدّموه للناس والدوابّ المتعبة...

لم أرَ في حياتي هذه الكمّية الهائلة من الجمال التي كانت تصدر رغاءً متصلاً يمزق سكون الليل. تقدّمت ببطء وطلبت أن ألتقي بمتصرّف القافلة وقائدها، لم يردّ عليّ أحد، ربّما استصغروا سنّي فشنبي لم يطر على وجهي بعد. كانوا متحلقين في دوائر حول لهب النار، كلّ مجموعة بمعزل عن الأخرى، مجموعات كبيرة وأخرى صغيرة. أشق طريقي بجانبهم بخطوات واثقة، أمرّ بجانب كلّ جماعة فتخفت أصواتهم ويقتحمونني بنظراتهم لبرهة ثمّ يعودون إلى حالهم. أستطيع أن أخمّن ما يدور في خلدهم، فما أنا في تصوّرهم سوى مجرّد صبيّ ساقه الفضول إلى قافلة عابرة لن تكون الأولى ولا الأخيرة. سألت الكثير منهم مرّات عديدة عن قائد القافلة فما أجابني أحد، يلتفت الواحد منهم نحوي وسرعان ما يصرف وجهه إلى الجهة الأخرى. بداية سيئة، ولكنني لن أستسلم على الإطلاق...

على مسافة لا بأس بها لمحت خيمة منصوبة. تبدو في حالة أفضل من الخيام الباقية، تقدّمت نحوها، وحينما وقفت على مدخلها رأيت رجلاً جالساً على الأرض وبيده عصا سوداء اللون ينكث بها على التراب أمامه على ضوء فانوس باهت. كان وجه ذلك الرجل مألوفاً لديّ، كانت خلايا عقلي وذاكرتي تحاول أن تسترجع لحظات من زمن فائت رأت فيه هذا الرجل. عندما شعر بوجودي التفت نحوي ترك عصاه جانباً، اقترب منّي وهو يبتسم...

كان طويل القامة، صبيح الوجه، ذا لحية بيضاء. تبدّد تردّدي وتقدّمت نحوه حينما أشار عليّ لكي أدخل...

في منتصف الخيمة وقفت أمامه وجهاً لوجه كانت عيناه تقتحمانني من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى، وعندما فتحت فمي لأتكلّم كان قد سبقني هو للكلام:

– أهلاً بك يا منصور. أستطيع أن أتوقع سبب مجيئك إلى هنا. أنتظر هذه الزيارة منك. السفر هو الذي تريده، أليس كذلك؟

لم أحر جواباً هززت رأسي بالإيجاب...

أشار عليّ بالجلوس فجلست على الأرض وعاد هو إلى وضعه السابق. مضى جزء كبير من الليل رأيته بعد قليل يفرد أمامه أوراقاً صفراء اللون وهو عاكف على التدوين في أوراقه تلك. كنت متعجّباً من منظر شيخ يكتب. كان ذلك غير مألوف لديّ. رأيت رجلاً أو رجلين فقط في قريتي يقرآن ويكتبان ويستعين بهما الناس في بعض الأمور التي تستوجب القراءة أو الكتابة. كنت أرمقه بإعجاب حتى شعرت بالنعاس يداعب أجفاني...

صحوت في صباح اليوم التالي على يد تهزّني برفق، انتبهت فرأيت نفس الوجه يتبسّم لي بنفس الوتيرة السابقة، فاستعدت هدوء نفسي، قال لي:

– القافلة ستنطلق عمّا قريب فاستعدّ...

لم أكن أشعر بتلك المشاعر التي من الممكن أن تصيب شخصاً يغادر المكان الذي ينتمي إليه، لم أكن أشعر بأيّ انتماء أو صلة بهذا المكان، ولم أسعَ بدوري للتعرّف إليه ولا ممّن يسكنون هذه البقعة من الأرض. خرجت من هنا وأنا أرغب في الرحيل مبيّتاً النيّة بعدم العودة إلى هنا مرّة أخرى...

الطريق طويل. أرض فضاء قاحلة لا تجود بعشب أو ماء. لا شيء هنا سوى أكوام من الرمال وشجيرات قتلها الظمأ. تثور العواصف أحياناً فيصبح المسير صعباً فنتوقف ريثما تنجلي وتذوب في الفراغ الهائل الممتدّ في الأفق المترب. طوال أربعة عشر يوماً والقافلة تسير وقلبي يخفق وكأنه ينشد الخروج من مكانه، القافلة تتوقف حول قرى معيّنة تتزوّد بما ينقصها من مؤن ثمّ تستأنف المسير. أصبح وجودي في القافلة لا يثير الانتباه كما في الأيّام الأولى. تقبّلني الجميع كفرد منهم. أشركوني في أكلهم وشربهم ولهوهم البريء واختلاس النظر إلى النساء داخل الهوادج. تسامرت معهم تحت ضوء القمر على الكثبان الرمليّة في صحراء تهامة التي تفصل ما بين قريتي ومكّة. كانت القافلة تخبّ السير نحو مكّة حتى وصلت إلى الميقات؛ ميقات يلملم. أناخوا الجمال وتفرّق الحجاج لكي ينالوا نصيباً من الراحة قبل الخطوة الأخيرة والمهمّة تجاه مكّة للحج. في مساء يوم وصولنا بالتحديد إلى الميقات استدعاني الشيخ إدريس قائد القافلة، كنت لا أعرف بقيّة اسمه، فلم يخطر ببالي ذلك، كنت أعرفه وكفى، طلب منّي أن أقترب منه أكثر، اقتربت حتى داعبت أنفي رائحة نفّاذة من بخور أو مسك:

– رحلتك شارفت على النهاية...

كان ينظر في عينيّ مباشرة وما زال ذلك الطيف من السماحة يحوم حوله كنور باهر، وقبل أن أجيب قال لي بنفس النبرة الحنونة:

– القافلة يا بنيّ هدفها حجّ بيت الله الحرام، أمّا أنت فلك اتّجاه آخر...

أشار بعصاه السوداء اللامعة إلى بغلة واقفة غير بعيد ثمّ قال لي:

– اذهب يا بنيّ في طريقك. اذهب إلى جدّة...

لم أعرف ما هي جدّة هذه بادئ الأمر ولكن من المؤكّد أنها اسم لمكان ما، سمعت الحجاج كثيراً ما يذكرون هذا الاسم في أثناء كلامهم: بعد أن نقضي مناسكنا سنذهب إلى جدّة، من لم يسبق له السفر إلى جدّة فقد فاته الكثير أو شيء من هذا القبيل...

بدون تردّد خرجت من الخيمة متّجهاً صوب البغلة المربوطة، كنت سعيداً وراضياً برغم كلّ ذلك، وعندما استويت على ظهر البغلة اقترب الشيخ الجليل منّي ثمّ أعطاني خرجاً يبدو أنّ فيه طعاماً للطريق وباليد الأخرى سلّمني ورقة ملفوفة على شكل أسطواني ثم قال لي:

– اذهب إلى جدّة. ابحث عن تاجر يُدعى صالح جوهر وأعطه هذا الخطاب...

لم أكن أعرف أين تقع جدّة هذه. رغم أنني سمعت الكثير من أفراد تلك القافلة يتحدثون عنها. سرت إلى حيث أشار الرجل، مشيت بتلك البغلة مسافة طويلة، وعند مكان ما بدا لي كمفترق طرق رأيت ثلّة من مسافرين يتأهّبون للذهاب إلى جدّة. ساروا أمامي وسرت أنا خلفهم ببغلتي على مسافة منهم. كنت أريد الانفراد بنفسي والتفكير في ماهية الخطوة القادمة. شغلت نفسي بأحلام اليقظة وتخيّل المكان الذي سأذهب إليه، وعقدت مقارنات طويلة بينه وبين قريتي والناس الذين يعيشون فيه.

كنت أتوقف بمسافة لا بأس بها من تلك القافلة المتّجهة إلى جدّة، أقف عندما يقفون، وأسير عندما يسيرون، مرّ يوم ونصف، وبعد أن عبرنا طرقاً ضيّقة بين جبال عالية وقعت عيناي على امتداد أزرق اللون يلوح من أفق بعيد وممتدّ، عرفت في ما بعد أن هذا الامتداد والبقعة الزرقاء تسمّى: البحر...

لا اذكر أنني سبق لي رؤية البحر من قبل ولكنّي سمعت به. لم يسعني الوقت لرؤيته...

مع اقترابي من البحر رأيت بيوتاً ومنازل كثيرة تتمايز في الحجم وتتكشّف لي تفاصيلها؛ مكان كبير المساحة ومحاط بسور عالٍ له بوابات ضخمة. عبر إحدى تلك البوابات دخلت مع الداخلين وأنا أنقّل ببصري هنا وهناك تحسّست ذلك الخطاب في جيبي ثمّ أوقفت أحد العابرين وقلت له:

– أتعرف رجلاً يُدعى صالح جوهر؟

نامق باشا

أفي مثل هذا الوقت العصيب تثور هذه الفتنة الهوجاء؟

موسم الحجّ على الأبواب. النفوس بدأت تتخلص من أكدارها، والأجساد تنفض عنها الوخم والكسل، والأرواح تهيم في ذلك الفضاء الواسع المتخم بالنفحات الإلهية. الشريف محمد بن عون مات بعد صراع مرير مع المرض، وأنا في انتظار أوامر الباب العالي في من يُعيَّن من أولاده ليكون شريفاً على المدينة المقدّسة مكّة. ما هذا الذي فعله هؤلاء الأعراب الأجلاف؟

قتلوا القنصل البريطاني والفرنسي. ذبحوا معظم الأجانب المسيحيّين. نهبوا دورهم وحوانيتهم وأحرقوا بيوتهم عليهم. ألِلى هذا الحدّ هم دمويّون؟ هذه الأفعال لا تأتي إلّا من سفّاحين وقتلة لا يتورّعون عن فعل أيّ شيء...

أرسل بصري تجاه الغرب، إلى حيث تكون جدّة. السماء حبلى بشفق لونه أحمر كلون الدم. في هذا المساء والأمسيات المقبلة لن تنام جدّة بهدوء واطمئنان كسابق أيّامها، ستقتلها هذه الفتنة ولن ترتاح أبداً بعد اليوم، ستُنتهك خصوصيتها وسيتبعثر هدوؤها وستعبث بها أيدٍ كثيرة.

هناك في جدّة كلّ شيء مختلف. إيقاع الحياة مليء بالمسرّات وإيقاعها صاخب وضاجّ بالحيوية. مدينة متفجّرة بالفرح. هناك تتلاقح الأفكار وتنصهر الأجناس لتكون عجينة فريدة من نوعها: الناس الراحلون إلى شتى الآفاق والعائدون الذين ما زالت تلتصق بهم وعثاء السفر. البشر بمختلف مشاربهم وتعدّد ألسنتهم وأنماط عيشهم وأساليب الحياة وثرائها وتنوّعها، الناس هناك طيّبون ومسالمون، يعشقون الحياة لدرجة التقديس ويبذلون جهداً كبيراً في سبيل استمرارية رغد العيش وبحبوحته. يعرفون جيداً كيف يعبّون حتى الثمالة من الدنيا وزهرتها. لا بدّ من أن أعترف بأنني أعشق هذه المدينة. أفكاري موزّعة بينها وبين مكّة. في جدّة الحياة تتجسّد بكلّ ملذاتها وأنسها واصطخابها، وهنا في مكّة كلّ شيء روحاني كنسمة عفيّة تهبّ في بواكير فجر وليد. بين هاتين المدينتين أتحرّك ذهاباً وعودة، لا يستقرّ لي قرار. للحياة أحياناً أصوات صاخبة مليئة بالإغراء يضعف أمامها المرء. لا يمكن للشخص أن يكون قدّيساً طوال أيّامه. لا بدّ من الأخطاء والهفوات البسيطة وإلّا فلن نكون بشراً على الإطلاق...

ربّما، بل من المؤكّد أنّ ثمّة دماءً أريقت لأناس لا ذنب لهم في ما فعله ذلك القنصل المتغطرس. ثمّ ما هو ذنب أولئك التجّار النصارى الذين رمى بهم حظهم العاثر في خضمّ هذه الفتنة العمياء؟

ألا يدرك هؤلاء الأعراب أن مثل هذه الأفعال قد تجرّ الويلات والمصائب على الكل بدون استثناء؟
يبدو أن المصائب لا تأتي لي الواحدة تلو الأخرى بل تأتي هكذا دفعةً واحدة...
جدّة الآن لا تحتمل أيّ حماقات من هذا النوع الخطر. المدينة تغصّ بالناس، والمرفأ مليء بالسفن المكتظة بالحجّاج والبضائع القادمة من مصر وعدن وتركيا والهند والشرق الأقصى...
ثمّ من هو هذا الذي أثار الفتنة؟ آه.. تذكّرته، صالح جوهر.
صالح جوهر... صالح جوهر، لم أكن أعلم بأنّ للتجار كلّ هذه الحميّة للدين. جلّ همّهم مكرّس لجمع النقود وتوسيع تجارتهم وكنز المال في الخوابي المدفونة تحت الأرض...
هل ضرب الغباء على عقولهم لكي يفسدوا الموسم؟ هم المستفيدون أولاً وآخراً، ففي مثل هذه الشهور من كلّ عام يجنون الكثير من الربح بسبب وجود الحجاج بين ظهرانيهم...
عندما طلب منّي ذلك التاجر المدعوّ صالح جوهر أن أصدر له موافقة خطيّة ممهورة بتوقيعي لكي يستبدل علم الإنكليز بعلم دولة الإسلام الدولة العليّة لم أتردّد، لكن أن يكون ثمن ذلك كلّ هذه الفوضى وكلّ هذه الدماء فذلك لم أكن أتوقّعه على الإطلاق.
سألت نفسي لماذا أراد هذا الأهوج المدعوّ صالح أن يغيّر قناعاته هكذا فجأة؟ فبريطانيا لا تحفل به ولا بسفينته سواء رفع عليها علم الإنكليز أو الشيطان نفسه. لكن يبدو أن الأمر مختلف تماماً لدى هذا القنصل المستر "بيج". خانه ذكاؤه عندما أراد ان يكون ملكياً أكثر من الملكة فيكتوريا التي تهتف وتتحرّك باسمها الجيوش وترفرف البيارق على السفن الحربية التي تذرع البحار طولاً وعرضاً...
في البداية كان طلبه شفهيّاً من خلال كبار التجار الجدّيين وأعيان الوفود التي تأتي من جدّة إلى هنا في مكّة. قلت لهم إنه يفعل الصواب برفع علم الدولة العليّة على سفينته. لا أعلم إن كانوا أخبروه بذلك أم لا؟
جاء بنفسه إلى هنا في مكّة. لم أقابله إلّا بعد يومين وبعد إصرار منه كما أخبرني الوكيل إبراهيم آغا، ولكن لماذا أنكر أنه كان رجلاً دمث الخلق يطفر وجهه برجولة لافتة وعيناه تخترقان أعمق أعماق من يقف أمامه...
لم أستطع مجابهة ذلك السيل من النظرات القويّة والمتسلطة الصادرة منه فسلمته فرماناً سلطانيّاً بموجب السلطة المخوّلة لي من جناب الباب العالي تناوله ثمّ قبّله بكلّ إجلال واحترام وانصرف شاكراً...
والقنصل الإنكليزي، ذلك المغرور المنتفخ الأوداج المنفوش الريش كطاووس، لماذا كلّ هذا العداء الصريح منه للإسلام والدولة العليّة؟ ألم يكن من الأفضل له ولنا أيضاً أن يعالج مثل هذا الأمر بغير

هذه الطريقة العقيمة؟

هل كان يجدر به أن يسب حكومة الباب العالي؟ بل بلغت به الجرأة أن يتطاول على الدين والإسلام. وأين تم ذلك؟ في عقر دار الإسلام وعلى بعد أميال قليلة من أقدس بقعة ووسط كمّ كبير من الحجّاج القادمين من كل أنحاء الأرض...

ألم يكن من الأفضل أن لا يدخل هذا النفق المظلم والخطر الذي يجرّ الويلات والمصائب؟

لماذا تصرّ دولة عظمى كبريطانيا على تعيين سفراء وقناصل لا يتحكّمون في غضبهم ولا يتعاملون بكياسة وفطنة مع أهل البلاد التي يُعيَّنون فيها؟

أزاح العقل جانباً ولم يقس العواقب المترتبة على ما اقترفته يداه وفعل ما فعل فنال جزاءه وما يستحقه...

ماذا سأفعل الآن؟

سأكتب إلى جناب خليفة المسلمين هناك في اسطنبول أسترشد برأيه وأطلب منه الإسراع في تعيين الشريف الجديد حتى يستطيع المساهمة في حلّ هذا الإشكال.

ألم يجد الموت وقتاً سوى هذا التوقيت ليخطف الشريف ويغرقني في هذه المصيبة؟

أستغفر الله العظيم. لا أريد للغضب أن يجرفني عن الطريق القويم فيسخط الربّ عليّ...

لكن كلّ هذه الأسئلة تأكلني أكلاً، لذا يجب عليّ الذهاب بنفسي لتقصّي الحقائق ومعالجة هذه المصيبة قبل أن يحدث ما لا تُحمد عقباه...

أتذكّر جيّداً ما حدث لسلفي كامل باشا والي جدّة منذ حوالى سنتين عندما تلقّى أوامر الباب العالي في اسطنبول بمنع بيع الرقيق في جدّة ومكّة المكرّمة. ماذا حدث بعد ذلك؟

اضطربت جدّة التي كانت في تلك اللحظة بالذات ترسو في مينائها سفن محمّلة بالرقيق المجلوب من أفريقيا في انتظار تفريغها من حمولتها البشرية تلك، لكي يُباعوا ويُوزّعوا على كبار القوم من الأعيان والتجار وشيوخ القبائل في سوق نخاسة سرّي وغير معلن، وليت الأمر اقتصر على جدّة فقط بل وصلت هذه الاضطرابات إلى هنا في مكّة المكرّمة وبجوار الكعبة المشرّفة...

انقلبت الاحتجاجات إلى صدامات دامية طالت حتّى المسجد الحرام في مكّة، وعلى بعد أمتار قليلة من الكعبة المشرّفة كان منظر القتلى في صحن الحرم منظراً مؤذياً خادشاً للسكينة ورهبة المكان، لم يشفع لهؤلاء السفّاكين والقتلة أن هؤلاء أناس مطمئنون آمنون في حمى الله وفي بيته المعظم. لم تهدأ ثائرة الثائرين إلّا بعد إلغاء ذلك الفرمان السلطاني بفرمان سلطاني آخر حتى لا تفلت الأمور من أيدي

الولاة المعيّنين من طرف الباب العالي. مكّة بلد مقدّس لا بدّ من أن تحظى بالأمن والأمان، لم أكن بحاجة إلى ثورة أخرى وفي مثل هذا الوقت.

ناديت على الوكيل إبراهيم آغا الذي جاء على الفور وطلبت منه أن يجهّز قوّة لا بأس بها من الجنود بكلّ عتادهم وأسلحتهم، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسفر إلى جدّة بعد فجر يوم غد.

يلزمني يوم كامل تقريباً حتى أصل إلى هناك إذا كان معي هذا العدد الهائل من الجنود، هذا بالإضافة إلى أن جميع الطرق المؤدية إلى مكّة مزدحمة في مثل هذه الأيّام بالحجّاج والمعتمرين وأصحاب المنافع من الموسم الديني...

كنت أريد أن أختم حياتي الحافلة بخدمة الدولة العليّة بحجّة أخيرة إلى بيت الله الحرام أتقرّب بها إلى الله ولكن...

كنت أعيش في سلام داخلي انعكس بطبيعة الحال على كيفية تعاملي مع الناس. الشريف ابن عون كان له دور مهمّ في ذلك. كان يتقن التعامل مع بني جلدته، له مداخل ودهاليز يعرف كيف يستثمرها ويسخّرها في النهاية لمصلحته ولمصلحة الجميع.

صفحات عمري الباقية هنا في الديار المقدّسة شارفت على الانتهاء، ولكن السماء تبدو حبلى بأحداث جسام ستغرقني في لجّتها ولا أعلم هل سأكون وقتها على أهبة الاستعداد لها أم لا.

هنا في مكّة المشرّفة كان تسلسل أيّامي رتيباً، لا يعكّر صفو هذه الرتابة سوى مشاكل تنشب بين الناس سرعان ما أحيلها إلى شريف مكّة فيفكّ طلاسمها في لحظات قليلة بخبرته في التعامل مع قومه، بينما أنا أستغرق أسبوعاً أو أسبوعين في حلّها...

هنا في مكّة تخلصت من تلك العوالق التي تلتصق بالمرء طوال مسيرة حياته. أطوف بالبيت مرّات كثيرة، أجد لذّة في التقرّب إلى الله بعد كلّ هذه السنين.

ساعدتني تلك الأجواء الإيمانية العابقة بالتضرّع إلى الله في سمائه على أن يرزقني أيّاماً هنيئة أستعيد فيها علاقتي شبه المفقودة مع الله في السنين الفائتة...

أسهمت في الكثير من المشاريع الكبيرة والصغيرة على السواء: أصلحت القناديل والمشاعل التي تضيء الليالي المعتمة في الحرم، أصلحت ما كان قابلاً للإصلاح، أسهمت في تسوية صحن الطواف حتى ترتاح أقدام الطائفين من النتوءات التي كانت تعوق ممشاهم، وضعت على أبواب الحرم جنوداً يسهمون في تنظيم عملية الدخول والخروج إلى الحرم خصوصاً في أوقات الصلوات في المواسم الدينية كأيّام الحج أو العمرة في رمضان حيث يعجّ الحرم بالكثير منهم، أصلحت الكثير ممّا أتلف في المواقيت؛ مواقيت الإحرام المحيطة بمكّة والقريبة منها...

شغلت نفسي بتلك الأعمال بكلّ سرور، ما إن أنجز عملاً حتى أشغل نفسي بعمل آخر.

هذا أشاع كثيراً من البهجة لدى الشريف الذي كان يمكث جلّ وقته في جدّة، ربّما أراد أن ينقل مشاكل هؤلاء الناس إلى هناك بعيداً عن الحرم حيث بيت الله المعظّم. كان بيني وبينه نوع من الاتفاق الضمني أن يبقى هو في جدّة ويواجه مشاكل بني جلدته والحجاج وسوء التفاهم الذي ينشب بين حين وآخر بين تجّار جدّة، وأنا أتفرّغ لإعمار بيت الله بالخدمات التي يحتاج إليها الزوّار والحجّاج وهكذا...

حتّى عندما مرض الشريف مرضه الذي أدّى به إلى الموت بقي هناك في جدّة حيث يمكن أن يجد الأطبّاء من بين الحجّاج والمعتمرين القادمين من شتّى بقاع الأرض فيصفوا له العلاج تلو العلاج والله الشافي أولاً وأخيراً...

في مكّة تتخفّف أحمال المرء إذا كان صادقاً مع نفسه، يجد نفسه خفيفاً يقع في تلك المنطقة الزاهية بين الخوف والرجاء بمغفرة الله الكريم. الحبّ الإلهيّ يتجلّى في أبهى صورة له هنا.

كنت سعيداً ومنتشياً بكلّ هذه الأجواء حتى شاءت أقدار الله أن تخرجني من تلك الرتابة اللذيذة وأدخل في حمأة هذه المشكلة بل المصيبة الكبرى...

جاءت هذه المصيبة لتفسد عليّ كلّ خططي.

سيكون حسابكم عسيراً يا أهالي جدّة وستدفعون الثمن غالياً نظير مغامرتكم تلك.

فتنة

هو سرّي الدفين...

ما إن وقعت عيناي عليه ذات عشيّة حتّى انتابني دوران خفيف ونزّ جسدي بعرق غزير بارد، رأيت فيه سحراً يغشي العيون وحضوراً يبعثر الكلمات. بعد ذلك أصبح شغلي الشاغل، أراقبه وأحرسه كما يحرس البخيل ماله المتكدّس، أرعاه بصبر وهدوء وفي لحظات هجوعي أجد نفسي وأنا أتمتم بهذه الكلمات بدون شعور منّي:

أحبّه. أحبّه. أحبّه هذا التهامي...

كل الإشارات والتلميحات التي أرسلها له عندما نلتقي صدفة في دروب الحارة لم تلفت نظره أو لعلّه يتجاهل إشاراتي وحركاتي له؟

مهما يكن فلن يصيبني اليأس للوصول إليه. منذ أن وقعت عيناي عليه وأنا أشعر بأن عمراً جديداً قد كُتب لي. لأول مرّة أحسّ أن للحياة رغم قسوتها طعماً آخر، أشعر كأنّ جناحين من نور ساطع يحملانني بعيداً بعيداً كلما أراه ماشياً في دروب الحارة يسير كأنه يطارد طيفاً غير مرئيّ. شعره الفاحم السواد يلمع تحت ضوء الشمس فيغريني بلمسة غير عابئة بالمارّة وغير آبهة بالحياء والحشمة. بي توق غريب لكي أستوقفه وأتحدّث معه. لقد تجاهلني بما فيه الكفاية.

لا أعلم ان كان يقصد ذلك أم لا؟

المرأة العاشقة امرأة خطرة. تكون على استعداد لتكسير كلّ القوالب الجامدة، تنقلب إلى لبؤة تدور هنا وهناك ولن يستطيع أحد منعها عمّا تريده.

كان يقطن هنا قبل أن أُزفَّ إلى زوجي. في تلك الشهور العصيبة كنت أعاني من زوج متطلّب. لم أفقد يوماً الأمل في أن تتبدّل حاله، أعطيته كلّ ما يرغب فيه ولكنّه كان من النوع الذي كلّما أخذ ازداد شرهاً وطمعاً. بعد حوالى سبعة أشهر انتقل إلى أقصى درجات التطرّف. كان يهبط درجات سلّم الخسّة والوضاعة. يضربني ويشتمني ويذكّرني دائماً بأنّني مجرّد شيء عابر في حياته، مجرّد استراحة ونوبة شفقة أدّت في نهاية الأمر إلى ارتباط زوجي...

كنت أتخبّط في تلك المياه الراكدة والآسنة أرجو الخلاص ممّا أنا فيه. منصور التهامي يبدو أمامي كمخلّص حتمي أتى لكي ينقذني من تلك المتاهة الملتوية. أكثر ما لفت نظري له هو انكسار نظره كلّما

صادفته في درب أو زقاق. لم يكن ينظر إلى جسدي كما يفعل الكثير من الرجال عندما أمرّ من أمامهم، احترمني ككيان قبل أن أكون امرأة ألقتها الصدفة المحضة في طريقه...

أقحمته في حياتي إقحاماً وحفظته كسرّ دفين في أعمق أعماقي. أستعين به وأستدعيه في سرّي كلّما ساءت الأمور وحادت بي الأيّام السوداء إلى الجانب المؤلم والقاسي...

كنت أحترم ذلك الرباط المقدّس بيني وبين زوجي قبل أن يختطفه الموت ويرحل عنّي. قاتلت بشراسة زوجته الأولى وأولاده حتى استطعت الاحتفاظ بهذا البيت الذي كان يشكّل لي ملاذاً من عيون الناس المتربّصة، ألوذ به لكي يسترني من ألسنة لا تهدأ. أشعر بأهمّيته عندما يأتي المساء وتحلّ العتمة بردائها الأسود فتغمر الكون بالظلام الكثيف.

هل شعرت بالامتنان يوماً ما لزوجي الميت؟

نعم، هذا البيت المزدان بالرواشين والفسيح في مساحته وأبوابه وعقوده المصنوعة بأفضل ما وُجد في جدّة من موادّ خام صيغت بأيدي صنّاع مهرة ذوي ذوق مرهف...

صُمّم البيت هذا في ما يبدو ليكون عشّاً لزوجين سعيدين ولكن الزمن كانت له كلمة أخرى وترتيب آخر، عشت أنا كلّ تناقضاته بحذافيرها...

لم أكن أعلم أن بإمكان الحياة أن تبتسم لي مرّة أخرى بعدما فقدت كلّ أمل في البشر ولؤمهم وقسوتهم. مرّت عليّ سنتان من الجحيم كنت خلالهما أموت في اليوم الواحد أكثر من ألف مرّة.

والآن ها هي الشمس تشرق من جديد ويغمر ضياؤها عقلي وجسدي. لكم تاقت نفسي أن أذهب إلى البحر القريب فأخلع ملابسي وأغتسل بمائه وأتململ على الرمل وأعرض جسدي للشمس والهواء وأعيد ترتيب أشلائي من جديد.

بيته البسيط يجاور منزلنا. عبر الروشان شغلت وقتي بمراقبته في كلّ لحظة وحين؛ كنت أستمتع بهذه الرقابة وأحسّ بخدرها الفريد يدغدغ كلّ حواسّي. هل هناك ما هو أفضل من متابعة حبيب بعينٍ لا تكلّ ولا تملّ من رؤيته؟ ومع ذلك لم يكن يكلّف نفسه عناء النظر إلى أعلى حيث كنت أقف وأترقّب...

من أيّ طينة هذا الرجل؟

في وقت الظهيرة سمعت لغطاً أسفل الدار، أسرعت لأعرف ماذا يحدث، ومن خلال الروشان رأيته كما لم أره من قبل، كان يشتعل غضباً، أشفقت عليه منه رأيته يخرج من منزله، تحدّث مع رجل ما ثمّ رأيته وهو يبحث ببصره في الأرض ثمّ يلتقط شيئاً لم أتبيّنه، ثمّ ينخرط مع تلك الجموع الهادرة. لم

أسمع إلّا كلمات مبهمة غير واضحة تصدر من ذلك الجمع الكبير من الناس: القنصل، صالح جوهر ثم... الموت...

انقبض قلبي عندما سمعت تلك الكلمة المخيفة: الموت.

الموت لمن؟

أنا لن أتحمّل ضربة قويّة أخرى. يكفي ما حصل. بعد قليل بدأ عقلي يربط بين ما سمعته من كلمات صدرت من ذلك الحشد الهادر وما حدث في جدّة من أحداث دامية ظهر هذا اليوم، أخبرتني بتفاصيلها أمّي. الآن بدأت أفهم. فمنذ أن حصلت تلك المصيبة الكبرى بسبب ذلك القنصل يبدو أن البلد سوف يسير نحو هاوية سحيقة بعد الذي حدث في الميناء من اضطرابات وتجمعات وملاسنات. تبدو السماء محمّلة بنذر الشر. وضعت يدي على قلبي وأنا أتساءل: وما دخل منصور التهامي بالقنصل؟

كانت الأسئلة تطرق جمجمتي بقوّة، وعندما لم أعد أحتمل مزيداً من الانتظار لبست كلتي وخرجت مسرعة من البيت.

كنت أتعثّر في خطواتي وأنا أسير على غير هدى في أزقة جدّة محاولة تتبّع الأصوات الآتية من مكان لم أستطع تحديده بادئ الأمر، كنت أهرول وأنا في طريقي نحو بيت القنصل في حارة الشام حيث تقع معظم القنصليات الأجنبية. ربما كنت المرأة الوحيدة التي تسير في دروب وطرقات جدّة في هذه الظهيرة الحارّة. جلّ النساء كنّ يرقبن تلك المشاهد المتتالية عبر الرواشين والنوافذ ويتسقطون الأخبار من خلال العبيد والجواري والصبية الذين لمحتهم يقفون أمام أبواب بيوت أسيادهم وسيّداتهم وعيونهم شاخصة تجاه تلك الحشود الغاضبة من الناس. عندما اقتربت من بيت القنصل الإنكليزي تجمدت عيناي على مشهد مؤلم: الناس يتدافعون محاولين الدخول إلى منزل القنصل والأبواب موصدة، وعندما لم يستطيعوا فتح الباب تصايحوا ورأيت مجموعة من الرجال يحاولون اقتلاع جذع نخلة متيبّسة. نجحوا في اقتلاعها أخيراً وانطلقوا بذلك الجذع الضخم صوب الباب. أفسح الحشد الطريق لهؤلاء الشبان لكي يدفعوا به الباب الموصد و... هناك رأيته فخفق قلبي وأيقنت من تلك اللحظة المجنونة أنّ حلمي قد وُئد بلا رحمة أو شفقة...

عدت أدراجي. بالكاد كانت قدماي تحملانني. لا أحد يستطيع توقع الشرّ مثل قلب المرأة.

ها هو حلمي الجميل الفتيّ الغضّ بدأ بالأفول كشمس غاربة في أفق رحب بعيد وناءٍ. أنا بالفعل امرأة منحوسة، فما إن تبدأ الدنيا تبتسم لي حتّى تدير لي وجهها الآخر وتسلبني ما أعطتني إيّاه بالأمس.

في طريق عودتي مررت بجانب بيته. كافحت رغبة ملحّة في الدخول لعلّي أظفر بما ينير دربي في

معرفته أكثر. كان بالنسبة إليّ لغزاً وأملاً ومنقذاً وحبيباً وصديقاً. أنا امرأة وحيدة أتوق إلى الحبّ وأرنو إلى من يسكب في أذني كلمات الغرام والهيام بعد سنوات عجاف، زوجي البائد كان غبيّاً وبليداً كثير التذمّر سريع الغضب واقعاً تحت سيطرة زوجته الأولى يأتي إليّ كلصّ تتنبّه حواسّه عند أدنى حركة. كنت لا أحبّ رؤيته وأحتاج إلى مرور وقت طويل حتى أتخلص من بقايا وجوده هنا...

بعدما عرفت منصور أصبحت لا أحفل به جاء أو رحل...

في لجّة هذه الأفكار كدت أقع على مدخل البيت عندما اصطدمت قدمي اليسرى بعتبة الباب فبدأت أصابع قدمي بالنزف، لم أشعر بشيء إلّا بعد أن نبّهتني أمّي إلى خط الدم المرسوم على الأرض، كنت جاثية على ركبتي وعقلي متوقّف عن التفكير وفي حالة غياب تامّ عمّا يحدث حولي.

بكيت عندما احتضنتني أمّي. كنت في أمسّ الحاجة في تلك اللحظات إلى يدٍ حانية تربّت كتفي وصدر يحتويني وكفى...

كنت أنتحب وإحساس بالعجز والخذلان يغمرني. لم تسألني أمّي عن سبب بكائي بل احترمت حالتي البائسة فسكتت...

صالح جوهر

ليست لديّ أيّ امتيازات عن بقيّة تجار جدّة. بدأت من الصفر وتسلّقت سلّم التجارة المخادع خطوة خطوة. سقطت مرّات كثيرة فأجد نفسي في القاع فأعاود الصعود متحاملاً على أوجاعي وجروحي. سافرت إلى بلدان كثيرة لتوسيع مصادر تجارتي؛ سافرت إلى الهند والبحرين وعدن ومصر وبلاد الشام، كوّنت العديد من العلاقات التجارية مع شركاء كثيرين في تلك البلدان وتوطّدت علاقتي بهم أكثر بعد مجيئهم لأداء فريضة الحجّ. كنت لهم بالمرصاد. استضفت الكثير منهم في منزلي وسهّلت لهم أداء الفريضة فأدّوها بسهولة ويسر. ساعدني هذا في توسيع مصادر تجارتي، تاجرت في الأقمشة مع التجّار اليمنيّين، والتوابل مع التجّار الهنود، والمشغولات الذهبية والفضّية مع تجّار بلاد الشام والدولة العثمانية وهكذا. كانت لديّ قدرة فريدة على اكتساب المعارف وتوثيق الصلات مع من تعاملت، كانت كلمتي كالسيف، فلم يربطني بهم سوى الصدق في المعاملة والأمانة في أداء ما عليّ من التزامات وعهود ومواثيق، ورغم كل ذلك... كنت أشعر بالخزي والعار وسفينتي تحمل على صاريتها علم الإنكليز. البحر في تلك الأيّام لم يكن آمناً. يكفي أن ترفع علم الإنكليز أو أيّ دولة قوية لها سفن بحريّة تجوب البحار فيجد كلّ طامع في النهب والسلب نفسه يفكّر مليّاً قبل الإقدام على أيّ مغامرة غير مأمونة العواقب. من السهل أن تتغيّر قناعات المرء فجأة وبدون سابق إنذار. ينتقل من حال إلى حال. بلمح البصر يصبح ملاكاً ويمسي شيطاناً والعكس صحيح. منذ زمن ليس بالقصير وأنا أفكر مليّاً باستبدال العلم الإنكليزي. أولاً لقناعتي الشخصية بأنّ ذلك لا يليق برجل تقيّ مسلم مثلي، وثانياً لكرهي الشديد لهذا القنصل الإنكليزي المتعجرف الذي زادت عجرفته تلك بعد ذلك الفرمان السلطاني الذي ساوى بين المسلمين وغيرهم والذي أثار الكثير من الاحتجاج هنا على مشارف أقدس بقعة على وجه الأرض. لم يحفل الناس بذلك الفرمان، تجاهلوه وازدادت كراهيتهم واحتقارهم للنصارى. أجّج هذا الاحتقار والكره استغلال النصارى لهذا الفرمان السلطاني في الإقدام على إذابة الفوارق الاجتماعية والدينية بسرعة هائلة وكأنّهم كانوا في انتظار هذه الفرصة، فما هو في أعرافهم عادي وطبيعي كان عندنا قمّة في العيب وخادشاً للحياء ويتجاوز الأعراف والتقاليد. هذا القنصل ما إن أراه يسير في حارات جدّة وأزقتها وأسواقها بملابسه الغريبة تلك حتى تستبدّ بي رغبة محمومة لكي أسدّد لكمة على وجهه. لا يراعي حرمة ديننا ولا عاداتنا وتقاليدنا، فقبل شهرين وتحديداً في شهر رمضان الفائت، كان يجول في السوق بعد صلاة عصر أحد الأيّام العشرة الأواخر بلباسه البشع والخالي من الحشمة وهو

ممسك بعنقود عنب طائفي أخضر ويقضم منه غير عابئ بمشاعر الصائمين الكادحين الذين يعانون يوماً قائظاً طويلاً، هذا بخلاف حفلات يتجمّعون فيها بأعداد كبيرة يقيمها هذا القنصل لبقيّة قناصل الدول الأخرى وتتناهى بصخبها إلى أسماع المصلّين صلاة القيام في المساجد القريبة من منزله في أمسيات رمضان المباركة.

كنت قد توصّلت إلى قرار إنزال العلم الإنكليزي واستبداله بعلم دولة الخلافة. هذا كان أقلّ ما يمكن أن أقدّمه لبني جلدتي وديني. كنت ألمح اشمئزازهم الواضح من وجود هذا العلم على صارية سفينتي "إيرانيا".

موت الشريف؛ شريف مكّة، جعلني أسارع بتنفيذ ما نويت عمله. موته أربكني. أرسلت رسائل شفهية إلى معالي الوالي نامق باشا مع تجّار مدينة جدّة. كان ردّه مشجعاً ولكنّه لم يكن كافياً، أشار عليّ أحد التجّار من كبار السنّ والمقام أن أحصل على أمر كتابي ممهور بتوقيع أو ختم معالي الباشا درءاً لما قد يكون من توابع لهذا القرار عندما يكون شفهياً فقط.

لم يكن من العسير أن تصل أمنياتي ورغبتي بإنزال العلم الإنكليزي واستبداله بعلم الدولة العليّة إلى القنصل الإنكليزي المستر "بيج"، فالمنافقون كثر والحسّاد كثر ونهّازو الفرص كثر. استدعاني إلى منزله. ذهبت لمقابلته ذات أمسية. سرت إلى بيته الكائن في حارة الشام ونسمة من هواء رقيق الحواشي تلفح وجهي. كنت في حالة ذهنيّة مستقرّة ورائقة. لم أكن أعلم أنّ السماء كانت حُبلى بالكوارث والمصائب. قال لي بهدوء وسكينة ذئب يحوم حول نعجة لاهية بكلمات تخرج من فيه كأحجار تهوي من علوّ شاهق:

– لم أكن أعلم أنك شخص ناكر الجميل إلى هذا الحدّ يا سيد جوهر. ألم يمنحك هذا العلم يوماً ما الحماية والأمن بينما تجوب سفنك البحار وهو يخفق على سواريها؟

كان لا يزال على حالته تلك ينضح وجهه بمزيد من الغطرسة ومزيد من التسلّط..

لم أجبه سوى بكلمات قليلة باترة قاطعة لا تحتمل التأويلات:

– هذا قراري يا سعادة القنصل ولن أتراجع عنه قيد أنملة...

– هكذا إذاً. يبدو أنّك اتّخذت قرارك بالفعل لكن يجب عليك أن تتحمّل تبعات قرارك هذا.

– ......

انصرفت من بيته وأنا أدرك تمام الإدراك أنّ زمن المناورات قد ولّى. قطع خط الرجعة. فالله غالب على أمره أولاً وأخيراً، شئنا أو أبينا. لا بدّ من اتّخاذ خطوات عملية على الفور وإلّا اتُّهمت بالجبن والعجز، وقتها لن أستطيع رفع رأسي مرّة أخرى...

قرّرت بعد تفكير طويل استغرق منّي أيّاماً بعد مقابلة القنصل، أن أذهب بنفسي إلى مكّة. سافرت إلى هناك وعندما وصلت إلى ديوان الإمارة وجدت الآغا إبراهيم وكيل نامق باشا. لم أكن أعرفه من قبل ولكن دلّني عليه عبد الله المحتسب حيث كانت تربط بينهما علاقة ودّ وصداقة، وأرسل معي خطاب توصية سلمته بيده حالما رأيته. فضّه ثم قرأه، طلبت منه إذناً بالدخول إلى الوالي وعندما سألني عن سبب المقابلة أخبرته. طلب منّي الانتظار بعد ان استضافني في القسم المخصّص للضيوف في ديوان الإمارة. طال انتظاري حتّى بلغ المساء، لم أكن في عجلة من أمري فأنا على يقين تام بأنّني سأحظى بتلك المقابلة لعلمي الأكيد بأن نامق باشا يعرف جيداً لماذا أريد مقابلته...

عشية ذلك اليوم جاءني الآغا إبراهيم واعتذر منّي بلباقة وأشار إلى أن جناب الوالي سيتأخر عن مقابلتي يومين وقال لي إن سبب ذلك هو انشغاله بترتيب أمور الحجاج الذين بدأوا بالتوافد إلى المشاعر المقدّسة. اعتذر مرّة أخرى فهوّنت عليه الأمر وقلت في نفسي إنّ يومين ليسا بذي أهمّية، سأقضي جلّ هذين اليومين في الحرم أتعبّد وأصلّي وأكثر من النوافل...

كانت مكّة في تلك الأيّام تعجّ بالحجيج المنتظر بشوق إلى الأيّام المباركة ليكمل مناسكه التي أمر بها الله لمن كان مستطيعاً.

قضيت جلّ ساعات النهار في الرحاب الطاهرة أرتجي العون والسداد من الله أن يعينني على فعل الصواب.

في مكّة وصلت حبالاً كثيرة قُطعت بيني وبين ربّي، حرصت على وصلها ورتقها. ذهبت إلى التنعيم خارج مكّة، اغتسلت ولبست ملابس الإحرام وأدّيت عمرة لوجه الله تعالى. قبّلت الحجر الأسود وفي أثناء السعي صممت أذنيّ عن سقط الكلام والفعل، لأوّل مرة تنتابني مثل هذه المشاعر الروحانية. أسفل الكعبة المشرّفة شعرت بالتقزّم والضآلة أمام عظمة الخالق، قرّرت بيني وبين نفسي أن أؤدّي فريضة الحجّ العام المقبل بعد أن تكون هذه المشكلة قد حُلّت وانتهت إلى خير الجميع. لمحت في صحن الطواف وجوهاً باكية وجلة تخشى عذاب الله وترجو مغفرته. تأثّرت بذلك أيّما تأثر، سالت دموعي رغماً عنّي وشعرت كم هي الدنيا تافهة وحقيرة، سأفتح صفحة جديدة مع خالقي منذ الساعة.

مرّ عليّ يومان وكأنهما ساعتان فقط، اكتسبت فيهما قرباً إلى الله. وُلد فجر يوم جديد، كان اليوم الثالث على وجودي في مكّة المشرّفة، اكتشفت فيها طرقاً عدة لمناجاة الربّ الكريم.

وفي صبيحة هذا اليوم كنت أقف في مواجهة الوالي نامق باشا الذي هشّ وبشّ في وجهي وهو يقول:

– أهلاً وسهلاً بك صالح أفندي...

أفندي؟ كان وقع الكلمة غريباً على مسامعي. أصبحت أفندياً! ولكن هذا ليس هو موضوعي ومع ذلك قال معالي الباشا بنفس الوتيرة من لهجة الودّ:

– ما تريد أن تفعله صالح أفندي هو عين الصواب. أن تقرّر أن يرفرف علم الدولة العليّة على سفينتكم نوع من الإخلاص المحمود لدولة الخلافة الاسلاميّة، وهو ليس بغريب عليكم...

أثلج صدري كلامه. كان يحمل تقديراً مبطّناً لما نويت فعله. هززت رأسي شاكراً لمعالي الباشا الوالي ووجدت نفسي أتفوّه بمثل هذه الكلمات:

– يسرّني أن أكون خادماً لدولة الخلافة الإسلامية، وما سأفعله هو ما كان يجب عليّ فعله منذ زمن بعيد. وها قد حان الوقت والفرصة المناسبة لذلك.

نسيت فجأة تلك اللحظات الروحانية في رحاب الحرم المكّي الشريف...

ابتسم الوالي عن صفّ من أسنان بيضاء يعلوها شنب أشقر كثيف ثمّ أردف:

– لقد أصدرنا أمرنا لإبراهيم آغا وكيل الإمارة ليعطيك فرماناً مكتوباً من لدنّا نحن ممثلي السلطان عبد المجيد بن محمود خليفة المسلمين لكي ترفع بيرق الدولة العليّة على مركبكم وتستطيع أن تأخذه من إبراهيم آغا الوكيل...

وجدت الآغا إبراهيم باشا واقفاً خلفي مباشرة، سلّمني الخطاب فقبلته باحترام بالغ ثمّ انصرفت شاكراً معاليه الذي ودّعني برفع يديه لأعلى، وهذه كانت أيضاً إشارة لانتهاء المقابلة.

وعندما خرجت تبعني إبراهيم آغا وهو يحمل بيده كيساً أبيض اللون وقال لي إنّ فيه بيرق الدولة العليّة. وسلّمني أيضا خطاباً لعبد الله المحتسب كي أسلّمه له. شكرته على ذلك فهذا بالفعل ما كان ينقصني. تناولته شاكراً واستأذنت بالانصراف وقفلت راجعاً إلى جدّة والفرحة لا تكاد تسعني.

منصور التهامي

فتنة!

هذا هو اسمها. اسم له وقع خاصّ في النفوس. على الأقل بالنسبة إليّ. كانت فتنة بالفعل. تسكن في البيت المجاور لبيتي. بيتها أو بالأحرى بيت زوجها، منزل واسع ذو رواشين متعدّدة صنعها بلا ريب نجّار ماهر. مات زوجها، ذلك الرجل الذي لم أجد أسوأ خلقاً منه، كثيراً ما تقع عيناي عليه في طريق أو زقاق. كان زائغ النظرات قميء الشكل محروق الجلد، يبدو كأنّه خرج لتوّه من الجحيم، لم يكن بيني وبينه أيّ ودّ على الإطلاق. ينظر إليّ شزراً. تتغيّر ملامحه بمجرّد رؤيته لي، ولكنّي لم أكن ألقي له بالاً على الإطلاق. في ليالٍ كثيرة كنت أسمع صراخاً يأتي من ذلك البيت فأعلم أنه قد بدأ بضربها هذا الأحمق المأفون. كنت أضع على أذنيّ وسادتي حتّى لا أسمع صراخها وبكاءها الذي يقطع نياط القلب، ثمّ أسمع صوت اصطدام شيء وقع على الأرض. بعد قليل يعمّ السكون ويستمرّ طويلاً؛ وقتها فقط يبدأ النعاس يغزوني ثمّ أغط في النوم...

يحدث أحياناً أن ألتقيها صدفة في ذلك الزقاق الذي يفصل ما بيننا، فأغذ في السير خشية أن تصطدم عيني بها. يُخيَّل لي أنها عندما نلتقي في هذا الزقاق تتمهّل في مشيتها. أنا أسرع وهي تتأنّى.

ماذا أفعل بامرأة تفصلني عنها حواجز عالية وتفوقني في أمور كثيرة أهمّها ذلك البون الشاسع ما بين وضع كلّ منّا الاجتماعي؟

مات زوجها وترك لها هذا البيت الواسع والعريض. جاءت أمّها وسكنت معها. بعد موته حاربها الناس ولاحقوها بهمساتهم ونظراتهم المترعة بالشكوك والظنون. يبدو لي أنّها لم تكن تحفل بهم بل أوصدت عقلها دونهم فعاشت بسلام وطمأنينة مع ذاتها...

في إحدى المرّات جرؤت فنظرت إليها مباشرة عندما التقينا صدفة في ذلك الزقاق الضيّق. كانت عيناها تقتحمانني اقتحاماً وفيهما بريق وانطفاء، قوّة ولين، تحدٍّ وتوسّل. تلكّأت قليلاً عندما حاذيتها حتّى كادت كتفي تلامس كتفها. أصابني خور وجبن فأسرعت في السير...

ماذا تريد منّي؟

رائحة عطرها تدوخني والتواءات جسدها الملفوف في ملايتها يجعلني أشعر كأنني في مواجهة غير متكافئة مع قوى خارقة لا قبل لي بها. امرأة خطرة كانت وما زالت. ما إن أراها صدفة حتّى يكون ليلي متخماً بالأحلام والعطور الفوّاحة والأمنيات المستحيلة.

لا أدري كيف ساقتني الأقدار لكي يكون بيتي بجانب بيتها؟ كوخ حقير بجانب قصر منيف، رائحة عرقي تفوح منّي وتختلط بعطر يفوح منها يفتّق آفاق الخيال إلى مسافات بعيدة، تطلّ عليّ من فوق وأنا أنظر إليها من أسفل. ربّما تنظر إليّ من خلال فتحات الروشان وأنا أنظر إليها واقفاً في ذلك الزقاق المترب والضيّق، هكذا كنت أحدّث نفسي عندما أعقد تلك المقارنات بيني وبينها.

لماذا قلبي مغلق تجاه الجنس الآخر؟ كنت أسأل نفسي هذا السؤال فلا أحصل على أيّ إجابة.

كنت أحترم صالح جوهر الذي أعانني لكي أسكن في هذا البيت الذي تعود ملكيته له، كنت أحترم الناس من حولي وفي الأصل كنت أحترم نفسي احتراماً فيه الكثير من المبالغة، فأوصد قلبي تجاه أيّ إشارة أو رسالة من الجنس الآخر. عشت بسلام مع نفسي ولكنّه كان سلاماً منقوصاً خالياً من المتعة والمغامرة، وقد تكيّفت معه بمرور الزمن.

كنت أكدح كدحاً يغنيني عن الغواية وارتجاف القلوب. مشاعري مسلوبة بفعل مرارة الحياة وشظف العيش. كانت نائمة أو هي مستكينة تنتظر من يزيح عنها التراب المتراكم منذ زمن بعيد...

ما إن تركت تلك القافلة التي وضعتني أمام مفترق طرق وأنا أشعر بنفسي أسير وفق خطة محكمة النسج؛ أسير بلا حول منّي ولا قوة. تتناوشني الرغائب الجامحة كما يحدث لكثيرين ممّن هم في مثل سنّي المبكّرة.

أشعر بحنين طاغٍ لذلك الشيخ الجليل؛ الشيخ إدريس الذي جئت في معيّته من تهامة حتّى أصبحنا أمام طريقين مختلفين في الاتّجاه، أحدهما متّجه إلى الشرق والآخر يتّجه إلى الغرب. يزورني كثيراً في نومي كلما ادلهمّت عليّ الخطوب فيأخذ بيدي إلى برّ الأمان. كم أنا مشتاق لك يا شيخ إدريس!

أنت تعرف تماماً ما ينقصني. تعرف جيّداً كيف تسدّ تلك الفراغات الناجمة عن خواء النفوس.

قلت لي إن معرفتك بوالدي معرفة حميمة وليست معرفة عابرة تكوّنت على عجل من خلال مرورك المتكرّر بقريتي. ترحّمت عليه وذكرت أنّ له أفضالاً كثيرة عليك وأنّك حزنت عندما مررت بتلك القرية في إحدى رحلاتك إلى الحجّ فسألت عنه وأخبروك بموته...

وأذكر جيداً أنّك قلت لي إن والدي قد أحضرني مرّة من المرّات معه إلى قافلتك الآيبة من الحجّ لكي يهنّئك بتمام حجّك.

قلت لي إنني كنت ولداً صامتاً عبوساً لا أضحك ولا أبكي بسهولة ولا أستجيب لتلك المداعبات والمماحكات التي يفعلها الكبار للصغار عادة...

صامتاً وعبوساً كنت. ويبدو أن ذلك الصمت والعبوس يلازمانني حتّى الساعة.

حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا ينتابني ذلك الإحساس القاسي بعدم الجدوى الذي ينهش عقلي

وتفكيري. مؤلم هذا الشعور. دائماً ما يجعلني أتوقف وأتطلع إلى الوراء وتكون حياتي مجموعة من الطقوس التي تُؤدّى آليّاً وبدون تمازج حقيقي وغير زائف مع الآخرين.

فتنة...

إحساس بالإهمال والإهانة يغمرني كلما ألقت بها الصدفة في طريقي يرحّب بها قلبي ترحيباً حارّاً ويرفضها رفضاً قاطعاً في آن واحد...

إشاراتها كانت واضحة وتلك الرسائل التي ترسلها لي تأخذني إلى تيّارات شديدة تهزّني هزاً...

في تلك اللحظات البكر التي يطرق فيها الحبّ بابي أجد نفسي أخطو خطواتي الوجلة في أرض مسحورة يختلط فيها البكاء المرّ بالضحك النابع من قلب خالٍ من الهموم والضغائن، ينبجس الماء أسفل قدميّ فتتراخى خطواتي في ذلك العمق المؤثر وتغطس روحي في ذلك الترحاب العظيم.

عيناي مغمضتان ولكنّي أرهف السمع إلى تلك الأصوات التي تخلب اللبّ وذلك النور الساطع الذي يغشي العيون، أشعر كأنني موعود بسعادة خفيّة أو أقدار قاسية مؤلمة، أرى الأمل يلوح من خلال كوّة بعيدة. كنت كسجين في قبو مظلم أتلمّس طريقي وأنا أشمّ رائحة الضياع وأقف حائراً أمام صمت الحياة وجبروت الموت...

في مثل هذه الأمسيات الغارقة في الشجن كنت أحاول أن أزيح الصديد الجاثم على صدري. أقترب من نافذة وحيدة تمنحني الكثير من الضوء والكثير من الرمل أيضاً، أطلّ منها إلى بيوت طينية متلاصقة تذكّرني بذلك التلاصق الحميم لبيوت قريتي البعيدة، فأستعيد هدوئي قليلاً، وعندما أغطّ في النوم كان طيف الشيخ إدريس يزورني كثيراً في نومي، أعاتبه وأجد نفسي وأنا أقول له:

– أين أنت يا شيخ إدريس لتنجدني من هذه الورطة؟

نامق باشا

عهدت لإبراهيم آغا بتدبير شؤون مكّة المشرّفة حرسها الله تعالى، ريثما أعود من جدّة، يبدو أن الأمر هناك خرج عن السيطرة. عمّت الفوضى كما قيل لي. سالت دماء أبرياء بدون ذنب سوى أنّهم نصارى. اللعب بأوتار الأديان فعل فعلته بالنفوس فجعلها لا تفرّق بين الصواب والخطأ...

نُهبت دور وحوانيت هؤلاء المساكين وقتلوا. اختلط الحابل بالنابل. هؤلاء المجرمون شعروا بغياب السلطة فعاثوا فساداً. أعرف نزعات هؤلاء البدو الأجلاف؛ ما إن يجدون الفرصة سانحة للتخريب حتّى ينتهزوها. يبالغون في ردود الأفعال. سرعان ما تسقط الأقنعة عن وجوههم فإذا هي وجوه ذئاب تتعطش للدماء والبطش. يجب أن أعترف الآن بأن اليد الواحدة لا تصفق. وجود الشريف بات ضرورياً، هو الوحيد القادر على كبح جماح هؤلاء الأعراب الذين يفهمهم جيداً. أدرك الآن تمام الإدراك مدى حكمة جناب الباب العالي في أن تكون سلطتنا على هذه الأماكن سلطات إشرافية لحفظ الأمن وبسطه، أمّا مشاكل هؤلاء البدو وجنونهم فلن يقدر عليه سوى الشريف.

ولكن لماذا تأخّر تعيينه حتى الآن؟ أتمنّى أن يأتي بأقصى سرعة ممكنة حتى يمرّ هذا الموسم وهذه المصيبة على خير. سأطلب رسمياً التقاعد من الخدمة وألوذ ببيتي الريفي في طرابزون بمجرّد أن تنتهي هذه المشكلة.

صباح هذا اليوم سأنطلق إلى جدّة في كتيبة كبيرة من الجنود المسلحين جيداً. اختارهم إبراهيم آغا بنفسه وأشرف على تسليحهم. وجدتهم في الضحى مجتمعين في الساحة المحيطة بالسرايا الحكومية التي يسمّيها الناس هنا دار الإمارة، مرتّبين في انتظام عسكري مهيب. يمسكون ببنادقهم وعيونهم لا ترمش، وبجانب كلّ جنديّ منهم حصان يمسك برسنه وباليد الأخرى سلاحه. طلبت منهم الاستعداد للانطلاق إلى جدّة. وثبوا وثبة رجل واحد على ظهور خيولهم وبانتظام كبير بدأنا بالسفر تجاه جدّة. من خلال شمس تتحايل بسطوع نورها على غيم بدا غريباً وجوده في مثل هذه الأجواء الحارّة، اخترقنا طرقات مكّة ودروبها وشعابها، وعيون الناس ترمقنا بحذر وشكّ. يتوقفون قليلاً أثناء مرورنا بجانبهم ثم يستأنفون سيرهم كلّ إلى وجهته. يبدو أن هذا العدد الكبير من الجنود المسلحين أثار استغرابهم وخدش من الروحانية التي كانوا يعيشون فيها استعداداً لأداء مناسك الحج الذي كان على الأبواب. كنت أتساءل هل من الممكن أن يعرف هؤلاء الناس وجهة سيرنا؟ من المؤكّد أن الرؤية سوف تتّضح

لهم عندما نتوجّه غرباً صوب جدّة، ومن المؤكّد أنّ أخبار تحرّكنا إلى هناك سوف تسبق وصولنا إلى جدّة.

خرجنا من نطاق مكّة العمراني والسكني، لم يبقَ في مجال رؤيتنا سوى جبال جرداء تتفاوت في الحجم والارتفاع. لم نعد نسمع سوى صوت اصطدام حوافر الخيول بالحصى ونرى دوّامات ترابية تتصاعد بفعل وقع ضربات سنابك الخيل على الأرض.

وفي أماكن أخرى كان الطريق إلى جدّة يزدحم بالحجّاج. قوافل تترى الواحدة بعد الأخرى ركباناً ومشاة على وجوههم الخشوع والسكينة. أوعزت إلى جنودي بتوفير سبل الراحة لهم ومساعدتهم حالما طلبوا المساعدة. كانت الجبال حولنا ترتجّ بالتكبير والتحميد والتهليل، والصلوات تقام بمجموعات هنا وهناك. المنظر يهزّ الأبدان ومؤثّر ولكن يبدو أن سكّان جدّة لم تعد تؤثر فيهم مثل هذه المناظر المشحونة بفيض من الإيمان والدعة.

مشينا يومنا بأكمله، وعند حلول الظلام توقفنا قبيل الخطوة الأخيرة للوصول إلى جدّة لأخذ قسط من الراحة امتدّ حتى فجر اليوم التالي..

مع تباشير صباح اليوم التالي استأنفنا المسير حتى لاحت لنا جدّة من بعيد. تبدو هادئة تحت بياض النهار ولكنّ هدوءها خادع ومريب لا يعكس إطلاقاً ما يمور بداخلها من مصائب وويلات. تلوح من بعيد المآذن وسواري السفن الرابضة في المرفأ والبحر ذو اللون الفيرزوي الخلّاب يمتدّ كحزام طويل يحاذيها من جهة الغرب...

يا لجمال المنظر!

هؤلاء العربان الفاقدون للذوق السليم والرهيف لا يستحقّون كلّ هذا الجمال البسيط والفاتن. يحاولون تشويه كلّ ما هو جميل ورائق. ما إن ارتفعت الشمس اللاهبة – شمس يونيو – حتّى بدأت الأمواج تعكس ذلك الوميض الباهر الذي يخطف الأبصار ويأخذ بمجامع القلوب.

قبيل الوصول بقليل أعدت تشكيل القوّة العسكرية التي ترافقني. طلبت منهم أخذ الأهبة والاستعداد، حرصت على أن تتقدّمني قوّة من الجنود تعلن وصولي، أعرف تماماً أن وقائع تحرّكاتي تصل إلى مسامع سكانها مع الغادين والرائحين من مكّة إلى جدّة. لا بدّ من أن أظهر لهم نوعاً من الحزم وفرض سطوة الدولة العليّة وهيبتها.

وكما توقعت وجدت وفداً من الأعيان على رأسهم قاضي البلد وقائمّقام جدّة وجمع من التجّار وجمع غفير من العوام. الوجوم سائد على الوجوه برغم الترحيب والحفاوة. حرصت أشدّ الحرص على أن لا تبدر منّي أيّ لمحة أو لفتة من تهاون أو تعاطف.

لم أستجب لدعوة القاضي لأخذ قسط من الراحة بل طلبت أن أبدأ جولتي الأولى لحصر الأضرار وتقديرها...

هالني ما رأيت!

الخراب ضارب بأطنابه في بعض الأماكن في البلد وخصوصاً في حارة الشام حيث تقع القنصليّات الأجنبية. هنا دارت في عرصاتها وقائع تلك المعركة الدامية. طلبت الذهاب إلى دار القنصل الإنكليزي حيث كانت المأساة تتجسّد بكلّ معنى الكلمة، الأبواب محطّمة، بيته الذي يقع في الطابق الأعلى متهدّم، والشبابيك والرواشين مكسورة ومتدلية لأسفل، وغير بعيد كان بيت القنصل الفرنسي طاله حريق التهم جزءاً من البيت قبل أن يسارعوا بإطفاء النار – كما علمت في ما بعد – بعض الدكاكين والحوانيت منهوبة ومكسورة الأبواب والنوافذ وقد أُخرج ما في أحشائها...

في الميناء كانت الأضرار أقلّ حدّة. بعض المراكب تداخلت ببعض، وبعضها كان مهشّماً من الوسط والأطراف. تتفاوت تلك الأضرار من مركب إلى آخر.

طلبت الذهاب إلى مقرّ الإمارة. لا بدّ من أن أجتمع بذوي الحلّ والربط في البلد. يجب أن أستمع لهم بصبرٍ وحياد أسأل الله أن يلهمنيه.

رفضت كل دعوة موجّهة لي بحزم. لن أدعهم يصطادونني بالكرم العربي المعهود عنهم على الإطلاق. طلبت من القاضي والقائمّقام ووفد من الأعيان لا يتجاوز عددهم أربعة أن يوافوني في دار الإمارة بعد صلاة الظهر مباشرة. ذهبت إلى مقرّ الإمارة لكي أحصل على قسط بسيط من الراحة ولكي أرتّب أفكاري للقائهم والاستماع إلى تفاصيل التفاصيل...

ما رأيته جعلني أفكّر بعمق، فالأمر يبدو أنه سينحو منحى آخر. أيقنت أنّ أيّ إجراء سأتّخذه لن يكون سوى مجرّد مسكّن لمرض كامن قاتل سرعان ما يمتدّ وتبرز آثاره عمّا قريب.

هذه المصيبة لن يحلها مجرّد والٍ مثلي؛ هذه المشكلة ستحلّها دهاليز السياسة وعلى أكبر مستوى. ويبدو أن أمر معالجتها سيطول بعض الوقت، وسيُدفع ثمن غالٍ قبل أن تُحسم. ستُعلّق أجساد على المشانق وهناك مصائر أخرى لا أستطيع التكهّن بها.

بعد صلاة الظهر مباشرة جاء القاضي بمعيّة المفتي والقائمّقام وبعض التجّار والأعيان. لم يلتزموا بالعدد الذي حدّدته وطلبته. لا يهمّ. سأتحلّى بالصبر. جلس الجميع والصمت يزيد من تكثيف وطأة المصيبة. الرؤوس منحنية لأسفل. أصبح لكلّ كلمة الآن وزن وأهمّية قصوى. لا يجوز في مثل هذه اللحظات أن يُلقى الكلام هكذا على عواهنه. كلّ كلمة محسوبة وسيُحاسب قائلها بعد أن تتعرّض للتمحيص لكشف صدقها من عدمه.

تنحنحت وقلت مخاطباً القاضي:

– ماذا حدث؟ وكيف سمحتم لمثل هذا بأن يحدث. أتدركون أنّ ما حدث سيجرّ ويلات وكوارث عليكم أنتم في غنى عنها؟

بدأ القاضي بالحديث. كان يتكلم بهدوء واصفاً ما حدث. كنت أنا في وادٍ آخر. تركته يتكلم وعندما انتهى تناول حبل الحديث بعده القائمّقام فكبار التجار...

استمعت بصبر وبعد أن انتهوا جميعاً قلت موجّهاً حديثي إليهم كلّهم بدون استثناء:

– كل الذي سمعته منكم لا يقدّم ولا يؤخّر...

حدجوني جميعهم بنظرة واحدة من عيون لا تطرف. استأنفت الحديث غير مبالٍ بنظراتهم قائلاً بحزم:

– أريد أسماءً...

قلت بصوت أعلى:

– كلّ الكلام الذي تفوّهتم به لا يقدّم حلّاً لهذه المصيبة، أريد أسماء من كان لهم دور في إثارة هذه الفتنة وأسماء من أسهموا في إزهاق أرواح الناس ومن شاركوا في النهب والسلب والتخريب وإثارة الفوضى.

تلاقت أعينهم ثمّ استأنفت الحديث بنفس النبرة العالية:

– و قائمة الأسماء هذه أريدها خلال يومين على الأكثر.

وقفت مؤذناً بانتهاء اللقاء. طلبت منهم الانصراف. كنت بحاجة لكي أخلو لنفسي لكي أنعم النظر في الخطوة التالية.

أدرك جيّداً أنّ الكلام لم تعد له فائدة تُذكر. لا بدّ من أن تكون هناك أسماء، فالكلام يبدو متشابهاً ومكرّراً ولن يسهم في توضيح الحقيقة...

الأسماء وحدها القادرة على جمع أشتات الصورة لتكون وحدة متكاملة ومفهومة وواضحة.

قضيت بقيّة يومي في إعداد خطابات أزمعت إرسالها إلى جناب السلطان خليفة المسلمين في الآستانة، على أن أرفق بهذه الخطابات أسماء من قاموا بالقتل والتدمير والنهب وإثارة الفوضى وتأليب الناس على هذه الفتنة. سأجعل من أهل الحلّ والعقد في جدّة يبصمون بأصابعهم على هذه الرسائل حتى تتّضح الصورة لجناب الباب العالي...

جاء المساء. أخلدت إلى النوم باكراً. كان التعب قد نال منّي. وقعت على السرير كقتيل وسرعان غرقت في نوم تخلّلته كوابيس عدّة أيقظتني أكثر من مرّة طوال الليل.

في صباح اليوم التالي كنت في أفضل حال. أنعشني هواء البحر الآتي من الرواشين المخرّمة برغم الرطوبة الخانقة والحرّ الشديد.

اعتذرت عن أيّ مقابلة من أيّ نوع، إذ سرعان ما اندمجت في تفكير عميق التهم الجزء الأكبر من النهار.

في المساء استدعيت ثلّة من الجنود امتطينا صهوات الجياد وطلبت منهم أن نقوم بدوريّة تشمل الجزء الأكبر من البلد. طفنا البلد طولاً وعرضاً، مررنا بأبواب جدّة الأربعة، تفحّصت سورها العتيق الذي بناه حسين الكردي بأمر من السلطان قانصوه الغوري سلطان مصر آنذاك. كان لذلك السلطان حسّ عالٍ وتوقّع بالخطر المحدق بمدينة تتكفئ على البحر تتمدّد على الشاطئ كفتاة عارية غير آبهة بالغادين والرائحين. جدّة مدينة بريئة بالفعل. مدينة لا تحتمل العنف ولا سورات الغضب، لن يجتاحها الخطر إلّا من البحر نفسه الذي يلتصق بها. كان لا بدّ من سور يكون ملاذاً آمناً يقيها الطعنات التي تجيء من حيث لا تتوقع، ولكن ما نفع السور في مثل هذا الزمن الذي تطوّرت فيه وسائل الحرب والفتك والقتل؟

مررنا بتجمّعات بشرية من سكّان جدّة وهم يجلسون في مساحات مكشوفة يسمّونها البرحة. طلبت من الجنود ألّا يتبادلوا الحديث مع أحد منهم.

كنت أريد أن أتركهم مع نفوسهم ليشعروا بهيبة السلطة من خلال هذه الدورية التي جاءت في الوقت الضائع. عندما كنّا نمرّ حولهم أو بجانبهم يلتفتون برؤوسهم نحونا ثمّ يستأنفون تقوقعهم بعضهم حول بعض. هل كانوا يسخرون منّا؟ يثيرون غيظي أحياناً ببرودهم ذلك ولكن لا بدّ من أن أفهم أنّهم يتمسّكون بمبدأ ديني عندهم يقول ما معناه إنّ ما هو مقدَّر ومكتوب من الله سوف يحدث شئنا أو أبينا، أو هو شيء من هذا القبيل. لا حول ولا قوّة إلّا بالله، لقد أنستني تلك السنوات الطويلة التي قضيتها في الخدمة العسكرية وفي خدمة الدولة العليّة مبادئ الدين في ما يبدو.

– كلنا نتوكّل على الله في جميع أمورنا...

هكذا هتفت لنفسي في ختام تلك الجولة التفقدية. في المساء سألت نفسي: هل تلك القائمة التي من المفترض أن تُسلَّم لي في الغد ستكون صادقة ونزيهة؟ هل ستضمّ بعضاً من عليّة القوم؟ أم ستكون مزيّفة وتُزجّ فيها أسماء أناس مظلومين لا حول لهم ولا قوّة؟

هل كان ذلك يشكّل فرقاً لديّ؟ الجواب ببساطة: لا.

أريد أسماءً فقط...

على مثل هذه التساؤلات أمضيت القسم الأكبر من الليل. لا بدّ من أن أحسم الأمر سريعاً حتى أتمكن

من العودة إلى مكّة في الوقت المناسب. موسم الحجّ بقي له أقلّ من ثلاثة أسابيع. لا بدّ من أن أكون حاضراً. سأزجّ بمن وردت أسماؤهم في السجن وأعهد بها إلى ثلّة من الجنود وتحت مسؤولية الوكيل والقائمّقام خليل باشا، وسأكون بانتظار ردّ الدولة العليّة في مثل هذا الشأن. لن أتمكّن من حلّ هذا الإشكال؛ لا لعدم مقدرتي ولكن الأمر برمّته مسألة اختصاصات وصلاحيات أكبر من تلك الصلاحيات الممنوحة لي...

دعوت الله كثيراً عندما وضعت رأسي على الوسادة أن تكون القائمة جاهزة بأيديهم في صباح الغد وإلّا فسأضطرّ آسفاً إلى الزج بهم أنفسهم أولئك الذين كلفتهم بإعدادها في السجن، ودعوت الله أيضاً أن يكون نومي هانئاً خالياً من الكوابيس التي أرّقت ليلي الفائت...

صحوت على اصطفاق درفتي الشبّاك الوحيد في الجهة الأخرى من الحجرة، الذي يواجه الروشان الكبير. فتحت النافذة في المساء ونسيت إغلاقها قبل النوم. بعد حوالى ساعة كنت جاهزاً للذهاب إلى مقرّ الإمارة. لمحت في طريقي وجوهاً لم أرها أمس. كان بعضهم جالساً على الأرض في الدهليز المؤدّي إلى حجرة الديوان الواسعة والبعض يقف على رجليه. عندما دلفت إلى الديوان كانوا هناك – الأعضاء المكلفون بإحضار الأسماء – كانوا صامتين ويبدو كأنّ همّاً عظيماً جاثمٌ على صدورهم. لا يهمّ. فليجثم على صدورهم. ألقيت التحيّة باقتضاب فردّوها بصوت لا يكاد يُسمع. ما إن جلست حتى التفتّ إلى القاضي وقلت:

– هات ما عندك يا شيخ.

نهض بتثاقل ثمّ مدّ لي بورقة لمحت من خلال التسلسل الرقمي أمام كلّ اسم أن عددهم كان أربعة عشر اسماً...

– ما هذا؟

– هذه أسماء من أزهق أرواح القناصل والنصارى، أمّا من أسهم في إثارة الفتنة وأشاع الفوضى وأسهم بالرجال أو المال أو التأييد فهم أكثر من أن تحتويهم قائمة...

– ماذا يعني ذلك؟

– الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت لكي نستطيع تحديد من قام بذلك. نحن سنترك لك هذا الأمر لتفعل ما تراه مناسباً...

لم أحر جواباً. الوقت ضيّق أمامي فموسم الحجّ قد حلّ ولا بدّ من عودتي إلى مكّة...

– ستكون لنا جولة أخرى يا شيخ، أستطيع أن أقطع عهداً على نفسي بأنني سأبذل كلّ الجهد لكي ينال كلّ من شارك في هذه الفتنة جزاءه الذي يستحقّه...

تناولت منه الورقة، مررت عليها ببصري سريعاً، لم أتعرّف إلى أيّ أحد منهم. طويت الورقة وناديت الحاجب وقلت له:

– فلتأخذ معك مجموعة من الجنود وأحضر الأشخاص المدوّنة أسماؤهم في هذه الورقة.

نهض القاضي وقال بهدوء وهو ينظر في عينيَّ مباشرة:

– الأشخاص المدوّنة أسماؤهم موجودون هنا خارج الديوان يا معالي الباشا...

فجأة تذكّرت الأشخاص الذين مررت بهم أثناء دخولي إلى القاعة. أصدرت أمراً آخر للحاجب بأن يدخلهم إلى هنا فوراً.

هل يُعقل أن يكون هؤلاء هم من أحدثوا ذلك الدمار الهائل؟

هكذا كنت أتساءل في نفسي. لا يهمّ أيضاً، هم مسؤولون أولاً وآخراً بشكل أو بآخر. لم يكن من العسير عليّ أن أفهم أنّهم مجرّد أدوات في أيدٍ تحرّكها من بعد. خطوتي التالية ستكون قطع كلّ هذه الأيدي الخفيّة المتوارية عن الأنظار في الوقت الراهن. كنت أشعر بالغيظ والحنق يفترسني. أقسمت بيني وبين نفسي بأيمان مغلظة بأنني سأنال من أولئك الذين أثاروا الفتنة وأشعلوها... سأنال منهم ولو بعد حين...

طلبت من أحد الأعيان أن يكتب مضبطة بما تمّ أمس من اتفاق، ويرفق بهذه المضبطة القائمة التي بها أسماء هؤلاء الأشخاص الأربعة عشر، وأن تؤخذ تواقيعهم ببصمات أصابعهم تصديقاً لأقوالهم ويُزجّ بهم في السجن وتُخصَّص لهم حراسة مشدّدة خاصّة.

أرسلت هذه المضبطة بالإضافة إلى ما قمت أنا بتحريره مسبقاً إلى جناب الباب العالي حتى يفعل ما يراه مناسباً...

فتنة

ما كنت أخشاه حدث...

الأيّام تعاندني وتعاديني وتضع العراقيل امامي كعادتها دائماً. مرّ زمن طويل وأنا في حالة ترقّب وانتظار. حبّي له يتصاعد كما يتصاعد البخار من المرجل. صبرت كثيراً على إهانات زوجي الميت عندما كان حيّاً وعبئاً عليّ وعلى الحياة ذاتها؛ لا لمجرّد الصبر نفسه، لا، ولكن لأنّ تلك الإهانات تُمحى بمجرّد أن يخطر في بالي ذلك القاطن أسفل البيت الذي أسكن أنا فيه، وتتلاشى أوجاعي لمجرّد لقاء عابر تجمعني به الصدف المحضة أو المقصودة في ذلك الزقاق الضيّق. جسدي كان يرفض زوجي البائد بنفس القدر من رفضي العقلي. كنت أيضاً أقصيه في زاوية مهملة في مكان معتم. يضربني بغلّ وحقد. كثيراً ما كانت رجولته تخونه وتسبّب له الإحراج تلو الإحراج. يصمني بألفاظ دنيئة ومنحطة يعفّ اللسان عن النطق بها. لم يعلم أنّ كلّ جزء منّي يتفتّح كورد في بواكير الصباح والندى يقطر منه عندما يشغلني الفكر بهذا التهامي. لا بدّ من أن صرخاتي الليلية بسبب ضرب زوجي لي كانت تتناهى إلى مسامعه في الأسفل. يخونني الصبر أحياناً تحت وطأة الألم القاسي فأصرخ رغماً عنّي.

هل تأقلم جسدي مع القسوة والوحشية؟

يبدو أنه تكيّف مع مرور الوقت ولكني فصلته عن عقلي بنجاح منقطع النظير...

حانت منه التفاتة نحوي – أو هكذا خُيّل لي – في ذلك اليوم الذي هوجم فيه بيت القنصل. هل رآني، وسمع دويّ هذا القلب الكسير الذي يملكه هو فقط ولا أحد سواه. مكثت عند الروشان أنتظر مجيئه؛ حواسّي كلّها كانت في أعلى مستوى لها، النظر والسمع والشمّ، كلّ الحركات وكلّ الهمسات وكلّ الروائح، عيناي تنظران إلى الأسفل تترقّبان عودته بفارغ الصبر.

عاد قبيل غروب الشمس. يسير بخطوات يبدو كأنه ينتزع رجليه انتزاعاً من أرض موحلة. أركّز ببصري عليه فألمح... ألمح الدم يغطي صدره وينتشر في بقعة كبيرة من ثيابه.

يا إله الكون، ما هذا الذي أراه؟

دقات قلبي تكاد تقفز به عبر الروشان ليسقط عند قدميه. تنتابني حالة من عدم التوازن عندما أراه. أعراض كثيرة تتلبّسني: خفقان قلب، فقدان إحساس بالزمان والمكان، توتّر أعصاب، وغيابٌ جزئيّ للسمع...

حضوره يقسو عليّ ويبعثرني إلى أشلاء. عبر ضوء الشمس الآفلة للمغيب رأيته يسير ببطء وهو يستند بيديه إلى الجدران، يضع يديه على صدره ولا يكاد يقوى على السير، فجأة انتقلت من حال إلى حال أسوأ، طغى الخوف عليّ وشلّ حركتي. ما الذي حدث له؟

تمسّكت بالفتحات الضيقة للروشان، أصابني دوار وشعور بالغثيان. هذه الأعراض كثيراً ما تزورني عندما يفجعني أمر جلل. دلف إلى الداخل، إلى بيته. اختفى جسده وبقي طيفه يسرح ويمرح في الزقاق وفي فضاءات البيت وفي كلّ جزء منّي. قلقي بلغ أقصى مداه، والأفكار السوداء تروح وتجيء. خطر لي أن أرتدي ملايتي وأذهب إليه لكي أطمئن عليه. أكثر من مرّة أصل إلى باب الحجرة التي أقف فيها أمسك بأكرة الباب ثمّ أرفع يدي عنها. كنت في حالة يُرثى لها. تناديني أمّي فأسمع نداءها وكأنّه يأتي من بئر بعيدة الغور. تناديني للمرّة الثانية ولا أجيب. لم أشعر بها عندما جاءت إلّا بعد أن وضعت يدها على كتفي وكأنّني أنتظر تلك اللحظة إذ سرعان ما انخرطت في بكاء نفض جسدي نفضاً، تحيط أمّي بيديها على ظهري وتدفن رأسي بين ثدييها وبكائي انقلب إلى نشيج موتور. هل كانت أمّي تعلم بكلّ ما أعانيه؟

لا يفكّ طلاسم المرأة إلّا امرأة مثلها. دائماً ما كانت تشعر بالذنب لكونها السبب الرئيس في تعاستي عندما ألقت بي إلى ذلك الرجل الحقود المتجرّد من صفات الرجولة. الإحساس بالذنب يطاردها بلا رحمة. كانت عاجزة تماماً مثلي. ماذا تفعل امرأتان مكسورتا الجناح أمام ذئب بشري يعوي ليلاً ونهاراً؟ لم يكن لهما سند ولا معين يحميهما من غدر الزمان وتكالب الكلاب التي تنهش جسديهما بلا رحمة. لم أشكُ لها يوماً ما أعانيه ولكنّ جسدي كان يفضحني ويعرّيني أمامها. خطوط مزرقة على صفحة ظهري وكدمات على الخدّين وشفتان متورّمتان وكرامة مهدرة وقلب حزين...

لم ولن ألومها. ربّما هي أخطأت التقدير في رجل استولى عليّ بعقد زواج وشاهدين، هذا صحيح، ولكنّها كانت الوسادة التي تمتصّ آلامي وتتشرّب دموعي وتعيد تشكيل انكساراتي وخيبات أملي. لم أفطن لما كنت أتفوّه به وأنا متكوّمة على صدرها، ولم أنتبه إلّا لكلمات بعينها: منصور، الجرح، الدم، القنصل، و...

أحبّ أمي كثيراً. ضعفي هو امتداد طبيعي لضعفها الذي ينقلب إلى قوّة طاغية ولكنّها مكبوتة أمام القهر والظلم والإجحاف.

من خلال نهنهاتي ولعابي المنسكب على صدرها كنت أتكلّم وأتكلّم بلا توقف وهي تمرّر يديها على شعري. أسمع حشرجة في صدرها فأعلم يقيناً أنّها كانت تبكي ولكن بصمت ومن الداخل، كانت تدرك

ربّما بإحساس الأنثى أنّ من الأفضل أن تترك لي – ولو من خلال البكاء – إعادة الحياة إلى أمل يبدو نائياً وحوله غبار كثيف يحجبه عن الرؤية.

لا أدري متى هجم عليّ النوم. شعرت بيد تهزّني برفق. فتحت عينيّ لأجد وجهاً باسماً ينظر إليّ بحنان وعذوبة. كانت هي. طلبت منّي النهوض فنهضت. كانت تشير إلى الأسفل. لم أستوعب الأمر في البداية ولكن سرعان ما أدركت أنها تريد أن نذهب إلى الأسفل، إلى بيت منصور التهامي...

كنت أحتاج إلى لحظة حتى يقوم عقلي بالربط بين تلك الإيماءات والإشارات لكي يفهم القصد منها...

ما الذي تفوّهت به على صدر أمي؟

يبدو أنني قلت كلاماً كثيراً كنت أخجل وأفكّر مئات المرّات قبل أن أقوله. يبدو أنني اعترفت بما يجول في صدري. انبثق وساح إلى الخارج كماء محبوس. كانت تقف أمامي مباشرة وقد تلفّعت برداء ملوّن يغطي رأسها وصدرها ثمّ أشارت أن أتبعها فتبعتها كما يتبع الطفل أمّه بدون أيّ تردّد. قالت لي بهدوء:

– أنتِ قلتِ إنّك لمحتِه والدم يغطّي صدره.

إذاً هي تتحدّث عن منصور...

أجبت بخفوت:

– نعم.

– إذاً لنذهب معاً ونرَ ماذا حدث. سأتحدّث معه كأمّ لولدها وستلتزمين الصمت أنتِ...

نعم. سألتزم الصمت فهو صديقي الأثير منذ زمن بعيد، وهل أملك سوى الصمت في حضوره. سأحاول أن أتماسك وأكون على الحياد. سأتعامل معه للمرة الأولى كجارةٍ بيته ملاصق لبيتها فقط.

أمّي تسير أمامي وأنا أتبعها. دعوت الله أن لا يرانا متطفّل أو امرأة متلصّصة فيجعل ذلك منا علكة في أفواه الناس التي لا ترحم.

اقتربنا من باب بيته. كان الباب موارباً. طرقت أمّي الباب طرقات خفيفة فلم يجِبنا سوى أنين خافت. ارتعش قلبي. أحسست كأنّ دلواً من ماء بارد أريق على رأسي. بخطوات وجلة تقدّمت أمّي للداخل ثمّ أطلقت شهقة وهي تضرب بيدها على خدّها. مددت رأسي متطلعة إلى حيث تنظر أمّي وهالني ما رأيت. كان ممدّداً على الأرض وجرح من صدره يثعب دماً مكوّناً بقعة دم كبيرة على الأرض. عيناه نصف مغمضتين تحملقان في الفراغ. انحنت عليه أمّي تتحسّس جرحه بينما تسمّرت قدماي فلم تعودا تقويان على الحركة...

صالح جوهر

هذا ما كنت أريده بالتحديد...

فرمان مكتوب يمدّني بصدقية أعلى بكثير من الكلام الشفهي. صحيح أن هذا الفرمان أعطاني إيّاه الوالي نامق باشا، ولكن أليس نامق باشا هو الوالي المعيّن من حكومة الباب العالي في الحجاز؟

اعتباراً من الغد سأنزِل علم الإنكليز وسأستبدله بعلم الدولة العليّة، دولة الخلافة الإسلامية، جعلها الله ذخراً للإسلام والمسلمين. هناك في البرحة، برحة المظلوم وأمام الجميع، قرأ أحد التجّار الخطاب الذي سلّمني إيّاه الوالي نامق باشا أكثر من مرّة. تمعنوا تحت ضوء السراج في الختم السلطاني. في عيونهم لمحت نظرات الإعجاب والحسد أيضاً. سألوني عن ماهية الخطوة القادمة؟ فقلت لهم من الغد سأنزل علم النصارى وأرفع علم المسلمين.

– أنت بالفعل رجل شجاع. نشكر لك حميّتك وغيرتك على ديننا ومبادئنا.

هكذا قال عبد الله المحتسب. تعالت أصوات أخرى مستحسنة ما سأفعله، لم أتبيّنها بسبب العتمة التي كانت تحجبهم عنّي.

قضينا الليل في سمر وحديث مسهب وطويل. أمسية كنت فيها قطب الرحى. قبّلني البعض على رأسي وعيونهم تطفر بإعجاب كبير. البعض اختنق صوته وهو يشدّ على يدي مهنّئاً. ذلك الشعور بالعار من وجود العلم الإنكليزي الذي يخفق عالياً على صارية سفينتي "إيرانيا" بدأ يذوي في داخلي ويحلّ محلّه شعور بالاعتزاز والفخر...

جافاني النوم تلك الليلة. كنت أتقلّب يمنة ويسرة والأمر السلطاني موضوع في حجري أتلمّسه بيدي فتسري بداخلي رعدة تبعد النوم أكثر فأكثر. عنّ لي أن أذهب إلى المرفأ فأنزل العلم الإنكليزي وأضع مكانه العلم العثماني. هكذا فما إن تشرق شمس الغد ويتجمّع الصيّادون والتجّار هناك حتى يفاجئهم العلم العثماني يخفق في الهواء. لم أستصوب الفكرة، فما سأقوم به في يوم الغد يجب أن يكون على الملأ وأمام أعين الناس وتحت نور الشمس وبكلّ فخر واعتزاز...

لا بدّ من أن تكون تلك الحفاوة والأبهة تحت سمع الناس وبصرهم حتى يكون للتغيير حلاوته وعنفوانه.

فردت العلم العثماني الذي سلّمني إيّاه إبراهيم آغا. هالني حجمه الكبير نسبياً. طويته ثمّ وضعته على طاولة خشبية وعدت أدراجي إلى سريري وسرعان ما رحتُ في نوم عميق...

وكأنما المؤذّن كان يؤذّن في أذني عند الفجر. قمت بنشاط وحيوية من الفراش. توضّأت وذهبت إلى الجامع؛ جامع الشافعي. بعد الصلاة وجدت مجموعة من الأصحاب على رأسهم عبد الله المحتسب ومنصور التهامي. ذكّرتهم بما سأقوم به اليوم ووجدتهم على نفس الدرجة من الحماسة التي كانوا عليها مساء البارحة. اتّفقنا على أن نذهب ضحى إلى المرفأ، ثم عدت إلى البيت منتظراً شروق الشمس بكلّ شوق.

ما إن عمّ الضياء الكون والناس حتى قمت وأنا أقفز قفزاً في خطواتي. تناولت العلم ثمّ توكّلت على الله. خرجت من البيت ميمّماً وجهي شطر البحر، تحديداً إلى المرفأ حيث تكون سفينتي الأثيرة "إيرانيا". ما إن وقع بصر بعض البحّارة عليّ وأنا أسير بتؤدة وثقة حتى تجمّع حولي جمع غفير منهم. صيّادون وتجّار وسماسرة وحمّالون وفضوليّون خُيّل لي أنهم كانوا في انتظاري منذ مساء البارحة.

لم أشعر بمثل هذه المشاعر المختلطة من قبل: ثقة وفخر، عزيمة وإصرار، مغامرة وتحدٍّ. أشعر بأنّ قدميَّ بالكاد تلامسان الأرض. أرنو إلى سفينتي "إيرانيا" التي تبدو مثل العروس المجلوّة. ما أجملها في هذا الضحى. صاريتها وقلوعها المطويّة ولونها البنّي الداكن. أراها كأنني أشاهدها لأوّل مرّة. هناك على الصارية يخفق العلم الإنكليزي بسبب ريح خفيفة كانت تهبّ في هذا الضحى...

اقتربت من المركب. كبّر الجمع بحماسة. بعضهم ابتسم لي والبعض احتضنني وربّت كتفي. لمحت منصور التهامي على ظهر المركب ينظر إليّ باحترام كعادته. لم يخب ظنّي فيه. طالما كنت أجده حولي في الأفراح والأتراح مواسياً أو معزّياً يتحرّك يميناً ويساراً. ساعدني على بلوغ ظهر السفينة وتناول الكيس الأبيض الذي يحوي العلم العثماني. تنحّى جانباً مفسحاً لي المجال لكي أبدأ تلك الخطوة المهمّة التي طالما انتظرتها وتشوّقت لها وأعددت لها العدة.

ما أحلى لذّة النصر...

هكذا هتفت لنفسي وأنا أُنزل العلم الإنكليزي. أنزلته رويداً رويداً بتسريبات متأنّية من الحبل الذي أمسكه بإحكام في يديّ. وقع العلم الإنكليزي على أرضيّة المركب. حملته بيديّ وكوّمته في ركن على ظهر المركب، راودتني رغبة ملحّة كي ألقي به في البحر ولكنّي تريّثت قليلاً، فمهما يكن فقد منحني هذا العلم الحماية في يوم ما. لم أجد ضيراً في أن أمنحه قليلاً من ردّ الجميل. سأطويه ثمّ ألقيه في مكان بعيد عن العيون.

أخرجت بتأنٍّ العلم العثماني فكبّر الحشد بتكبيرات أشدّ نبرة حتى اختلطت تلك التكبيرات بأصوات طيور النورس التي كانت تحوم قريباً من الرؤوس. وضعته في المكان المخصّص ثمّ شددت الحبل.

العلم يتصاعد على مهل. وصل إلى أعلى الصارية وهو يرفرف كجناحي نسر كبير. تقاطر الحشد يهنّئونني ويقبّلون رأسي. كنت في تلك اللحظات التي لا تُنسى أشعر كأنني ملك متوّج. إحساس بالعظمة يملأني ويزيدني انتشاءً. فرحة غامرة تلفحني تحت ذلك الفيض من التقدير والاحترام...

بعد وقت ليس بالقصير بدأ الناس بالانصراف إلى أعمالهم. مكثت واقفاً أتطلّع حيناً إلى العلم وحيناً إلى زرقة البحر الفاتنة التي تمتدّ أمامي. كانت تلك الزرقة يومها شيئاً غير عادي، تحثّ الرائي لها لكي يغرق تماماً في لجّتها. كانت كأمنية عزيزة بدأت تتحقق. مرّت ساعات جبت خلالها ظهر السفينة غادياً ورائحاً أتطلّع إلى العلم العثماني وهو يخفق. أشعر بنشوة كبيرة جعلت من حركتي على ظهر السفينة سريعة. استقبلت وفوداً من المهنّئين الذين جاؤوا متأخّرين. شكرتهم من الأعماق وتمنّيت لهم نهاراً حافلاً بالسعادة والرزق الوفير. كان النهار يقترب من منتصفه تقريباً. حانت منّي التفاتة نحو الشاطئ القريب فلمحت رجالاً قادمين نحوي على ظهر قارب صغير. هل هم مهنّئون جدد جاؤوا لتهنئتي؟

يقتربون قليلاً أحاول أن أعرف من هم. من خلال وهج أشعّة الشمس التي كانت تسكب بضوئها على شعر أشقر أسفله وجه أحمر وجثة هائلة الحجم استطعت أن أتبيّن من هو.

كان ذلك هو القنصل الإنكليزي المستر ''بيج'' بعينه. ما الذي أتى به في هذه اللحظة؟

لم يكن بمفرده. معه ثلاثة جنود مدجّجين بالسلاح، والرابع أعرفه تمام المعرفة: فرج يسر. تاجر من تجّار جدّة المعروفين والمرموقين. كان بمثابة المستشار للقنصل أو هو بمعنى أصحّ يُطلق عليه اسم: محامي القنصل. أعرف فرج يسر. تاجر نزيه وأمين. الكلّ يشهد له بالصلاح والاستقامة. من يستطيع إنكار فضله الكبير على سكّان جدّة عندما قام بجمع تبرّعات من تجّار وأعيان جدّة بالإضافة إلى ما أنفقه من مال طائل في سبيل إصلاح العين القوصية، عندها لهجت له الألسنة بالشكر والعرفان. خفّف ذلك العمل الخيري الكثير من الوقت والجهد على سكانها الذين كانوا يجلبون الماء عبر الزقّة التي تُحمل على الكتفين والفناطيس المحمولة على ظهور الحمير والبغال من أمكنة بعيدة. لكن رغم ذلك كان فرج يسر بعيداً عنّا قليلاً وعن همومنا ومشاكلنا؛ أقصد تلك الهموم والمشاكل الصغيرة بعد انقضائها والكبيرة وقت حدوثها، ثم تلك النقطة السوداء التي أعني بها تعامله وصداقته لهذا القنصل المتعجرف، وهذا ما أوجد سوراً يعلو كلّ يوم ويرتفع بينه وبين أبناء جلدته ومدينته...

كانوا يتقدّمون نحو سفينتي بواسطة سنبوك صغير وهم صامتون. يقتربون أكثر حتى تكاد مقدّمة ذلك السنبوك تلامس سفينتي. أرى على ملامح وجه القنصل الإنكليزي غضباً هائلاً لا تكاد تخطئه العين. أوجس قلبي خيفة من مجيئهم هذا...

أشعر بخطر محدق يقترب منّي. قلما يخطئ إحساسي بالمصائب والمتاعب. أشمّها من بعد وأستطيع

التكهّن بها. يزداد نبض قلبي وتتنمّل نهايات أصابع أقدامي. يجفّ ريقي ويتصاعد تنفسي. ليس ذلك جبناً وخوراً منّي، لا... ولكنني رجلٌ أجنح دائماً للسلم. أكره المشاكسات والمناكفات. أرى فيها مضيعة للوقت ومجلبة للمتاعب والمصائب...

الشرر المتطاير من عينيْ القنصل لا ينبئ إلّا بكلّ الشرور، زامّاً شفتيه ولون وجهه ازداد امتقاعاً واحمراراً بسبب حرارة الهواء وأشعّة الشمس اللاهبة. قفز الجنود الثلاثة إلى المركب وساعدوا المستر بيج على الصعود. ومدّوا أيديهم لفرج يسر الذي كاد يسقط في الماء بعدما زلّت قدمه. وقف أمامي القنصل مباشره وعيناه تطلقان لهباً وشرراً. كان ينظر إلى العلم العثماني ويوجّه كلاماً لي لم أفهمه، التفتُّ إلى فرج يسر الذي ترجم لي ما قاله. قال عنّي إنني شخص أحمق ناكر للجميل. أزحت عن سارية سفينتي بيرقاً طالما منحني الحماية وجعلني أجوب البحر بكلّ راحة واطمئنان و... هذا ما استطعت أن ألتقطه من كلام القنصل بترجمة فرج يسر...

كان يتكلم ووجهه يزداد احمراراً وأوداجه انتفاخاً. ثمّ في لحظة خاطفة تقدّم إلى الصارية وأنزل العلم العثماني، وبعد ذلك مزّقه بسكين صغير أخرجه من مكان ما وداس بقدمه على تلك الأجزاء المقصوصة من العلم الملقاة على سطح السفينة...

حاولت الاحتجاج وتقدّمت نحوه لأمنعه، فدوّى صوت هائل من ورائي، التفتُّ فإذا بأحد الجنود قد سدّد طلقة تحذير في الهواء ثمّ صوّب بندقيّته نحو صدري مهدّداً بأنّ الهدف التالي لبندقيته هو رأسي.

التفتُّ إلى فرج يسر وطلبت منه تحذير القنصل من مغبّة عمله هذا الذي سيدفع ثمنه غالياً.

زمّ فرج يسر شفتيه ثمّ نقل ما قلته للقنصل الذي كان جوابه أشنع. وضع قدمه للمرة الثانية على قطع العلم العثماني المكوّمة أسفل قدميه وبدأ يتمتم بكلام لم أفهمه. لم يكتفِ القنصل بما فعله، لمح العلم الإنكليزي المركون في الزاوية القريبة. فرَدَه ثمّ وضعه على حبل الصارية وشدّه إلى أعلى فعاد العلم الإنكليزي يرفرف من جديد على سفينتي...

بسبب ذلك اللغط وتلك الطلقة التي دوّت في الفضاء تجمّع الناس حول المركب. حاول البعض منهم الصعود ولكنّ دويّ الطلقات التحذيرية منعهم فوقفوا غير بعيد والقهر والغضب مرسومان على ملامح وجوههم. كانوا قد فهموا ما حدث. شاهدوا العلم الإنكليزي يرفرف مرّة أخرى على صارية سفينتي. ينقّلون بصرهم بين القنصل والعلم بعيون تقدح بالشرر. تاريخه وسجلّه الحافل بالسواد والعداوة والبغضاء والحزازات معهم برز فجأة للعيان وانفتحت صفحاته. لو لم يكن معه هؤلاء الجنود لمزّقوه تمزيقاً بأسنانهم لكنهم كانوا قلة قليلة أكثرهم ابتلعهم البحر وهم على ظهور قواربهم يطاردون رزقهم وقوت عيالهم.

نزل القنصل إلى أسفل مزهوّاً بما فعله. دوّت طلقات كثيرة أفسحت الطريق أمامه، ثمّ سلك طريقه عائداً إلى حيث أتى...

منصور التهامي

هل هي أمّي؟

لا ليست هي. أمّي أطول قليلاً. ولكن مهلاً هناك واحدة أخرى تقف خلفها وتنظر نحوي وهي ممسكة بجامتها[1] وتخفي وجهها. أحاول أن أتحرّك ولكنّي لا أستطيع، جرحي نازف وألم لا يُطاق يخترق أضلعي وسخونة في جسدي وعرق غزير تسكبه مسامّ جلدي بسخاء. يخيَّل لي أني سمعت طرقاً على الباب، لم أستطع أن أرد إلا بآهات تصدر رغماً عني.

1 الجامة: نقاب له ثقوب تغطّي به المرأة وجهها ويغلب عليه اللون الأزرق.

أنفي يتشمّم عطراً طالما دوّختني رائحته ولكن أين؟ آه تذكرت...

فتنة!

هكذا هتفت لنفسي من الأعماق. نعم هي أعرفها. ذلك البريق والبهاء يشعّ منها رغم العتمة التي كانت تزحف بخفة وهدوء. ولكني عاجز عن القيام والترحيب بهما. ما الذي حدث؟

استيقظت من قيلولتي على لغط وصراخ قريب من الدار. خرجت مستكشفاً الأمر. مجموعة كبيرة من الناس تمرّ من أمامي. استوقفت أحدهم وسألته ماذا يحدث؟

تكلم معي بغضب وانفعال بسببه يبرز ذلك العرق النافر كحبل في رقبته...

قال إن القنصل الإنكليزي قتل صالح جوهر ومزّق العلم العثماني وسبّ الإسلام والمسلمين وهدّد بقتل كلّ من تسوّل نفسه إهانة دولة الإنكليز...

صالح جوهر قُتل – حمدت الله كثيراً بعد أن اتّضح لي في ما بعد أنه حيّ يُرزق – والقنصل الإنكليزي يهين الإسلام والمسلمين... يبدو أن هناك تطوّرات وأحداثاً جرت بعد مغادرتي الميناء. يا لها من دواعٍ مهمّة تستوجب الغضب وتجلب الاحتقان، لمحت قطعة من خشب السمر بجانب أحد المنازل. أمسكتها بيدي اليمنى وانخرطت في ذلك الحشد الثائر الذي ساقني سَوقاً تجاه منزل القنصل. كان حجم هذا التجمّع يزداد كلّما مرّ من أمام مجموعة من الناس. رأيت عبد الله المحتسب يخطب في الناس بحماسة في إحدى البرحات. تجمّع الكثير من الشبّان الذين كانوا يزدادون اشتعالاً مع كلّ كلمة تصدر منه. من المؤكد أنه قد اندسّ أيضاً في تلك الحشود الكثير من الناس ممن ليس لديهم أدنى فكرة عمّا يحدث. حشد هائل يتدحرج مثل كرة من اللهب تسقط من فوق جبل عالٍ وتكبر. كان من العسير إيقافها.

عندما اقتربنا من بيت القنصل الإنكليزي وجدنا الأبواب مقفلة بإحكام، والحرّاس القليلون فرّوا عندما شاهدوا هذا العدد الهائل من الناس القادمين الغاضبين. حاولنا فتح الأبواب ولكنها لم تُفتح. جلب بعض الفتيان جذع نخلة يابساً ثم بدأوا بدفع الباب. دفعني ذلك الموج الهادر من البشر حتى وجدت نفسي أمام الباب مباشرة. في جولة من تلك الجولات الغادية والرائحة لذلك الجذع الذي كان يتحرك إلى الأمام والخلف خرج عن مساره وانغرس جزء ناتئ منه في صدري...

انغرس في صدري بسبب نظرة خاطفة لمحت فيها فتنة وهي واقفة في مكان ما...

تحاملت على نفسي وانتحيت جانباً بصعوبة. أسفل الثدي الأيمن من صدري أصبت بجرح غائر، تحسّسته بأصابعي فغاصت مقدمة أصابعي في شقّ كبير وغطى الدم يدي. كنت أشعر به دافئا لزجاً يسيل بغزارة على بطني وينتشر لونه الأحمر القاني على ملابسي...

بصعوبة أخرجت جسدي من بين تلك الأجساد المحشورة والمتلاصقة بعضها ببعض. لم ينتبه أحد لما حدث لي. قيّض الله لي فتى رأى ذلك الدم الغزير، أزاح الناس من طريقي حتّى أخرجني من وسط ذلك الحشد الغاضب. سألني إن كنت أريد منه أن يساعدني في الوصول إلى بيتي. شكرته وقلت له إنني بخير. تركني ثمّ حشر جسده في تلك الكتلة البشرية الهائلة من الناس...

بالكاد كنت أمشي عائداً إلى البيت. المعركة لن تحتاج إلى فرد جريح لا يقوى على حمل نفسه.

عبرت أزقّة كثيرة. أتحامل على نفسي وأستند في مشيي الوئيد إلى الجدران. الشمس تميل إلى الغروب. البيت أمامي مباشرة، ورغم المسافة القصيرة التي تفصلني عنه بدا لي يبتعد عنّي كلّما اقتربت منه.

أدفع الباب بصعوبة. تهالكت بجسدي المنهك على الأرض. الآلام تستنزف كلّ طاقتي على التحمّل. يبدو أنني سأفقد إحساسي بالأشياء في ما حولي. كلّ شيء يدور ويدور أمامي، أثاث البيت البسيط أراه مائلاً وعلى وشك السقوط. أتهاوى على الأرض. يرتطم جسدي بأرضيّة البيت. تتوقف حواسّي عن الإحساس بما حولي. أغمض عينيّ. أحاول أن أفتحهما مرّة أخرى فلا أستطيع...

كم مرّ من الوقت وأنا على تلك الحالة؟

سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. تمنّيت أن يدلف الطارق إلى الداخل مباشرة. لم أقوَ على الرد. حاولت استجماع قواي لكي أجيب. ندّت منّي آهة طويلة ومتّصلة.

فتنة. ها نحن الآن قريبان أكثر ممّا كنت أحلم. وجهاً لوجه، ولكنّي الآن مجرّد رجل جريح وكسير. اقتربت منّي المرأة الأخرى. عرفتها، إنها أمّها. ذكّرتني بأمّي المتوفاة في تلك القرية البعيدة في صحراء تهامة. أسمعها كالحلم تصيح على فتنة وهي تطلب منها إحضار ماء على وجه السرعة.

تسرع فتنة بعد نداء أمّها الثاني لها. خرجت من البيت مسرعة. أشعر بتلك اليد الحانية تتلمّس جبهتي الساخنة والغارقة في عرق غزير. كنت أرتعش. أشعر ببرد شديد يكسو عظامي رغم سخونة الجوّ في مثل هذا الوقت من السنة.

تجيء فتنة مسرعة بعد زمن لا أعرف طال أم قصر. ألمح تقاسيم وجهها العذب رغم ضبابية الرؤية، لم تعد تضع لثامها على وجهها. فتنة كانت بالفعل اسماً على مسمّى، سمراء كلون الشمس ساعة الأصائل وقد اكتست ملامحها بهمّ عظيم...

هل كُتب عليّ أن يجتمع شملي بمن كنت أحلم بها في نومي ويقظتي وأنا في أسوأ حالاتي؟

هناك في دروب قريتي المنسيّة في صحراء تهامة، وبعد موت والدي ثمّ أمّي، أحسست كأنني أملك حرّية التصرف في ما سأفعله أو أقرّره. في يدي حرّية مطلقة وأنا شابّ على أعتاب الرجولة ورونق الشباب وبداية تفتّحه. كنت خالياً من القيود، كنت كصقر يجوب قمم الجبال الشمّاء، لا يحبّ القيود أو الأقفاص حتى لو كانت مصنوعة من الذهب.

طفولتي لم تكن سوى مساحة شاسعة من الصمت والتأمّل. صفات لا تليق بطفل من المفترض أن يميل إلى الحركة والشقاوة في مثل هذا العمر، حتى ملامح أمّي وأبي تلاشت في ذهني، لم أحتفظ في ذاكرتي سوى بذلك التطلّع إلى ما هو خلف الكثبان الرملية المحيطة بالقرية. الأيام تنصرم كعمر لا فائدة منه، كنت أرى قريتي مجرّد سجن كبير يقع في وسط صحراء محاطة بالفراغ والصمت ولا شيء سواه...

علاقاتي بأقراني ممّن هم في مثل سنّي شابها كمّ كبير من الجفاء والعلاقات الملتبسة. حاولوا كثيراً أن يشركوني في لهوهم وصخبهم ولكنّي لم أجد في ذلك ما يثير تطلعاتي واهتماماتي. بعد ذلك كنت أغيب عنهم فلا يسألون عنّي، وأحضر فلا يطلبون منّي مشاركتهم لهوهم وعبثهم...

مات والدي في ظروف سيّئة؛ مات أثناء عاصفة كبيرة من تلك العواصف التي كانت تثور في معظم أيّام السنة، مات وهو يسعل سعالاً متواصلاً ويبصق دماً ووالدتي تحاول أن تسقيه ماءً لعلّ ذلك السعال يتوقف. لم أكن أشعر بأيّ شفقة عليه عندما تنتابه حالات السعال تلك بل لقد وجدت نفسي وأنا أردّد بيني وبين نفسي:

ـ فليمت، فالموت أرحم له.

ما كانت الحياة لتستمرّ في هذه القرية لولا وقوعها عند مفترق طرق ولولا بئر ماء!

تلك البئر التي كانت أشبه بثدي كبير يمنح الحياة لتلك القرية. كانت تجود بماء عذب قلّ نظيره في أيّ مكان مجاور. تلك البئر كانت نقطة جذب للمسافرين والحجّاج، جعلت من قريتنا محطة استراحة

أساسية في طريقهم، تنتعش بوجودهم حركة البيع والشراء والمقايضة، يمكثون أيّاماً ثم يرحلون. يتركون وراءهم حياة حافلة لأيّام وأحياناً لشهور متواصلة. بعد ذلك يخيّم الفقر والحاجة. تمرّ عليهم أيّام سوداء قاحلة جافة وفي لحظة من اللحظات عندما تكون الحياة على وشك الانطفاء والذبول تمرّ قافلة ما فتحيا مرّة أخرى.

ما بين شعرة الحياة والموت الواهية تعيش القرية، لا وجود للحلول الوسط، تحيا نصف شهور العام وتموت في النصف الآخر منه.

في يوم من أيّام ذلك النصف الخانق والجافّ والمترب مات والدي. لم نستطع دفنه في المقبرة البعيدة نسبياً عن القرية والقريبة من بيتنا بسبب تلك العاصفة. ذرّات الرمل تقحم إقحاماً في أفواهنا وأحداق عيوننا. وسّدنا أبي قبره بعد أن خيّم الظلام وخفّت تلك العاصفة والرياح المصاحبة لها من جبروتها وغلوائها.

دفنه رجال قليلون من رجال القرية. كانوا يتأفّفون طوال الوقت وكأنما يدفنون ثوراً نافقاً أزكمت رائحته الأنوف. أهالوا التراب عليه وهم ملثمون ساخطون، وكنت أنا أكثر سخطاً منهم. لم يعزِّني في موت والدي أحد ولم يشدّ على يدي أحد. مكثت على قبره ساعات طوالاً امتدّت حتّى طلوع الفجر، عدت بعدها إلى البيت ووجدت أمّي تفعل نفس الأشياء الروتينية التي تفعلها كلّ يوم. لم يكن يهمّها موت والدي هي أيضاً كما يبدو...

وبعد أعوام ماتت أمّي بنفس الطريقة: سعال مستمر وقاسٍ ونزف دم مع الريق والبلغم. ماتت بسرعة ودُفنت بنفس الطريقة التي دُفن بها والدي، وجاء نفس الرجال الذين دفنوا والدي. كانوا كما هو العهد بهم متوتّرين يخفون وجوههم بقطع من قماش لكي لا تتسرّب روائح الموتى إلى خياشيمهم. على ثرى القبر الليّن جلست أرمق تلك القبور المنثورة أمامي أحاول تخمين وجوه أصحابها وأحاول تذكّر متى اختطفهم الموت. جاء الصباح وأنا ما زلت جالساً هناك وقد نضجت في رأسي فكرة مغادرة هذه القرية بلا عودة.

من الأشياء والذكريات التي أذكرها عن والدي احتفاؤه الكبير بحاجّ يدعى الشيخ إدريس، ففي كلّ عام أو عامين على أكثر تقدير كان والدي يستقبله ويودّعه، وفي إحدى المرات اصطحبني معه، كنت صغيراً حينها ولكنّي أتذكر تفاصيل تلك الزيارة وكأنها حدثت منذ ساعات قليلة...

الوقت مساءً والجوّ يميل إلى الحرارة، ووالدي ممسك بيدي ونخترق معاً دروب القرية باتّجاه البئر حيث تعوّدت القوافل أن تتوقّف. شاهدت الكثير من الدوابّ والماشية والكثير من الناس المتجمّعين

أيضاً، سار والدي بين تلك الحشود وكأنه يسير في طريق سلكه مئات المرّات، وأمام خيمة كبيرة توقف ونادى بصوت عالٍ:

– يا شيخ إدريس. هل أنت هنا؟

بعد لحظات قليلة أطلّ علينا وجه بشوش كثيف شعر الذقن، شعره أبيض كالحليب، حسن الهندام، قويّ البنية، أحمر الوجه، يلبس ملابس بيضاء اللون وبيده عصا سوداء اللون. وقف على باب الخيمة مرحّباً ومبتسماً وفاتحاً ذراعيه لوالدي. أطلق والدي يدي التي كان ممسكاً بها ثمّ رمى بنفسه في أحضان ذلك الرجل. تبادلا الكثير من التحيّات والسلام والعتاب. جلس والدي بجانبه ومكثا وقتاً طويلاً يتحدّثان تارة بصوت مسموع وتارة بهمس لا يكاد يُسمع.

كانت ضيافة ذلك الرجل لوالدي حاشدة، تناولا معاً القهوة والتمر واللبن وحلويات تُصنع في البيوت. تناولوا كمّيات متنوّعة من الطعام. بدا لي أن ذلك الحديث الطويل لن ينقطع. لم يتوقفا عن الحديث إلّا لأداء صلاة العشاء واستمرّا في السمر بعد ذلك...

كلّ الذي أذكره من تلك الزيارة عندما أشار والدي نحوي ثمّ قال للشيخ إدريس:

– إذا حدث لي مكروه فخذ هذا الصبيّ معك، لا تتركه هنا في هذه القرية المتنكّرة لكلّ شيء حتّى لأهلها.

غفوت بسبب انتقال بصري بين والدي وذلك الرجل. صحوت بعد فترة من الزمن بسبب ارتفاع وتيرة الحديث بين أبي وذلك الرجل. صحوت ولا أدري أكانت تلك الفترة طويلة أم قصيرة. كنت مستكيناً كقط شعر بالدفء من زمهرير قارس. سمعت ذلك الشيخ يقول لوالدي وقد تحشرج صوته بغضب مكتوم:

– أنا لا أستحقّ أن أعيش. رجل مثلي عجز عن حماية زوجته وطفله من أوباش الطريق لا يستحق أن يكون رجلاً ولا يستحقّ أن يمشي على الأرض.

– هوّن عليك يا رجل، فما مضى قد مضى. لا تلم نفسك بهذه الطريقة القاسية.

– يا أبا منصور، ستبقى نظرات زوجتي لي قبل موتها سكّيناً يحزّ رقبتي كلّ يوم. في مثل هذه الأيّام بالذات – أيّام الحجّ – تتراءى لي في أحلامي. تشيح بوجهها عنّي عندما تراني وتبتسم بحنان كلما وقع نظرها عليك. أراها تقبّل يديك وتتلمّس صدرك ووجهك ثمّ تستلقي بأمان على صدرك...

– ولكن لا ذنب لك في موتها وطفلها. لا يمكن إلقاء اللوم عليك فأنت ضحيّة غدر و...

– بل كلّ اللوم عليّ. لم أستطيع توفير الحماية لهما. خانني جسدي ووقعت على الأرض كذبابة تلقّت لطمة من يد غاضبة. لماذا لم أكن قويّاً بما فيه الكفاية؟ لماذا جبنت وتراجعت وتردّدت في لحظات

الحسم تلك؟ ألا تراني يا أبا منصور غادياً ورائحاً كلّ عام إلى الحج أحاول أن أنفض عن كاهلي نير خوَري وجبني؟ أمسح صفحة سوداء تُفرد أمام وجهي صباح مساء. تعلّقت بأستار الكعبة ودعوت الله كثيراً أن أموت ميتة تليق برجل. تمنّيت أن أموت دهساً تحت أقدام الحجّاج في عرصات الحرم أو تسقط عليّ صخرة كبيرة من جبل الرحمة بعرفات فتسحق عظامي وتخلطها بلحمي أو أن يعترض مرّة أخرى طريقي قطّاع طرق، ولكنّهم اختفوا في جحورهم كالعقارب والثعابين... هيهات عندما كنت أطلب الموت بعُدَ عنّي ونأى. ألم تسمع بهذه المقولة الشهيرة: اطلب الموت توهب لك الحياة. أيّ تناقض هذا؟ هل طلبت يا أبا منصور الموت في تلك الساعة فرجعت غانماً سالماً ومعك زوجتي وطفلي الميت؟ دعوت الله أن أموت شهيداً على الأقل غريقاً أو مسموماً أو ملدوغاً. هل تحسب أنّني سوف أموت يوماً ما ميتة تليق برجل شجاع؟

– ولكنك رجل شجاع يا شيخ إدريس، أنا أشهد بذلك. ما حدث لك يمكن أن يحدث لأكثر الرجال شجاعة. أنت رجل مغدور، أُخذت على حين غرّة. لا يمكن أحداً أن يلومك...

– دع عنك كلّ هذا الهراء. يجب أن أعترف لك بسرّ خطير يا أبا منصور. أتصدّق أنني في أحيان كثيرة أمقتك كلّ المقت. أحسد رجلاً مثلك خامل الذكر قد تكون مساوئه أكثر من حسناته. أتدري علامَ أحسدك؟

– ....

– أحسدك لكونك رجلاً حقيقياً يظهر كثيراً في أوقات الشدائد والملمّات. انظر إليّ يا رجل. على الأقلّ لا تشح بوجهك بعيداً عني. إنني رجل طبقت شهرته الآفاق. كلّ عام لي محمل من محامل الحج جلّه من المساكين والأرامل والضعفاء غير القادرين على تكاليف الحجّ، أنا أدفعها عنهم. الناس تلهج ألسنتهم بالدعاء لي. هل أستحق كلّ ذلك؟ هل قلت إنهم مساكين؟ لا، ليسوا مساكين، أنا المسكين الوحيد فيهم. ألا ترى أن شعر رأسي وذقني قد ابيضّ في سنوات معدودة بعد تلك الحادثة المشؤومة؟ ولكن مهلاً، ألست أنت من حفظت ماء وجهي أمام قومي بادّعائك أن زوجتي وطفلي ماتا بسبب الجوع والعطش وبسبب تناوش الوحوش بهما ووجدتهما هائمين على وجهيهما في تلك الصحاري؟ ألا تعلم بمقدار امتناني لك بما عملته من أجلي؟ أكرهك وأحبّك في نفس الوقت. أيّ عدل هذا؟ هل هذا عدل؟ أرجوك، أجبني...

– ....

– ثمّ لماذا ترفض حتّى الآن أيّ عون ومساعدة أقدّمها لك؟ أجبني. هل تترفع عن هباتي وأعطياتي لك؟ لماذا أنت صامت هكذا؟ هل تحسَب أنّك أفضل منّي؟ أجب عن سؤالي يا رجل. أنا سأجيبك. نعم

أنت أفضل منّي بمراحل. أنت رجل حقيقي وأنا شبه رجل. هل يرضيك هذا؟

– أرجوك، كفّ عن هذا الحديث. هل ستُسمِعني هذا الكلام في كلّ مرّة أزورك فيها؟ لماذا تصرّ على تكراره عليّ؟ هل أعتبر كلامك هذا طرداً مهذّباً يا شيخ إدريس؟

– الشيخ إدريس؟ أتعتقد حقاً أنني شيخ؟ هل غرّتك هذه اللحية الطويلة وسمت العباد والزهّاد الظاهر عليّ. حسناً، سأكفّ عن ذلك حالاً. سيصمت الشيخ إدريس عن الكلام. ولكن تذكّر أن رجلاً غير قادر على حماية عائلته ليس جديراً بالحياة وعارٌ عليها. في الحقيقة هو عائش وسط الناس ولكنه ميت من الداخل...

كان والدي صامتاً وتمسّكت أنا بالهدوء والحذر. شعرت بفطرتي بأنّ هذا الحديث بين والدي وذلك الرجل قد نحا منحى خطراً، لذلك حبست حتى أنفاسي.

بعد فترة صمت بينهما رأيت ذلك الرجل يصرف بوجهه وجسده إلى الناحية الأخرى وجسده يهتزّ بعنف، بينما لزم والدي الصمت... حاولت أن أبقى مستيقظاً ولكن النوم غلبني فنمت مرّة أخرى. كانت الصحراء قد بدأت بإرسال تلك الأنسام الرقيقة التي امتزجت بتعب النهار وبشقاوتي فعاودت النوم رغماً عنّي...

لم أصحُ إلّا في صباح اليوم التالي. وجدت نفسي في فراشي المعتاد في منزلنا البسيط. سمعت أمي وأبي يتحدّثان عن فحوى تلك الزيارة، شعرت بتأنيب الضمير لأنني نمت في لحظة الصمت تلك ولم أعرف ماذا دار في ذلك اللقاء الحامي الوطيس بين والدي وذلك الشيخ...

غافلت أبي وأمّي وخرجت من البيت متّجهاً صوب مكان القافلة ولكنني لم أجدها. وجدت ما يدلّ عليها. بقايا عشب مأكول ونوى التمر وبقايا رماد وروث البهائم فقط. أدركت حينها أن القافلة قد سارت إلى حيث تروم ولا أعلم إلى أين...

بعدما دفنت والدتي بأيّام معدودة سمعت ذات عصر صخباً كبيراً يأتي من أناس كثر وبهائم على مدّ البصر. تزاحم شديد عند البئر. فرحت كثيراً عندما قيل لي إن هذه القافلة هي قافلة الشيخ إدريس. يا للمصادفة الرائعة. وثب ذلك الوحش النائم في داخلي؛ ذلك الغول الذي يطلب منّي أن أخرج من هنا وإلى الأبد.

وجدت نفسي مساء ذلك اليوم وخطواتي تقودني رغماً عنّي إلى حيث تكون القافلة على مشارف القرية حول البئر. مشيت على نفس الخطى التي مشى عليها والدي من قبل، وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي أقف أمام ذلك الشيخ، كان يحمل ذات الوجه ونفس البسمة مرسومة على وجهه ويرتدي نفس الملابس وله نفس الهيئة التي رأيته عليها منذ سنوات قليلة. كان مكبّاً على الأرض ينكث في

الرمل بعصاه تلك. ما إن وقع بصره عليّ حتّى توقف عمّا يفعله. تفرّس في وجهي ثمّ ابتسم وأشار لي بيده أن أتقدّم نحوه فتقدّمت بكلّ هدوء.

و.......

ما إن وضعت أم فتنة قطعة القماش على صدري حيث الجرح بعدما أشبعتها بالماء، حتى رحلت وسقطت في وادٍ سحيق ولم أعد أشعر بشيء من حولي...

صالح جوهر

ما الذي فعله هذا المعتوه؟

ألا يدرك هذا القنصل أنّ ما قام به سوف يكون ثمنه غالياً وغالياً جداً؟

كنت أرقب صورة انعكاسات شمس الظهيرة على صفحة الماء فأشعر بارتجاج بصري وعدم التركيز. القنصل الإنكليزي وفرج يسر وثلاثة من جنود الحراسة يمتطون قارباً صغيراً ويعودون أدراجهم إلى جدّة القريبة التي أراها بوضوح تحت كلّ هذا الوهج والسيل من الضوء المنهمر. جنديّان كان يجذّفان بقوة ووجهاهما كالحان كامدان يشيان بصرامة وقسوة.

ما إن غادر القنصل ظهر المركب حتى هاج الناس المتجمهرون في تلك اللحظة وماجوا. صعدوا إلى ظهر سفينتي، تكاثروا حتى بدأت السفينة تتأرجح يمنة ويسرة تحت وطأة الأقدام المتراصّة. حاول البعض أن ينزل العلم الإنكليزي من فوق الصارية ولكن الحبل انسلّ ولم يسقط العلم بل بقي معلقاً. عندها لم يكن أمامهم من خيار سوى كسر الصارية. أحضر بعضهم فؤوساً وبدأوا بضرب الصارية من أسفل. سرعان ما تهاوت وسقط جزء منها على المركب والجزء الآخر سقط في الماء بعد أن حطّم وأحدث بعض التلفيات للقوارب الصغيرة المجاورة لسفينتي.

أقف عاجزاً عن فعل أيّ شيء. وماذا سأفعل أمام هذه الحشود الغاضبة وهذا الهرج الكبير؟

كان التوتّر يزداد ويتصاعد، ويتزايد أيضاً عدد الناس المتجمهرين، أجّج هذا التوتّر شعورٌ بالإهانة بسبب الجرأة على مسّ الخطوط الحمراء: الكرامة والعزة والأنفة والدين. ربّما كان الإحساس بالكرامة التي ديست تحت أقدام القنصل أشدّ وقعاً في النفس. انتشر ما فعله ذلك القنصل بين الناس بسرعة ووصل صداه إلى جدّة، فجاؤوا إلى الميناء. خاض جمع كثيف من الناس تلك المساحة المائية التي تفصل بين المراكب والسفن واليابسة سيراً على الأقدام. تجمّع كثير من الناس على الشاطئ القريب. وبسرعة كبيرة عاد منهم من كان معي على ظهر السفينة إلى الشاطئ فاندمجوا مع الواقفين هناك ثم عادوا أدراجهم إلى جدّة.

كانوا يزحفون إلى جدّة في كتلة واحدة، صيحات ونقاش حادّ وتلاسن وتماسك بالأيدي يحدث هنا وهناك. لم يستطع أحد أن يوقفهم، لم تنفع نصائح أطلقت من هنا وهناك لتغليب العقل في إيقافهم. كبر الحشد وازداد حجمه حتى أصبح موجة بشرية كثيفة تتحرّك تحت شمس حارقة لاهبة فزادها ذلك

سخونة على سخونة. غادرت سفينتي وكنت أسير خلفهم وقد أوجست خيفة ممّا قد يحدث لاحقاً. في إحدى الساحات تجمّعوا ثمّ ساروا باتّجاه مقرّ القنصل الإنكليزي.

كانت تلك الحشود تتكاثر كلما مرّت بحيّ ما أو سوق أو برحة. أصواتهم تتداخل وأعينهم تدور في المحاجر. يمسكون بأيديهم أسلحة بيضاء وهراوات وأحجاراً كبيرة. كانوا كجيش يتأهّب لمعركة مفاجئة وبدون علم مسبق. اجتازوا السور من جهة باب البنط وتوغلوا في السوق، كانوا يسيرون نحو حارة الشام حيث مقرّ القنصليّات الأجنبيّة. لم يكن من العسير عليهم أن يتعرّفوا إلى بيت القنصل البريطاني. توجّهوا نحو بيته وتوجّهت أنا معهم لا أدري ما الذي ساقني إلى هناك؟ هل هو الغضب أم هو الفضول أم هو شيء آخر؟ لا أعلم. لم أكن متأكداً ممّا أشعر به أو أفعله. كان بيت القنصل الإنكليزي مبنى حسن الشكل يتكوّن من دورين، في الأسفل مقرّ القنصلية وفي الدور الأعلى منزله.

وصل الحشد الغاضب إلى ذلك المبنى، توقفوا وهم يزعقون بأصوات غريبة ومرعبة، طلبوا من القنصل أن يخرج من البيت ولكن لم يجب طلبهم أحد. هناك لمحت منصور التهامي وسط الجموع. شعرت بالشفقة نحوه. كنت أتمنّى ألّا أراه في هذا الموقف على الإطلاق. ومثلما تحمل الموجة قطعة من خشب وجدت نفسي في داخل بيت القنصل الإنكليزي. تهاوت تلك البوابة الضخمة إلى الأرض وقد أصدرت صوتاً مدوّياً...

كسروا بوابة القنصلية الكبير، فتحوه عنوة، فانتشر الناس فيه كالنمل يفتحون الأبواب ويحطمون كلّ ما وجدوه في طريقهم. كانوا يصرخون ويزعقون ويشتمون بأقذع الكلمات. صعد البعض إلى الدور العلوي والبعض انشغل بنهب محتويات القنصلية في الدور السفلي.

ثمّ أبصرت القنصل الإنكليزي مخفوراً بين شابّين يافعين وقد أمسكاه بكلتا يديه. لمحته في تلك اللحظات التي كانت تشبه كابوساً مرعباً وقد جحظت عيناه. حاول المستر "بيج" المقاومة ولكن هيهات، طرحوه أرضاً فتهاوى جسده الضخم، ثمّ في لمح البصر تتالت عليه ضربات من مدى لمعت نصالها فأشاعت الخوف في قلبي. رأيت الشابّين الملثّمين يهويان بها على جسده وهما ينظران نحوه بنظرات أعماها الغضب والحنق. بعد أن خمدت أنفاسه غادرا المكان بسرعة. أما الباقون من الداخلين إلى بيت القنصل فقد نهب البعض منهم محتويات البيت، قلبوه رأساً على عقب، واستولوا على كثير من المال وحتّى الأثاث، ثمّ غادروا المكان.

خرجت من بيت القنصل فسرت على قدميّ وهما لا تكادان تحملانني من هول ما رأيت من عنف ودم مسفوك وغضب مدمّر لا يبقي ولا يذر. كنت أمشي خلف هذا الحشد ثمّ اقتربت أكثر فأكثر. بعد لحظات، وفي إحدى الساحات التي تجمّعوا فيها صاح أحدهم:

– سنخلي جدّة من جميع النصارى. سنقتلهم جميعاً. الويل لهم.

كنت أرقب ما يحدث. التفتُّ نحو من تفوّه بهذه الكلمات فلمحت رجلاً لم تسبق لي رؤيته من قبل. دميم الوجه قصير القامة وذو كرش هائل الحجم. كان يتحدّث بصوت عالٍ حادّ النبرات. ملابسه مبقّعة ببقع من دم ما زال طازجاً. كان أشبه بذئب عاث تقتيلاً وتمزيقاً بخراف في حظيرة مغلقة...

ما إن سمعوا ذلك الكلام الذي قاله الرجل حتى تحرّكت تلك الجموع على غير هدى وكأنهم كانوا يحتاجون فقط إلى مثل هذه الإشارة والتوجيه. وقتها فقط شعرت بالخطر وأدركت أن الأمور تسير إلى مزيد من السوء بسبب هذا الاحتقان والغضب.

صاح ذلك الرجل بصوت جهوري:

– سنذهب إلى بيت القنصل الفرنسي.

وما إن سمع الناس هذه الكلمات حتى كانوا في طريقهم إلى بيت القنصل الفرنسي المسيو ''إيفيلار''. أسرعت في خطواتي حتى وجدت نفسي في مقدمة هذا الحشد السائر نحو بيت القنصل الفرنسي.

من المؤكّد أن القنصل الفرنسي المسيو ''إيفيلار'' قد أُخذ على حين غرّة. المسافة التي تفصل بين بيته وبيت القنصل الإنكليزي كانت متقاربة. فوجئ بذلك الحشد الكبير من الناس الذي اقتحم منزله. استطاع الثائرون اقتحام المنزل بدون مقاومة تُذكر، ثمّ وجدوا أمامهم رجلين يتساويان في العمر والشكل، وبالقرب من هذين الرجلين تقف امرأتان واحدة تبدو في سنّ متقدمة، تقف إلى جوارها فتاة شابّة في ريعان الصبا. اختلط على الثائرين من هو القنصل الفرنسي ولكن ذلك لم يمنعهم من القتل. تقدّم ثلاثة رجال وطعنوا الشخص الأول الذي لم يكن سوى المسيو ''إيميرات'' مساعد القنصل. صاحت مدام إيفيلار بأعلى صوتها بصرخة مدوّية وقد ارتسم الرعب على وجهها، شُلّت حركتها من هول المفاجأة، فاكتفت بالصراخ الهستيري فتقدّم رجل نحوها وهو يحمل في يد خنجراً فطعنها عدّة طعنات فأرداها قتيلة في التوّ واللحظة. تلقّى القنصل الفرنسيّ المسيو إيفيلار طعنة من الخلف فوقع على الأرض ثمّ أجهز عليه ثلاثة رجال عرفتهم هذه المرّة، عرفت وجوههم ولكنّ أسماءهم غابت عنّي في تلك اللحظات المجنونة، بعد ذلك أردوه قتيلاً بطعنات متتالية أودت بحياته. حاولت ابنته إنقاذه فرمت بجسدها على والدها القنصل المسيو إيفيلار فأصابتها طعنة خنجر في ظهرها. ساح منها دم غزير ثمّ همدت جثّتها وهي منكفئة على جسد أبيها. قال لي أحدهم بعد مرور أيّام من تلك الأحداث إنها لم تمت بسبب انشغال الثائرين بنهب بيت القنصل الفرنسي الذي يبدو أنه كان أكثر ثراءً وغنى من بيت القنصل البريطاني. انتبهوا في أثناء خروجهم إلى أن أحد الرجلين لم يمت بعد، كان ذلك هو المسيو

إيميرات مساعد القنصل، كان في النزع الأخير. تقدّم منه نفس أولئك الثلاثة الرجال ثمّ هووا بسكاكينهم على جسده فهمدت حركته. وبعد قليل كان الجزء الأكبر من القنصلية الفرنسية تتصاعد منه النيران...

لم أكن أعلم أنّ مثل هذه الدموية والقسوة كامنة في النفوس. للغضب طاقة مدمّرة بالفعل. حين يغيب العقل والتحلّي بالصبر يصبح كلّ شيء فوضوياً وغير قابل للفهم...

هل شعرت بالشفقة على هؤلاء المنكودين؟

نعم. هذا ما أشعر به بالفعل الآن. بعض تلك المشاهد المأساوية التي مرّت أمام عينيّ جعلتني أعيد التفكير آلاف المرّات في سبب هذه الفتنة المشتعلة. لم أكن راغباً في أن تؤول الأمور إلى مثل هذا المنحى ولكن... كلّ شيء جرى تحت سمع الناس وبصرهم فكان ما كان...

الحشد الغاضب يسير في طرقات جدّة كوحش طليق لا يعبأ بمن هو في طريقه. نُهبت حوانيت ودكاكين تعود ملكيتها إلى تجّار أجانب. أُخرجوا عنوة من حوانيتهم ونجت القلة منهم من القتل. سُلبوا كلّ ما يملكون وحُطّمت بقيّة ممتلكاتهم التي لم يستطع ذلك الحشد الغاضب حملها أو زحزحتها من مكانها. حتّى الخواجة "ساوا" الذي كان رجلاً ذا علاقات متينة مع سكان جدّة قتلوه وقتلوا اثنين من مساعديه بدون أدنى شفقة.

صاح أحدهم فجأة عندما مرّوا في طريقهم بحانوت تعود ملكيته إلى التاجر الجدّي فرج يسر، نهبوه ثمّ توجّهوا إلى منزله يريدون قتله غير عابئين بكونه من أبناء جلدتهم، وعندما حاولوا نهب داره وجدوا أحد الأعيان يقف على الباب ثمّ صاح فيهم بصوت جهوري:

– فرج يسر واحد منا، ألا تخجلون من أنفسكم تريدون نهب داره وقتله بدون أدنى ذنب؟

لم ينهبوا دار فرج يسر ولم يقتلوه بفضل ذلك الرجل الحكيم الذي كان يحظى باحترام الجميع.

مع أفول شمس ذلك اليوم بدت جدّة كمدينة منهوبة تعرّضت لغزو غاشم. تلاشت تلك الجموع الغاضبة الهادرة وتفرقت عبر الدروب والأزقة. تفرّقت مثلما تتفرّق السحب أمام ريح عاتية. من كان ينهب بدأ يحصي حصيلة ما نهبه، ومن قتل يزيل عنه ثياباً ملطخة بالدم، ومن قام بإذكاء نار الفتنة والشغب شُفي غليله وغيظه...

في ذلك المساء شعرت بغربة شديدة في بلد درجت في مسالكه وطرقه وتلمّست جدرانه وامتلأت قدماي بغباره و"سبخته". لم تعد جدّة هي جدّة. أمست غريبة عنّي، لا أعرفها ولا تعرفني. كان قلبي يقرصني ويحدّثني بأمور عظام سوف تحدث. مثل هذه الأفعال لن تمرّ هكذا عبثاً. من السهل إشعال الحروب ولكن من العسير جداً إخمادها.

لم أعد أسمع أيّ صوت في هذا المساء. هدوء غريب يلفّ الأماكن التي كانت قبل بضع ساعات

تشتعل بغضب هادر. البيوت أغلقت أبوابها على ساكنيها. من بعيد كانت أضواء السرج والفوانيس تبدو كنجوم تتلألأ في سماوات بعيده. خلت البرحات من مرتاديها. الدكاكين مقفلة والشوارع شبه خاوية. كلّ هذا كان يعذبني ويجعلني أشعر بالتوتّر والقلق. أريد أشخاصاً أتحدّث معهم لا مدينة مات سكّانها هكذا فجأة وكأنّ مرضاً غامضاً فتك بهم. في البيت اصطدمت بزوجة مرعوبة وصغار يبكون خوفاً وهلعاً كلما سمعوا صوتاً أو ضجيجاً بسيطاً يصدر من خارج البيت.

شعور بالذنب يفترسني لمجرّد أن يخطر في بالي أنني كنت السبب في ما حدث. تبعثرت رتابة الحياة في جدّة وفقدت سكينتها. جدّة المتصالحة مع نفسها أبداً باتت تنوء تحت وطأة كابوس يجثم على أنفاسها.

طفت بكلّ الدروب وتوقّفت عند كلّ برحة. استغرقتني الأفكار حتّى وجدت نفسي أقف أمام البحر مباشرة. أمواجه تداعب أصابع قدميّ فأشعر بها دافئة تصدر أصواتاً تثير شجوني وتمدّني بالعزاء والسلوان. كثيراً ما جئت إلى هنا وكنت أعود وشعور مغاير يتلبّسني فيزيل تلك الأفكار السوداء التي تكبّل كلّ ما يجعلني أشعر بآدميّتي، ولكن في هذا المساء زادني البحر همّاً واكتنفني حزن شفيف ولكنّه مؤلم ولا يطاق...

فتنة

ربّاه.. ما هذا الذي أراه؟

نبضات قلبي تسبق خطواتي. سأراه عن قرب وسأنظر إليه أطول فترة ممكنة. رغم قصر المسافة التي تفصل ما بين البيتين؛ لم أرَ أطول منها قطّ. تمشي أمّي أمامي وأنا خلفها مباشرة. منذ زمن طويل لم أشعر بمثل هذه الدفعات الهائلة من الفرح والخوف تصيبني هكذا دفعة واحدة. ضراوة الكبت والقمع سلبتني حتّى مكاشفة نفسي. كنت أعيش في حالة موت بطيء أقاومه ولكن باسترخاء وعلى مهل...

تطرق أمي الباب ولا مجيب تطرقه بوتيرة أعلى فنسمع آهة رغم خفوت نبرتها، إلّا أنها عندما لامست أذني كانت أشبه بدويّ الرعد.

تيّار قوي من الاحتمالات والتنبّؤات المؤلمة يذهب بي شمالاً ويميناً. دلفنا إلى الداخل وتجمّدت أعيننا أمام ذلك المشهد المؤلم. كان ممدّداً على الأرض وجرح غائر ودم مسفوح يطلان من جسده الفتيّ، اقتربت منه أمّي وانحنت مستكشفة. وضعت يدها على رأسه، التفتت إليّ وصرخت في وجهي:

– أحضري ماءً وقطعة قماش نظيفة فوراً.

لم أستجب للنداء في بادئ الأمر. كنت أقف في تلك المسافة الواقعة ما بين الدهشة والذعر. أكان من المفترض أن يكون لقاؤنا الأول فيه كلّ هذه الدماء والجروح النازفة؟

صرخت أمّي في وجهي بشدّة فانتبهت لنفسي. كرّرت لي ما تطلبه فقفزت قفزاً من مكاني وعدوت إلى البيت. راودني شعور مفرح نوعاً ما. كم أنا في غاية الامتنان لهذه الكوارث التي تصبّ على رأسي صبّاً فهي رغم ذلك قد أتاحت لي أن ألتقي به عن قرب وربّما لامست يدي جسده وأنا أقوم بتطبيبه. ستلفح أنفاسه وجهي وأتشمّم رائحة جسده، صوت أمّي تنادي من الأسفل تطلب منّي الإسراع في إحضار ما طلبته فأنتبه لنفسي وأعود إلى الواقع الأليم.

هل كان يشعر بما يدور حوله؟

أسفل الثدي الأيمن كان الجرح غائراً وقد تجمّد الدم حوله، أمّا من الداخل فكان لا يزال غضّاً طريّاً ويرشح بالدم. جسده ساخن وينتفض أحياناً برغم حرارة الجوّ في الخارج...

نظفت أمّي الجرح وبدّلت ملابسه. بلّلت خرقة من قماش بالماء كانت تضعها على رأسه وبقية جسده الذي كان يشتعل بالحرارة وينتفض كعصفور جريح...

مكثنا معظم الليل ونحن نرقبه وعيوننا لا يطرف لها جفن. كان قد بدأ بالهذيان والحمّى تنهش جسده ونحن نحاول مكافحتها بالماء مرّة والدعاء الحارّ والمخلص مرّات...

الشيخ إدريس، أمّي، صالح جوهر، القنصل. كانت تلك الكلمات أكثر ما ينطق بها في هذيانه المحموم. غفت أمي وهي جالسة على الأرض تتّكئ بإحدى كتفيها على الجدار، أمّا أنا فكنت في حالة استنفار قصوى لكل حركاته وسكناته...

كنت أفكّر في ما حدث اليوم من قتل ونهب وسلب في مدينة لا تعرف سوى السلام والهدوء...

كنت أسأل نفسي: وما الذي أدخل منصور في مثل هذه العاصفة التي سرعان ما تتكشّف عن تبعات هائلة تلحق كلّ من كان له يد فيها؟

منذ ظهيرة اليوم والناس في حالة هيجان وصراخ. لمحته أمام بيت القنصل الإنكليزي وسط تلك الجموع الغاضبة والهادرة، انتابني شعور ملحّ بأنّني سأفقده. من رأى الناس وهم على تلك الحال لا يمكنه سوى توقّع الشرّ، والشرّ يجرّ شرّاً مثله.

سأزور قبر سيدي عفيف الدين المظلوم وسأطلب منه أن يزيح ببركاته هذه الغمّة عن منصور وعنّي وعن جدّة. سأزور قبر أمّنا حوّاء خارج السور وسأطلب منها أن ترأف بحالي وتعيد منصور إلى سابق عهده، لن أكتفي بذلك، بل سأطعم المساكين والفقراء القابعين أمام مسجد المغربي. سأتحدّى نفسي وأذهب إلى زقاق الخنجي الذي لا يستطيع الاقتراب منه أكثر الرجال شجاعة في جدّة والمسكون بالجان، سأذهب في عتمة الظلام لأستعين بساكني العالم السفلي إذا لزم الأمر. سأفعل أيّ شيء في سبيل منصور...

سأبذل كلّ الممكنات وأفعل كلّ المستحيلات لكي يُشفى ويبلّ ممّا أصابه فليس لي سواه...

اقتربت بهدوء منه ثمّ عبر رحلة طويلة فيها الكثير من التردّد تحسّست بأصابعي أصابع يده. كانت طويلة ولدنة وفيها خشونة، شعرت براحة تغمر جسدي واسترخيت بجانبه. لم أكن أطمع بأكثر من ذلك. سأسعى في تطبيبه حتى يُشفى ويعود كطائر يغرّد عبر الرواشين وهامات صواري السفن الرابضة في الميناء. شملني نعاس ملحاح، أفتح عينيّ ثمّ سرعان ما تنطبق جفونهما وغفوت وأنا لا أشعر بما حولي...

في نوبات نومي القسري ذلك داهمتني أحلام كثيرة تدور كلها حول منصور وحده. في بؤرة شعوري كان يتربّع جالساً كأمير أسطوري. على عشب أخضر يمتدّ بامتداد البصر، سرنا معاً يدي بيده تتلامس الكتفان ويحكّ بأرنبة أنفه أنفي. نغرق معاً في قبلة طويلة لا يقطعها سوى استنشاق مزيد من الهواء. فجأة ينتقل المشهد إلى صحراء ممدودة أمامنا مدّ البصر، بحر من الرمال ولا شيء سواه،

أركب جملاً يمسك بزمامه منصور ونخبّ السير عبر تلال من الرمال صاعدين هابطين، نتوقف في جوف الصحراء، نفترش الرمل ونلعب فيه بأصابعنا كأطفال صغار وجدوا أنفسهم فجأة في مكان مكشوف يغري باللعب والعبث...

ونواصل السير، وفي المساء نتوقف، يشعل منصور ناراً ولا أعرف كيف فعل ذلك. يبزغ القمر فوق رأسينا، ينعكس نوره الفضّي على المكان المكشوف أمامنا فيعطيه بعداً أسطورياً لا أستطيع وصفه. نتسامر في حديث طويل ممتع، يمسك بيدي، يبثّني لواعج حبّه وعشقه لي فيحمرّ وجهي...

في مشهد آخر، نحن الاثنين على ظهر مركب يسير بنا في البحر. الموج هادئ ومستكين والريح مواتية. طيور النورس تغنّي فوق رأسينا. أقف بالقرب من حاجز حافة المركب، يقترب منّي منصور، يقبّلني ثم يشير بيده إلى البعيد، هناك كانت تلوح مدينة في الأفق حولها ضباب كثيف نقترب منها. تبدو مدينة كبيرة وجميلة أجمل من جدّة. نرسو على المرفأ ثمّ نكتشف أنّه لا أحد في هذه المدينة. كانت خالية من البشر. نجوب شوارعها. حوانيتها مشرعة الأبواب، نأخذ ما نشتهيه، ننتقل من خان إلى خان، نجد في كلّ مكان موائد عامرة بالأكل والشرب، نأكل ونشرب ونلهو بدون حسيب ولا رقيب. أصدّ رغبة جامحة منه لكي يقبّلني على قارعة الطريق. أرفض بدلال. يطاردني عبر شوارع تلك المدينة الخاوية. يلبد لي كنمر خلف جدار ما. يمسك بيدي ونسير معاً ويتعالى ضحكنا وصخبنا...

حلم آخر: جدّة في أبهى صورة لها. البرحات مرشوشة بماء خفّف من حرارة الجوّ وساعد على تلطيفه. بعض المساحات كانت مفروشة بالليانات وحولها رُصّت المساند على مدّ البصر ونصبت كرويتات ملئت بأصناف الطعام الجدّي: عيش باللحم وكعك ومشبك وهريسة ومفروكة وأرزّ وأكوام كبيرة من اللحم. كان حفل زفاف أسطورياً يشبه تماماً حفل زفاف أحد أبناء التاجر فرج يسر الذي تحدثت عنه جدّة وقتاً طويلاً. في ذلك الزواج أضاء فرج يسر كلّ مراكبه الراسية في الميناء بمئات من المشاعل حوّلت الليل إلى نهار. وزع الكثير من الهدايا على المدعوّين وامتدّت موائد الطعام خمسة أيّام بلياليها. المدعوّون سعداء، يتحدّثون في ما بينهم، يقهقهون عالياً، ومن خلال الرواشين تنطلق الزغاريد تلعلع في الفضاء وتمزق السكون وتسكت اللغط لفترة بسيطة، تأتي النصاصات من بيت العريس ثمّ يحين موعد الزفة. أرى الزفافة تلبس زيّ الأفراح (الزّبّون) تلتف الملايات حول أجسادهنّ المقدودة. يلبسن البراقع وقد اكتحلن فبانت عيونهنّ النجل تقتل وتفتك بالناظرين لها بدون أن تسيل قطرة دم واحدة. الكل ينظرون إليهنّ وهنّ يضربن على الدفوف ويسرن نحو التختبوش المنصوبة والغاصّة بالنساء المتحرّقات إلى الرقص، ما إن تقع أبصارهنّ عليّ حتى يملأن التختبوش بالزغاريد، ثمّ يرقصن وينثرن شعورهنّ. تبرز وجوههنّ الجميلة وتقاطيع أجسادهنّ اللدنة...

وهناك غير بعيد نسمع صوت الجسيس يرفع عقيرته بالإنشاد للعريس منصور الذي كان يرتدي عقالاً من القصب ويلبس ثوباً مشغولاً في أطرافه بخيوط مذهّبة. يسير إلى بيتي مشياً على الأقدام وحوله خلق كثير من المدعوّين يحمل بعضهم المباخر والمشاعل. يسير في وسطهم والفرحة لا تسعه، يغالب الشوق لكي يراني، يعدّ الساعات والثواني لكي يختلي بي...

وفي أجمل حجرة في البيت أراه يدخل عليّ. تتلاشى أصوات المرافقين ورائحة البخور تعبق بالمكان. كانت عيناي مغروستين في الأرض، يقترب منّي، يضع سبابته أسفل ذقني، يرفع رأسي نحوه، وعندما أرفع بصري نحوه أقف مفزوعة، لم يكن منصور بل زوجي السابق ينظر نحوي وهو يقهقه بصوت بغيض. أسنانه صفراء حادّة، يقترب منّي، أصرخ، يطاردني في الحجرة، أقع على وجهي، يقفز على ظهري ويدير جسدي نحوه بعنف. يقترب بوجهه منّي، أشمّ رائحة أنفاسه النتنة، أصرخ وأصرخ... ثمّ أفيق فأجد نفسي ممسكة بيد منصور الجريح. أتنهّد من كلّ قلبي بارتياح، أنظر نحوه بحنان، أرقب تنفّسه المنتظم، تغفو عيناي رغماً عنّي فتزورني تلك الأحلام مرّة أخرى...

منصور التهامي

رغم ذلك الإخفاق الذي يلازمني في عدم قدرتي على تحريك أيّ جزء من جسدي، كان عقلي في أفضل حالاته، فأجد نفسي أحياناً أحلّق فوق سماء بعيدة، أمتطي خيولاً مطهّمة لها سروج مذهّبة وهي تعدو في أرض مستوية مزدانة باخضرار زاهٍ. تنداح ذكرياتي أمامي كماء مسكوب. أحاول أن أمسك بخيوط تلك الذكريات ولكنّها تهرب منّي...

هل أنا مجروح؟ حتى آلامي أصبحت لا تنتمي لي. غريب في مكان غريب. وجدت نفسي – ويا للغرابة – أحنّ إلى تلك القرية البعيدة حيث درجت أولى خطوات أقدامي فيها وتنسّمت خياشيمي هواءها المخلوط بروث البهائم ورائحة الغبار. أحنّ إلى تلك المرابع برغم انقطاع الحبال التي تربطني بها: دروبها الضيّقة وطرقاتها المتربة وصخب أطفالها وحديث رجالها خلف بيوت القش التي تستر الأجساد وتفضح الأصوات والهمسات...

أقف على قبر أمّي وحولي الناس. الثرى تحت قدميّ بارد ورطب. أتحسّسه بأصابع قدميّ من خلال حذائي المهترئ. مكسور الخاطر كنت ولا أزال.

في تلك اللحظات أحسست كأنني جزء مبتور من جسد مريض؛ جزء زائد عن الحاجة ولا فائدة منه. كان يحرّكني شيء ما لكي أهرب. أودّع هذه القرية إلى الأبد. أخرج منها بلا نيّة للعودة. أشعر بأنّ قدري يحاك ويصاغ في خارج حدودها. كل آمالي وطموحاتي تنتظرني في مكان ما بعيد من هنا في أرض وناس لا أعرفهم وسماء تغمرني كما تغمر غيري... ما إن سمعت أن تلك القافلة تستعدّ لقضاء راحتها المعتادة على تخوم القرية حتى شعرت كأن الظروف تسوقني سوقاً إلى حيث يجب أن أكون، وتخلق البيئة الصالحة لرحيلي. لم يكن لديّ ما يؤلمني فراقه أو يتأثّر بغيابي: لا الناس الذين لا أعرف جلّهم، ولا الشجر القليل المزروع حول البئر، الذي كنت أستظلّ تحته عندما يشتدّ الهجير، ولا الأحجار التي ركلتها بقدمي حتّى أوجعتني أصابعها وسال الدم منها. حتى الأفق المسكوب أمامي لا يحفل بوجودي هو الآخر. الناس هنا لديهم ماشيتهم الهزيلة ونساؤهم وصغارهم وأنا لا أحد لي. لن يحفل أحد بغيابي أو وجودي. حتى بيت القشّ الذي ورثته عن والدي ثم أمي لا يجاوره سوى المقبرة المكشوفة للعراء والهواء والشمس. هنا الموتى منسيّون والأحياء أيضاً منسيّون. لا أحد يهتمّ بأحد. كنت أشعر بتلك العدائية تجاه كلّ ما هو حولي. هاجس ملحاح يدعوني لأخرج من هنا.

القمر يسكب نوره الساحر على المكان فتبدو الأشياء حولي ككائنات خرافيّة لا وجود لها. كلّ شيء خاوٍ كطعم المرض في لحظات اشتداده. أمشي بخطى من حسم أمراً وهو ماضٍ في تنفيذه بدون تردّد أو خجل. كنت في طريقي نحو تلك القافلة المتّجهة إلى الحج ولي ذكريات بعيدة عنها تطلّ برأسها بين لحظة وأخرى. في نفس التوقيت هذا تماماً قبل أعوام حاولت أن أعدّها فلم أستطع. كنت مع والدي، يدي بيده ونحن سائران إلى نفس المكان لنقابل وجهاً مألوفاً لوالدي كما هو مألوف لي. وجه من الصعب نسيانه أو تجاهله.

هناك في وسط الخيمة كنت أقف أمامه مباشره. نفس الوجه الباسم الذي لم يستطع عقلي ولا السنون الفارطة أن تنسيني إيّاه. أقف أمامه بثوب مهترئ وحذاء انقطع عشرات المرات وحزن طريّ لم يخفّف الزمن من حدّته بعد...

يجلس في وسط الخيمة يجلّله البهاء والإجلال. ابتسم عندما رآني كأنّه يعرفني منذ زمن بعيد، لا يستغرب وجودي أمامه ومجيئي ربّما كان متوقّعاً لديه.

وكأننا أقرباء التقينا بعد غياب طويل، تصافحت عقولنا قبل أجسادنا، تلاقت نظراتنا في منتصف المسافة. حسن الظن كان هو السائد في ما بيني وبين أعضاء القافلة وبين الشيخ إدريس أيضاً. كانوا يرحّبون بوجودي بينهم بتدرّج واعٍ وتوازن محسوب. وهناك في جوف الصحراء لاحت الكثبان الرملية كندوب على وجه أملس تثير كوامن النفس. ذرّات الرمال تتسارع من قممها لتنتشر في الفضاء المفتوح. أرهف السمع لها فأسمع ألحاناً تعزف للجميع بدون استثناء...

الجمال تخبّ السير في المساء في أغلب الأوقات. جمل وراء جمل يربطهما رباط واهٍ من حبال بخطام كلّ واحد منها في منظر لا تنساه العيون ولا الذاكرة. يبقى محفوراً وعصيّاً على النسيان.

ما إن تتوقف القافلة حتى يدبّ نشاط كبير بين أفرادها حيث تتحلّق كلّ جماعة في دائرة ويبدأون بالحديث والسمر. تسمع من هنا أو هناك موّالاً شجيّاً يجيء من حنجرة مترعة باللوعة والشوق فيتأوّه كلّ من لامست في داخله حنيناً أو شوقاً أو حبّاً، يتمايل يمنة ويسرة وقد ارتسمت على وجهه علامات الشرود والغياب، فيحضر الجسد وتسافر الروح إلى حيث تحبّ أن تكون...

في إحدى الأمسيات استدعاني الشيخ إدريس إلى خيمته. كنّا في منتصف الطريق تقريباً، كنا نعرف ذلك عندما كانت جبال السروات تلوح لنا كحلم يلوح من زمن سحيق وغابر. جبال سوداء وحمراء تتفاوت في الطول والحجم والامتداد ومتصلة بعضها ببعض بخيط سرّي غير مرئيّ. يسمّيها العابرون والمسافرون جبال الحجاز. تقترب تلك الجبال من البحر ولكنّها تقف بعيداً عنه تطلّ عليه من مسافة وكأنها حبيبة وقفت على المرفأ تودّع حبيباً يعتزم الإبحار. ثمّة قرية هناك كانت تتأرجح بين البحر

والجبل وتنبسط بمنازلها الطينية على الرمال المسكوبة مدّ البصر، رمال تخترقها السبخة في أماكن كثيرة. فجأة قفز إلى عقلي حديثه القديم ذاك مع والدي الذي انطبع في عقلي حرفاً حرفاً لم تنسنيه الأيّام ولا السنوات، ولم تنسنيه حتّى تلك المرارة التي شابته وغلفته. ذهبت إليه، تناولت معه القهوة وشاركته عشاءه تبادلنا الأحاديث الودّية بعدما انتقلنا إلى خارج الخيمة. جلسنا على الرمل الذي استحال في غياب ضوء الشمس وطراوة الليل إلى فراش وطيء ناعم يغري الجميع بغرس الأصابع فيه. سألني سؤالاً غريباً:

– كيف مات والدك؟

احترت كيف أجيبه، وفي نفس الوقت كنت أريد أن أنسى والدي وأمّي وتلك القرية. أردت أن أقطع كلّ الحبال التي تربطني بها. كيف مات والدي؟ مات وحيداً كما عاش وحيداً منسيّاً لا أحد يحفل بموته ولا حياته. كنت أريد الإحجام عن الجواب ولكنّه لم يتركني. كرّر سؤاله:

– كيف مات والدك؟

– مات موتاً غريباً وسريعاً. كان يسعل سعالاً شديداً ويبصق دماً حتّى مات...

– رحمة الله عليه.

سألني ذلك الشيخ سؤالاً أكثر غرابة من سابقه:

– هل كنت تحبّ والدك؟

زاد استغرابي وزاد أيضاً صمتي. لا أحبّ مثل هذه الأسئلة ولا أحبّ أن أقول رأيي في شخص ما مهما كان حتى لو كان والدي. أحبّ أن أحتفظ بمشاعري تجاه الآخرين لنفسي...

– يبدو أنّك لا تعرف والدك جيّداً...

طافت ملامح وجه أبي للحظات أمامي ثمّ سرعان ما تبدّدت في ذلك العراء الشاسع والموحش. في صدره كلام يريد أن يقوله لي. فليقله بدون أيّ مقدّمات. قلت له بحياد وصدق:

– أنا لا أحبّه ولا أكرهه في نفس الوقت...

تأسّف الشيخ إدريس لجوابي ذلك، تنهّد بملء صدره ثمّ قال لي:

– الآن فقط تأكّدت من أنك لم تعرف والدك جيّداً أو بمعنى أصحّ أنت لم تسع لمعرفته...

لم أحر أيّ جواب فلزمت الصمت.

بعد قليل تحدث الشيخ ادريس وقال لي:

– سأخبرك بأمر يخصّ والدك وستفتخر به طول عمرك وسيصيبك الأسف الشديد لأنّك لم تكن تبذل مجهوداً جيّداً للتعرّف إليه...

قال الشيخ إدريس:

– قد يكون هذا الكلام الذي سأخبرك به الآن ضرباً من الخيال أو هو من تلك القصص والحكايات التي لا تُصدَّق، ولكن كن على ثقة بأنّ ما سأخبرك به كان فيه سرّ بيني وبين والدك لم أبح به لأحد وقد مات بموت أبيك.

قال لي وعيناه ترنوان إلى شيء يبدو أنه تمثّل له في الظلام الحالك:

– قبل نحو عشر سنوات مررت بقريتكم على رأس قافلة متّجهة إلى الحجّ. كان برفقتي في تلك القافلة زوجتي وطفل لي رضيع لم يبلغ عامه الأول بعد. جاء والدك لي عشيّة ذلك اليوم وطلب منّي أن أسمح له بمرافقة قافلتنا المتّجهة إلى الحجّ. كان هو أيضاً يريد الحجّ. رحّبت به وقلت له: من اليوم أنت واحد منّا ويسرّنا مرافقتك لنا.

توقف الشيخ إدريس عن الكلام هنيهة ثم استأنف الحديث:

– كان الحجّ في تلك الأيام رحلة غير مأمونة العواقب وما زالت كذلك حتى اليوم. من كان يريد الحج فإنه يودّع جميع أهله وأقاربه الوداع الأخير فإذا عاد فقد كُتب له عمر جديد.

وصلنا إلى مكّة وأدّينا المناسك على أفضل ما يُرام، وقرّرنا العودة إلى الديار بعد أن منّ الله علينا بتأديتها على أكمل وجه. طاف الكثير من أفراد القافلة الأسواق في مكّة وجدّة لشراء ما يلزمهم من هدايا وأشياء كثيرة ومهمّة تنقصهم في قراهم وبلداتهم البعيدة. مرّت عشرة أيام قضينا نصفها في مكة والنصف الآخر في جدّة. بعد مرور تلك الأيّام العشرة كانت القافلة تنوء بأحمالها ممّا اشتراه الحجّاج من مكّة وجدّة من الأرزاق والخيرات والهدايا. القافلة كانت تسير والبِشر يطفح على وجوه أفرادها شوقاً للديار والأهل والأصحاب، ويغمر النفوس فضل من الله كبير على أداء نسك وركن من أركان الإسلام. وبسبب حرارة الجوّ الشديدة كان معظم سيرنا يكون في وقت العصر عندما تخفّف الشمس من حدّة حرارتها. في منتصف الطريق تقريباً أنخنا الجمال لأخذ قسط من الراحة. كان الوقت مساءً بعد سير امتدّ من بعد صلاة العصر حتى قرب منتصف الليل. وبعد أن تناولنا عشاءنا هجم علينا النوم فنام كلّ واحد في مكانه من شدّة النصَب والتعب. ربما كان الليل في منتصفه أو بعده بقليل عندما صحونا على صراخ وأصوات صاخبة وجلبة كبيرة. قمت من نومي فزعاً وعندما هممت بالخروج من الخيمة التي تؤويني أنا وزوجتي وطفلي الرضيع اصطدمت عند مدخل الخيمة بجسم صلب هائل الحجم. كان أمامي حصان يمتطيه رجل ملثّم لم أرَ منه سوى عينيه وبيده خنجر استطعت أن أرى لمعانه على بصيص نور من كومة خشب أوقدها الرجال قبل خلودهم للنوم لإخافة الذئاب والضباع وغيرها من الحيوانات المفترسة. كانت هذه البقعة من الأرض تكثر فيها الحيوانات المفترسة كما أخبرني أحد أفراد

القافلة. نصحني بأن نستمر بالسير حتى نصل إلى مكان آمن، ولكن عبثاً، لم يطعنا أحد، فالتعب قد أخذ من أفراد القافلة كلّ مأخذ فقرّروا البقاء وتعاهدوا على التناوب لحماية القافلة. ولكنّنا لسوء حظنا لم تهاجمنا وحوش ضارية بل هاجمتنا وحوش بشريّة أشدّ فتكاً من الحيوانات المفترسة الطليقة. رفع الفرس قائمتيه عندما فوجئ بي واقفاً أمامه فوكزني في صدري بقائمتيه. تراجعت من قوّة الضربة ووقعت على ظهري واصطدم رأسي بقوّة بالأرض. صرخت زوجتي من الفزع واختلط صراخها وبكاؤها ببكاء الرضيع. وثب ذلك الرجل الملثّم فوقع بكلّ ثقله وبقدميه على صدري ووجه لي طعنة بخنجره فانبجس دم غزير شعرت بدفئه على صدري. التفتُّ إلى زوجتي فأخذها عنوة ووضعها على الحصان. حاول ذلك الرجل أن يخلّص الطفل من يدها ولكنّها كانت متشبّثة به. كلّ هذا المشهد كان يحدث أمام عينيّ وأنا واقع في ذلك الحدّ الفاصل بين الموت والحياة. احتبس نفسي وضاق بسبب تلك الوكزات والقفزة المؤلمة وبعدها غبت عن الوعي ولم أشعر بشيء ممّا حولي...

صمت الشيخ إدريس ثم أدار بوجهه إلى الجهة المقابلة. هل كان يبكي؟ لا أدري. ربّما لم يكن يريد أن أراه وهو يبكي. استأنف الحديث بعد لحظة:

– لم أصحُ من غيبوبتي تلك إلّا في ضحى اليوم التالي. فتحت عينيّ. وجدت نفسي مُلقىً تحت شجرة سمر. وجهي معفّر بالرمل. بصقت من فمي دماءً مخلوطة بالرمل. أدرت بصري في من حولي فوجدت رجالاً ونساءً يجلسون حولي. كانوا ممّن بقوا من أفراد تلك القافلة المنكودة. عرفت في ما بعد أنه هاجمنا قطاع طرق سلبونا كلّ ما نملك من رواحل بكلّ ما تحمله وقتلوا خمسة من الرجال وامرأة واحدة. كان يوماً عصيباً بالفعل. كُسر لي ضلعان وجُرحت جرحاً غائر في أعلى ترقوتي. لم يسبق لي أن تعرّضت لمثل هذه المصيبة من قبل. صممت أذنيّ عن كلّ نصيحة لي بأن أستأجر رجالاً مسلحين يقومون بحماية القافلة.

سألتهم عن زوجتي وطفلي فنكسوا برؤوسهم للأسفل، هربوا بنظراتهم عنّي، وبكت بعض النسوة عندما سمعنني أسأل عنهما. عندها أدركت أنني فقدتهما إلى الأبد، حوقلت واسترجعت والحزن يدمي قلبي. بكيت ولكن بصمت، لم أشأ أن أبكي أمام رجال ونساء قافلة أنا المسؤول الأول عنها. دست على أحزاني فسكتّ ولكنّي كنت أبكي بصمت وبدون أن أسمح لدمعة واحدة بأن تطفر إلى الخارج.

دفن الرجال الذين لم يصابوا بأذى أو ممّن كانت جروحهم تسمح لهم بالحركة أولئك الرجال الخمسة الموتى والمرأة الميتة. كانت تلك الطعنة التي وُجّهت لي قد أصابت كتفي من أعلاها، كانت رفسة قوائم الحصان في صدري أشدّ إيلاماً من تلك الطعنة، فقدت الوعي من شدّتها ومع ذلك كُتب لي عمر جديد. مكثنا بحالنا المزرية تلك تحت ظلّ شجر سمر كان يكثر في تلك المنطقة. كان توقفاً إجبارياً، فلا

طعام ولا شراب ولا رواحل تحملنا. بعضنا كانت جروحه ما زالت دامية بسبب تلك المعركة ولا تسمح له بالحركة من مكان إلى مكان آخر...

كثير من قوافل الحجيج كانت تتعرّض لمثل هذه الحوادث. كانت الأضرار تتفاوت من قافلة لأخرى فبعض تلك القوافل كانت تباد عن بكرة أبيها وبعضها يكتفي قطاع الطرق بنهب حمولاتها ودوابّها فقط. كانت قافلتنا صغيرة. عدم تسليحها أو وجود حامية ترافقها أغرى قطاع الطرق بمهاجمتها وهذا ما حدث بالفعل. لم يكن ذلك غريباً ولكنّ الغريب كلّ الغرابة أن يعود مفقود اختطفه قطّاع الطرق مرّة أخرى إلى قافلته أو يعود للحياة بعد موت محقّق مرّة أخرى. ولكن بالنسبة إلى قافلتنا فقد عاد ثلاثة من أفرادها: زوجتي وطفلي الرضيع و... ووالدك!

مع أفول شمس اليوم التالي من حدوث هذه الكارثة تصايح بعض الرجال ولمحتهم يهرولون على أقدامهم صوب رجل قادم من بعيد، يمشي بصعوبة ويحمل طفلاً صغيراً وامرأة كانت موضوعة بالعرض على ظهر أتان. ذلك الرجل كان والدك. يحمل طفلي الميت بيديه وتلك المرأة كانت زوجتي التي لم تستطع أن تقعد على ظهر الأتان فرقدت على بطنها وتدلّت رجلاها من جهة ورأسها من الجهة الأخرى. كانت في حالة يرثى لها. رأيتها متدلية عن ظهر الأتان وشعر رأسها تلمس ذوائبه الرمل وملابسها ممزقة ودماؤها تسيل من ندوب وجروح غائرة في جسدها...

قال والدك لنا إنه وجدها تائهة في الصحراء وقد أوشكت على الهلاك ورضيعها مات بسبب العطش بعد أن تناوشتهما ذئاب جائعة. جاء والدك في الوقت المناسب فأنقذها ورضيعها. لم تمت زوجتي في الصحراء بل ماتت بين يديّ. عادت من الموت لتموت هنا أمام عينيّ...

عند منتصف الليل كان الرجال يحفرون قبرين آخرين لزوجتي ولطفلي الرضيع. ماتت زوجتي بعد وصولها إلى القافلة بسبب جروحها المنتشرة في جسدها لمقاومتها الباسلة لقطّاع الطرق وهم يتناوبون عليها الواحد تلو الآخر، وبموتها وطفلي لم يعد لديّ شيء اسمه عائلة. مكثت وحيداً حتى يومنا هذا. عافت نفسي الميل للنساء أو طلب الذرّية. وجدت نفسي لا أستحق أن تكون لي عائلة وأنا غير قادر على توفير الحماية لها. هذا هو السرّ الذي أخبرني به والدك ولم يعرفه بقيّة أفراد القافلة. اغتصبوها، وعند اغتصابهم لها حاولوا أن ينتزعوا طفلها الرضيع الميت من يدها فلم يقدروا على ذلك. أسلمت لهم جسدها وهي تحتضن رضيعها الميت بقوّة كما أخبرتني عندما ذهب أفراد القافلة كلّ مع همّه وجروحه وبقينا أنا وهي فقط. كانت تهذي تحت وطأة الألم والخوف والرعب قبل أن تسلم الروح لبارئها في منتصف تلك الليلة السوداء...

حكى لي والدك بعد ذلك ما عمله من أفعال تنمّ عن شجاعته ومروءته. قال لي بعد ذلك ونحن في

طريق العودة بعدما كاشفته بما اعترفت به زوجتي لي، إنه تتبّع أثر قطاع الطرق. قال إنهم انقسموا إلى قسمين، قسم منهم ساق تلك الجمال المحمّلة بأحمالها من الأرزاق إلى جهة والقسم الآخر الذي كانت بحوزته زوجتي، يبدو أنهم قرّروا الانفراد بها في أحد الكهوف حتى يفعلوا بها ما فعلوا. تتبّع والدك هذه الفئة، كان عددهم أربعة رجال. وجدهم لائذين بمغارة في أحد جبال السروات المحاذية للصحراء من جهة الشرق فلبد لهم حتى دبّ النوم في أجفانهم لم يكونوا يتوقعون أن أحداً من قافلة سلبوها يقدر على مجابهتهم أو استرداد ما نهبوه. تسلّل والدك إلى ذلك الكهف بخفّة. وجد أحدهم نائماً على مدخل الكهف فقتله خنقاً بيديه ثمّ استلّ خنجره فذبحهم واحداً تلو الآخر بنفس الخفّة والسرعة كما تُذبح النعاج.

أطلق بعد ذلك زوجتي من وثاقها وحملها على ظهر أتان والرضيع الميت حمله بيده. سار وقتاً لا بأس به حتى تمكّن من العودة إلى القافلة، ومن ألطاف الله أنّه مرّت بنا قافلة أخرى كانت تتّجه في نفس الاتّجاه، ضمّونا معهم في قافلتهم بعدما رأفوا بحالنا...

قلت لوالدك:

– ولماذا أخفيت ما حدث لزوجتي عن بقيّة أفراد القافلة وكنت تريد إخفاءه عنّي أيضاً؟

قال بهدوء:

– ذلك أفضل لك.

توقف الشيخ إدريس عن الكلام ولم أعد أسمعه إلّا وهو يترحّم على والدي.. لم يبكِ رغم أن المصيبة كانت مصيبته هو بالدرجة الأولى، ولم أبكِ أنا أيضاً. اعتبرت الأمر مجرّد مسامرة تحدث تحت سماء مكشوفة في صحراء قاحلة وطريق طويل محفوف بالمخاطر...

تذكّرت تلك المحادثة الحامية الوطيس التي جرت بين أبي والشيخ إدريس فاتّضحت الآن أمامي أسباب تلك العلاقة المتينة التي كانت تربط بين والدي وهذا الرجل واتّصلت خيوطها ففهمت...

بعد تلك الليلة تحاشيت بقدر المستطاع أن يقع بصره عليّ مرّة أخرى. أدرك تماماً أن الاعتراف بالضعف الإنساني يكون مقبولاً في وقت وغير مستحبّ في أوقات أخرى. لم أكن أحبّ أن أراه حزيناً أو يحمل كلّ هذا الحزن في قلبه...

عبرنا قرى متناثرة ومتباعدة على امتداد الشريط الساحلي بصحراء تهامة، كانت تلك القرى مضيافة تقدّم الماء والكلأ للدوابّ والمسكن والضيافة للحجّاج. وجوه بشوشة ترسم الابتسامات على محيّاها برغم الفقر وقلة ذات اليد. تسارع إلى إكرام ضيوف الرحمن بكلّ إخلاص وتفانٍ وبدون انتظار أجر أو شكر...

ما إن اقتربت القافلة من الميقات؛ ميقات يلملم، حتى طرح المسافرون لهو الدنيا خلف ظهورهم واكتست ملامحهم برداء الإيمان الغائب عن أكثرهم قبل لحظات. توقّف الحداء والمزح والإيحاءات التي تسبّب الخجل، وحلّ محلها الجدّ والالتزام والصرامة...

على النقيض، كنت أنا كما كنت، فالقلب الذي غادرت به القرية هو ذاته لم يتغيّر. لم تجرفني تلك الحركة الدائبة بين الجموع، ما إن تحط القافلة في مكان ما حتى تتوق نفسي للرحيل.

أطلت الشمس بضوئها من خلال الجبال التي تقع جهة الشرق فغمرت الأرض بالضياء. تهليل الحجاج وتكبيرهم يأتي من هنا وهناك وهم يستعدّون للخطوة الأخيرة قبل الدخول إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحجّ. أحسست أن الوقت قد حان لي. هذه هي اللحظة التي أنتظرها منذ زمن بعيد. قادتني خطواتي إلى حيث يكون الشيخ إدريس. وجدته ينتظرني وكأنما يتوقع مجيئي له. كان يقف كما عهدته دائماً في وسط الخيمة يقطر من وجهه الضياء والبسمة تشعّ على محيّاه. اقتربت منه، أشار بعصاه السوداء تلك التي اكتسبت لمعة بسبب الاهتمام الزائد بها إلى حيث تقف بغلة ترعى من عشب مطروح أمامها، قال لي:

– هنا تنتهي رحلتك معي، وستواصل سيرك حتى جدّة...

– أعلم ذلك.

قلت ذلك وأنا لا أعرف ولا أعلم شيئاً في حقيقة الأمر.

– هذه البغلة هديّة منّي لك، استعن بها في سفرك.

مدّ يده نحوي بورقة صفراء يبدو كأنها منزوعة من كتاب سحر قديم ناولني إيّاها ثم قال:

– أعط هذه الرسالة إلى تاجر هناك يدعى صالح جوهر وسيتكفل بالباقي...

في المسافة الباقية من الطريق إلى جدّة لم أشعر بالوحدة فالطريق كان عامراً بالحجّاج الذين يلفظهم البحر والصحاري والجبال ويذهبون إلى مكّة. الجبال حولي صامتة مهيبة الشكل ويجللها السواد المخلوط ببياض إحرام الحجاج المتناثرين هنا وهناك، أرى وجوههم تشعّ بالسعادة والحبور رغم مشقة الطريق ووعورة المسالك...

يوم ونصف قطعت فيه المسافة ما بين يلملم وجدّة. لم يسبق لي أن رأيت مدينة بهذا الاتساع ولأول مرّة تقع عيناي على مكان محاط بسور من الحجر وله أبواب ضخمة. ولم يسبق لي أيضاً رؤية هذا العدد الكبير من الناس الذين يعيشون في بقعة واحدة. لاح لي البحر من بعيد فبهرني لونه الفيروزي وخط الأفق الملتحم مع البحر في نقطة التلاشي البعيدة. رأيت السفن الجاثمة في الميناء فهالني حجمها الكبير وصواريها التي تلامس عنان السماء وأعلامها الزاهية وهي ترفرف عندما يهبّ الهواء. رأيت

سحناً متنوّعة لوجوه مختلفة سوداء وبيضاء وصفراء ووجوه تشبه وجوهنا المحروقة بفعل حرارة الشمس. الجميع كانوا يضمرون فرحاً انعكس على تقاسيم وجوههم وردود أفعالهم. كانت بغلتي تسير بي في دروب غريبة عنها تمشي وأذناها منتصبتان عالياً وتنفر من أدنى حركة حولها. لم أحفل بها فقد كانت عيناي معلقتين إلى أعلى حيث كانت هناك دورٌ عالية لم يسبق لي رؤية مثلها وأشياء تبدو كأقفاص الحمام ولكنها كبيرة الحجم معلقة في المنتصف علمت في ما بعد أنها تُسمّى الرواشين. بغلتي تسير على الأرض وعيناي تسيران إلى أعلى. نسيت صالح جوهر والشيخ إدريس ونسيت حتّى نفسي، توقفت أمام مقهى يشبه تلك المقاهي القليلة الواقعة على مداخل بعض القرى والنجوع التي مررنا عليها في الطريق إلى مكّة. كان يبدو قديماً ومكتظاً بالروّاد من حجّاج ومسافرين عابرين وعلى أقرب كرسيّ مستطيل الشكل وأشبه بسرير حباله مقطعة من هنا وهناك جلست أراقب ما حولي. الحركة دائبة وصاخبة ومستمرّة والأصوات متداخلة، كلمات أسمعها لأوّل مرّة فهمت منها القليل ولم أفهم الكثير. جاءني رجل أسمر البشرة ويأتزر حول وسطه بإزار ملوّن كان ينظر نحوي بلامبالاة وعندما لاحظ استطالة صمتي قال لي:

– ماهي طلباتك؟

طلباتي؟ ليس لي أيّ طلبات، لا أعلم ماذا أقول ولا بماذا أردّ، وفجأة خطر لي خاطر أنقذني فقلت له:

– إنني أبحث عن رجل يدعى صالح جوهر؟

ما إن سمع الرجل هذا الاسم حتى بان الجدّ والاهتمام على وجهه واعتدل بقامته ولاح على وجهه طيف ابتسامة ثمّ قال:

– أتعرف عمّي صالح جوهر؟

أجبت بخفوت:

– نعم.

تحسّست ذلك الخطاب في جيبي الأيمن، الذي أعتبره المفتاح الذي سوف يفتح مغاليق هذا المكان الجديد عليّ...

بعد قليل أحضر لي الرجل ماءً في كوب من حديد رأيته يغترف به من آنية فخّاريّة تنتصب في زاوية بعيدة ومظلّلة بقطع من الألواح والأخشاب ومغطاة بقطعة من الخيش من أعلى، ناولني إيّاها وقال:

– ستجد عمّي صالح في مسجد الشافعي حيث دائماً ما يؤدّي صلاة الظهر فيه...

– وأين مسجد الشافعي هذا؟

– سنذهب معاً أنا وأنت عندما يحين وقت صلاة الظهر. انتظر هنا وإن كان لديك أيّ عمل آخر فاذهب لتأديته وعد إلى هنا وقت الصلاة لأصطحبك إلى هناك...

لا عمل لديّ سوى أن ألتقي بصالح جوهر. أشعر بأن هذا الرجل رغم عدم معرفتي به مسبقاً، من أولئك الناس الذين سيحركون بوصلة اتجاهي ويديرونها إلى أين؟ لا أعلم. كلّ ما أعلمه هو أنّ هذا الرجل المدعوّ صالح جوهر سيعيد بناء ما قد تهدّم في حياتي السابقة هناك في تلك القرية القابعة في بطن من بطون صحراء تهامة. من هنا سأبدأ من نقطة الصفر، ومن أولى درجات السلّم الذي لا أعلم إلى أين ستؤدّي نهايته...

مكثت في مكاني أكتفي بالنظر في ما حولي حتى حان وقت صلاة الظهر، جاءني ذلك الرجل وقال لي:

– هيا...

قادني عبر أزقّة ملتوية حولها بيوت متلاصقة وحوانيت مفتوحة وأخرى مقفلة وناس يدخلون في جوف هذه البيوت وآخرون يخرجون منها. لمحت نساءً متلفّعات بأغطية ملوّنة وزاهية وبعض هؤلاء النسوة وجوههنّ مكشوفة، كانت في معظمها وجوهاً جميلة ولكنها لا تنظر إلى أحد وإذا نظرت إليك فسرعان ما تعود للنظر إلى أسفل. بعد قليل توقفنا أمام مبنى بُني بالطين والآجرّ ورؤوس الأخشاب تبرز من بعض جوانبه، سألني الرجل إن كنت متوضّئاً فأجبت بالإيجاب، وما إن دخلنا إلى المسجد حتّى أذّن المؤذن لصلاة الظهر...

صالح جوهر

منصور التهامي. أين هو الآن؟ لمحته أمام بيت القنصل الإنكليزي أثناء تلك الفوضى التي حدثت ظهر اليوم ثمّ لم أره بعد ذلك. لم يكن يوماً ما غائباً عن الهمّ الجماعي. تجده قريباً من الجميع، في الأفراح والأتراح. خطر اسمه في بالي الآن في هذا المساء العكر والدامي الذي أريقت فيه دماء كثيرة. لا أدري لماذا ترتاح نفسي لهذا الفتى الشهم؟ فيه صفات كثيرة تقرّبني له. أذكر لحظة وصوله إلى جدّة وأوّل مرّة التقيته، كان في مسجد الشافعي. انتهت الصلاة، صلاة الظهر على ما أذكر، فتقدّم منّي أحمد الصبي الذي يعمل في المقهى وقال لي إن هناك شخصاً يسأل عني منذ الصباح، وأشار إلى فتى في مقتبل العمر. كان يبدو كأنه خرج للتوّ من إهاب الطفولة إلى الرجولة إلا أنّه يبدو لمّاحاً وعمره العقلي أكبر من عمره الزمني. كان يقف أمامي مباشرة. أحاول أن أتذكر هل سبق لي رؤية هذا الوجه من قبل؟ لا لم تسبق لي رؤيته على الإطلاق. تقدّم نحوي مادّاً بورقة مطويّة في يده وسلّمها لي ثم تراجع خطوة إلى الوراء...

فتحت الورقة فإذا بها من الشيخ إدريس، من أصدقائي المقرّبين ومن أكبر زبائني. يشتري من متاجري ثياباً وعطوراً وهدايا في مواسم الحجّ. ذلك الرجل الصالح والد الجميع، الذي لا يختلف اثنان على محبّته وتقديره. كثيراً ما كنت ألتقي به في موسم الحجّ. تقريباً كلّ سنة يحجّ على رأس قافلة كبيرة تأتي محمّلة بالحجّاج من تهامة وقراها المبثوثة هنا وهناك. سمعت أنّ قافلته تعرّضت في إحدى السنوات الفائتة لهجوم من قطّاع طرق. قيل لي إن الشيخ إدريس فقد زوجته وطفلاً له بسبب مقاومته الباسلة لأفراد تلك العصابة ومع ذلك بقي صامداً لم تلن عزائمه ولم تفتّ في عضده هذه المصيبة. استمرّ في الحجّ كلّ عام أو كلّ عامين على الأكثر. كنت قد أزمعت أن أسأله عن فحوى هذه القصّة ولكنّي سكتّ احتراماً له. اكتفيت فقط بتعزيته في موت زوجته وطفله، هزّ رأسه شاكراً ولم تفتني مسحة الحزن التي طافت على وجهه. مع انتهاء الموسم كانت الجمال والبغال والحمير تنوء بأحمالها من بضائع يشتريها منّي بكمّيات وفيرة. لم تكن التجارة فقط تجمع ما بيني وبين ذلك الرجل؛ بل أشعر نحوه بإحساس الابن تجاه والده على الرغم من أنه لا يبدو كبيراً في السنّ، ولكنّها هيبته التي دائماً ما تغمر كلّ من يقع نظره عليه؛ ليس منّي فحسب بل من معظم تجّار جدّة وأعيانها. ينقضي موسم الحجّ فيحلّ ضيفاً عزيزاً في بيت كلّ تاجر جدّي. ينتقل من بيت إلى بيت ومن وليمة عامرة إلى أخرى. يمكث على هذه الحال حتّى ينتزع نفسه انتزاعاً من تجار جدّة وأعيانها...

فضضت الخطاب وبدأت بقراءته. كان محتواه توصية تجاه هذا الفتى وتهيئة كلّ السبل أمامه، ويطلب الشيخ إدريس أن أوليه اهتماماً كبيراً وأن أعامله كأحد أولادي.

أطعت كلّ ما جاء في خطاب الشيخ إدريس، وهل أملك سوى الامتثال لمثل هذا الرجل الطيّب؟

نظرت إليه مبتسماً فهزّ رأسه. لم يفت عنّي أدبه الجمّ. سألته عن اسمه؟ فقال إن اسمه منصور وهو قادم من تهامة، منذ ذلك اليوم ألحق باسمه المكان الذي قدم منه. سمّاه الناس التهامي. لا أدري إن كان ذلك يروقه أم لا. التفتّ إلى أحمد صبيّ المقهى أن يعدّ له مكاناً للمبيت في المقهى حتّى يوم غد ريثما أدبّر له بيتاً يسكن فيه وعملاً يختاره هو كيفما شاء...

يا للسنين التي تمرّ بسرعة البرق! فبعد حوالى عشر سنوات أتذكّر ذلك اليوم وكأنه حدث أمس. أسير نحو بيته الآن. يحدوني أمل بأن ألقى من يخفّف عني ضغوطاً هائلة تجثم على صدري. في داخلي كلام محتقن يعذبني ويزيدني تعباً على تعب...

أمامي يلوح لي منزله غارقاً في الظلمة إلّا من بصيص نور يبدو أنه ينبعث من سراج واهن النور. بالكاد استطعت أن أجد هذا البيت. كانت ملكيته تعود لي في الحقيقة ولكنّي نسيته بسبب تحاشي الناس استئجاره لبعده النسبي عن وسط البلد حيث تنشط حركة التجارة والناس أيضاً. أصرّ منصور على أن يدفع كراءه من خلال ما يتحصّل عليه من عمله في البحر والمرفأ. لا يقبل أيّ تأخير في سداد ما عليه، وإذا ما ضاقت به السبل فإنه يعتذر عن الدفع برأس مرفوع ليسدّد ما عليه في وقت لاحق بدون أدنى تأخير...

كثيراً ما يذكّرني هذا الفتى بخطواتي الأولى في التجارة، عملت بكدّ وعرق وجهد حتّى استطعت أن أكوّن ثروة لا بأس بها ساعدتني في بناء تلك السفينة التعيسة الحظ التي تحطّمت بأفعال عبثية صبيانية من قبل أولئك الرجال الغاضبين.

أعترف بأنّ هذه الأزمة إن لم تمرّ مروراً هيّناً فإن تجارتي حتماً سيصيبها البوار. فقد وضعت معظم ما أملك في بناء تلك السفينة. جمعت لها بنّائين مهرة من أرض دلمون إضافة إلى أشهر وأمهر البنّائين في جدّة. جلبت الأخشاب من أم ديه وحلقيم ووادي فاطمة وأخشاب الجاوي والصاج والسويدي جمعتها من السفن القادمة من كلّ بقاع الدنيا بتوصيات كنت أرسلها مع تجّار أو حجّاج قادمين إلى هنا بغرض الحجّ أو التجارة. تلك التوصيات أبعثها إلى أصدقائي التجّار الكثر حول العالم، ولم أكد أفرح بها وبوقفتها الشامخة في الميناء حتّى حدث ما حدث...

أخذتني تلك الهواجس والتساؤلات بعيداً ولم أشعر بنفسي إلّا وأنا واقف أمام الباب، كان مواربا، طرقته على مهل، لم يجبني أحد خطوت خطوات إلى الأمام...

تسمّرت عيناي على مشهد لم أكن أتوقّعه أو أتمنّاه على الأقل:

منصور التهامي مسجّى على الأرض وحوله امرأتان مكبّتان على جسده وجرح في صدره ودم سائل ومسكوب يبعث القشعريرة في النفس. لو لم أرَ تينك المرأتين وكأنّهما تبدوان تمسحان الدم من ذلك الجرح وعلى نور من سراج بدأ يغزوه السواد لقلت إنهما كانتا تأكلانه وتفترسانه أو تقتلانه، لم تشعر بي تانك المرأتان. إحداهما تبدو عجوزاً والأخرى فتاة صبيحة الوجه كثيفة الشعر وضيئة الوجه. لم تشعرا بي وأنا أتقدّم إلّا بعد أن خيّم ظلّي عليهما فانتبهتا فجأة والذعر بادٍ على وجهيهما. شهقت الفتاة عندما رأتني بصوت مسموع وتناولت الرداء الذي يغطي شعرها ثمّ غطت به فمها وهي لا تزال تنظر إليّ بخوف ووجل، أمّا المرأة الأخرى فلم يهتزّ لها جفن، كانت تقف أمامي تضع عينيها في عينيّ مباشرة، وبدت رابطة الجأش. سألتني من أكون فقلت لها بل أنتما من تكونان؟ وما الذي أتى بكما إلى هنا؟ وماذا حدث لهذا الفتى؟

كانت الأسئلة تنثال من فمي وأنا أنتقل ببصري ما بين المرأتين ومنصور المسجّى على الأرض...

بدأت المرأة الكبيرة تشرح لي سبب وجودهما هنا فاتّضحت الصورة كاملة أمامي. إذاً هذا الذي حدث لهذا الفتى المسكين. جُرح هناك أمام منزل القنصل الإنكليزي في هذا اليوم النحس. كانت المرأة تتحدّث وأنا أجوس بيدي على رأس منصور فلفحتني حرارة جسده، كان كجمرة مشتعلة، ويبدو أنه في غيبوبة وفاقد للوعي لا يدري بما يحدث حوله. هالني ما آلت إليه حال الفتى، وقرّرت أن أحضر طبيباً لكي يعاينه ولكن أين هو هذا الطبيب الذي بالإمكان إيجاده بعد تلك الفتنة الهوجاء؟

شكرت المرأتين وطلبت منهما الاهتمام به ريثما أحضر طبيباً يعاينه. لن تخلو جدّة في مثل هذا الوقت من إيجاد طبيب يكون بين جموع الحجّاج الذين يستعدّون لأداء الفريضة. سأبحث عن طبيب بينهم وحتماً سأجده. سيقيّض الله لهذا الفتى الطيّب من يعيد إليه صحّته وعافيته بعد توفيق الله تعالى بالطبع...

خرجت مسرعاً لا ألوي على شيء، وفي أثناء خروجي لمحت الفتاة تبكي بصمت وهي تنظر نحو الفتى المجروح. نظرت إليّ نظرة المستعطف. كانت ترجو منّي العون والمساعدة بهزّات من رأسها ونظرات عينيها الدامعتين المرعوبتين.

جبت جدّة طولاً وعرضاً. ذهبت إلى المقاهي البعيدة والقريبة. طرقت أبواب بيوت أعرف أصحابها من الذين يؤجّرون منازلهم للحجّاج القادمين من مشارق الأرض ومغاربها يمكثون أيّاماً في جدّة حتّى يقترب موعد الفريضة فيغادرونها ثمّ يعودون لاستئجارها مرّة أخرى حتّى يحين موعد عودتهم إلى ديارهم. بحثت في الخانات المنتشرة في أرجاء جدّة، كاد اليأس يصيبني، وفي أحد الخانات قال لي

صاحبه إنه يوجد هنا طبيب هندي مسلم جاء قبل يومين وسيغادر غداً إلى مكة. طلبت منه أن يدلّني على حجرته فدلني عليها وذهبت إليه، طرقت الباب طرقاً خفيفاً ففتح الباب بعد فترة قصيرة...

لم أعرف ماذا أقول له. كلّ الذي قلته كلمة واحدة هي:

– طبيب؟

هزّ رأسه مستفسراً وردّد معي:

– طبيب...

أشرت إلى صدري وتوجّعت وأمسكت بيده وأنا أسحبه إلى الخارج فارتاع منّي وسحب يده وتبدّلت ملامحه. ماذا أقول له حتى يفهم. أنا لا أتقن أيّ لغة أخرى. سحبته من يده بقوّة وأنا أستحثه على الخروج فصاح مستنكراً بكلام لا أفهمه. علا صوتنا ولغطنا حتّى جاء صاحب الخان وقد عقد ما بين حاجبيه من الغضب، قلت له قبل أن يخرج من فمه كلام لا داعي له:

– أنا التاجر صالح جوهر، وأريد هذا الطبيب أن يعالج ولدي الذي جُرح جرحاً بالغاً...

ما إن سمع ذلك الرجل اسمي حتّى تبدّلت ملامحه وحلّت على وجهه بسمة فيها الكثير من الاعتذار والذهول. اعتذر منّي بكلام لم أسمعه فقد كان عقلي هناك بعيداً في بيت منصور التهامي الذي يصارع الموت والغربة والوحدة...

كان صاحب النزل يرطن بكلام لا أفهمه مع الطبيب الهندي الذي لم يزايله خوفه بعد، ربما كان لأسلوبي الجاف والمتسرّع معه دور في ذلك، ومن سيلومني بعد الذي شاهدته؟ أو ربما سمع ذلك الطبيب بتلك الأحداث المأساوية التي جرت في اليومين السابقين للقنصل الإنكليزي والفرنسي ولكل النصارى على أرض جدّة، وهو أيضاً له العذر، فما أسوأ من عيش المرء على أرض معادية تترصّد له بالموت في كلّ زقاق أو درب لكي تذيقه إيّاه...

لم تكن جدّة كذلك يوماً. كانت وما زالت مدينة مضيافة تتقبّل الكلّ على أرضها بكلّ أريحيّة، ربّما اكتسبت تسامحها بسبب وجودها بالقرب من البحر وبسبب وجودها في نقطة التقاء تجمع كلّ الفئات والأنماط البشرية: تجّار، حجّاج، نهّازو الفرص، شُذّاذ آفاق، كانت تتسامح مع الجميع بدون استثناء، لها وجه باسم لكلّ من يطأ ترابها، تتعامل مع الكلّ بحيادية وإنصاف. ماذا جرى الآن وغيّر كلّ هذا؟

طال الحديث ما بين صاحب النزل والطبيب وتعالت أصواتهما، هذا يطلب ويستعطف والآخر يرفض ويعاند...

أدخلت يدي في جيبي وأخرجت نقوداً عثمانية فضّية وذهبية وريالات مجيدية وفرنسية وروبيات هندية أسكت رنينها الأفواه وأدار الوجوه نحوي. مددت بيدي اليمنى وهي مليئة بالنقود نحو الطبيب

الذي سرعان ما عاد إلى الداخل وأحضر صندوقاً صغيراً ووقف إلى جانبي مبتسماً لأوّل مرّة.

يا لسطوة المال!

لو كنت أعرف أن ذلك الطبيب من هذه النوعية لاختصرت الطريق بدون كلّ هذه المقدّمات التي ضاع بسببها وقت ثمين.

عبر دروب ملتوية وأزقة ضيّقة كنت أسير بصحبة الطبيب تجاه بيت التهامي، أسبقه أحياناً كثيرة وأتوقف بانتظاره حتّى يلحق بي. وعلى ضوء القمر الذي ازداد نوره مع تقدّم الليل ومع ازدياد السكون وصلنا إلى البيت، وعندما فتحت الباب ابتعدت المرأتان عن طريقنا وتقدّم الطبيب لمعاينة التهامي الجريح...

لم أكن أنظر إلى منصور في تلك اللحظة بل كان بصري مصوّباً تجاه الطبيب الذي علت وجهه سحابة من جدّية وصرامة، فتح صندوقه الذي أحضره معه وأخرج موادّ سائلة وأشياء لم يسبق لي رؤيتها من قبل، أخذ الطبيب ينظف الجرح بتلك المواد واكتفيت أنا والمرأتان بالنظر بالعيون والدعاء بالقلب بأن يشفي الله منصور...

بعد وقت طويل من التنظيف وفصد الدم المتخثّر كان منصور لا يزال غائباً عن الوجود. ظلّ ساكناً كميت لا يعنيه من هم حوله...

وحالما أنهى الطبيب التفت نحوي وأخذ يرطن بكلام لا أفهمه، ولكن لم يفتني مدى أهمّية كلامه حيث ارتسمت على ملامحه علامات الجدّ والاهتمام.

شكرته بهزّة من رأسي وطلبت من المرأة العجوز أن تهتمّ بمنصور حتّى أوصل الطبيب إلى النزل الذي يسكن فيه. سأطلب أيضاً من صاحب الخان أن يشرح لي مدى ما وصلت إليه حالة التهامي عندما أطلب منه أن يسأل الطبيب عن حالته ويترجم بدوره لي ما يقوله ذلك الطبيب.

تناول الطبيب صندوقه وهممنا بالخروج، التفتُّ إلى الفتاة الشابّة فرأيتها تبكي بصمت ولكنّ جسدها كان يهتزّ بعنف فيفضح ذلك الصمت...

فتنة

لا أدري لماذا في لحظات الانكسار والخوف تهاجمني ذكرى أيّامي المؤلمة مع زوجي السابق؟

برغم السنوات القليلة التي قضيتها معه كان كلّ يوم معه يعادل مئات من السنين والأعوام...

ظلمتني الحياة كثيراً...

الذلّ والإهانات كانت معه نوعاً من الترف. يحطّمني بوسائل لا تخطر حتّى على بال الشيطان نفسه. كنت على أتمّ الاستعداد لأن أتحمّل الضرب القاسي والإهانات التي تخترق الجسد كمسامير مُحمّاة على نار مشتعلة، بالمقابل لم أكن أستطيع تحمّل أن يتّهمني في شرفي وأخلاقي، ليضرب ما شاء له أن يضرب لكن أن يصِمَني بتلك الصفات المخزية فهذا الذي كان يكسر فيّ قوّة كلّ صبر أو احتمال...

لو أردت أن أكون مثلما وصفني لفعلت ذلك منذ زمن طويل، ولن يقف في طريقي أحد...

عُقد قراني عليه في مسجد الأبنوس، وحضر مراسم الزفاف الكثير من أعيان جدّة ووجهائها. كانت ليلة لا تُنسى من ليالي الفرح، أشعلت النيران في البرحات الكبيرة ورقص الشباب المزمار وكبار السن أيضاً حتى الصباح...

لم يسبق لي أن شاهدته من قبل. كان من وجهاء جدّة كما قيل لي. بعد ذلك اكتشفت أنه كان من شياطين جدّة. قميء الوجه وسخ اللسان منحطّ الأخلاق، يحمل في نفسه حقداً وكرهاً لكلّ نساء الأرض. لا أدري حتى الآن لماذا وافقت على الاقتران به. ربّما بسبب ألسنة الناس التي لا تتورّع عن تمزيق جسد أمّ وابنتها تعيشان وحيدتين في مجتمع لا يرحم أحداً. في كلّ مرّة أخرج فيها من الدار تلتهمني العيون الفارغة؛ الأفواه تتكلّم بعذب الحديث والقلوب تنطق بكلام لا يُقال. سئمت من هذه القيود وخضعت أخيراً لكي أنجو بنفسي وعقلي. قبلت بالزواج به. قلت لنفسي سوف ينتشلني من بيئة غير صحّية إلى مكان أتنفّس فيه على الأقلّ هواءً نقيّاً...

خاب ظنّي، ليس بعد سنة أو سنتين بل في اليوم الأوّل عندما كنّا متواجهين وجهاً لوجه، كنت على أتمّ الاستعداد للعطاء بدون حدود، وبالمقابل اكتشفت أنّ لديه نفس القابلية للعطاء ولكن من بوابة أخرى، من بوابة جهنّم...

ألقى عليّ في اليوم الأول حديثاً طال حتّى طلوع الفجر عن الزوجة الصالحة والطالحة، تحدث كثيراً وبمرارة عن الخيانة الزوجية وأثرها في تحطيم العلاقة بين الزوجين. كان يتحدّث وينظر في عينيّ مباشرة. بدأ الجوّ يتكهرب والنفوس تُشحن والانقباض يعلو الوجوه.

أمثل هذا الكلام يقال لي أنا؟ وهل هذا الوقت مناسب لقوله؟

كدت أطلب منه أن يكفّ عن الكلام ولكن فضّلت الصمت لأعرف نهاية هذا الكلام السامّ المؤلم.

لم أكن سوى زوجة ثانية جاءت لتجديد الحيوية وبثّ دماء جديدة في جسده الآفل. كنت في نظره مجرّد فتاة مسكينة تبحث عن رجل يحميها من غوائل الزمن ونذالة البشر، شعوره بالتفوّق عليّ أكسبه انتفاخاً داخلياً وركنني على الرفّ كإناء مكسور، يأتي في أوقات متباعدة وجلّ وقته يقضيه مع زوجته الأولى التي ما فتئ يسترضيها بسبب نزوته وغلطته الكبيرة في الاقتران بي...

ركنني في أحد بيوته البعيدة عن بيت زوجته الأولى حتّى يكون في مأمن من ثورات غضبها التي لا تنتهي، هي هناك تشتمه وتعنّفه، ويأتي إليّ ويفرغ كلّ أحقاده وسقطاته النفسيّة ضرباً وشتماً في جسدي ووجهي، كان يحرقني بزفارة لسانه. وجيهٌ أمام الناس وبلطجيّ في بيتي وفي تعامله معي...

كان متناقضاً في تعامله اليومي البسيط مع نفسه ومع الناس، يبدو رجلاً مهذباً سمحاً في لحظات ويكون على النقيض تماماً. هذه التحوّلات عانيت منها كثيراً. لم أشعر بالأمان في لحظات صفائه النادرة، كنت أرقبه بحذر وأتحاشى الدخول معه في أيّ حوار أو نقاش. نأيت بنفسي عنه وتركته يخوض في هذه البركة الآسنة والمنتنة التي تليق به وبمن هم على شاكلته...

طلبت منه في يوم أن تكون والدتي بجانبي في الأيّام التي لا يكون فيها فرفض، لا كرهاً بأمّي بل نكايةً بي لا غير. شعر بأنّ الوحدة تحطّمني وتؤذيني فأراد لهذا العذاب أن يستمرّ ويستمرّ بحضوره وغيابه...

من حسن حظي أن عذابي لم يدم طويلاً، ربّما لأن الله أراد أن يخلصني من عذاباتي قبل أن تؤدّي بي إلى مزالق الخطر...

جاءني نعيه صبيحة يوم حارّ. مات بعيداً عنّي وحمدت الله أنه لم يمت عندي وإلّا لطالتني تهمة التسبّب بموته. مات هناك عند زوجته الأولى، فلتهنأ بموته إن كانت استمتعت بحياتها يوماً معه...

مضت شهور العدّة وأنا أتشوّق لحياة جديدة أبدأ فيها بإعادة ترتيب أشلائي المتناثرة وأصلح ما كان قابلاً للإصلاح. الحياة ما زالت ممتدّة أمامي وتغريني بمزيد من الوعود المفرحة، لديّ إحساس يصل إلى حدّ اليقين بأنني لم أعش حياتي الحقيقية بعد. المخبوء منها أكثر لمعاناً وسعادة ممّا مضى، طلبت من أمّي أن تأتي للعيش معي في هذه الفترة تحديداً، جاءت وأضفت على البيت نوعاً من الحركة، وأسبغت عليّ من نهر حنانها فيضاً أعانني كثيراً على تجاوز تلك المرحلة السوداء السابقة...

يمكنني الآن تقسيم حياتي إلى قسمين: قسم ما قبل منصور التهامي وقسم ما بعده...

منصور التهامي، أين كان من ذلك كله؟

التقينا ذات يوم في الزقاق الفاصل ما بين حارتنا والحارة الملاصقة، ما إن وقعت عيناي عليه حتّى شعرت بقشعريرة تجتاحني وتبعثرني إلى أشلاء، هو من أولئك الرجال الذين يملأون العين والقلب.

أكثر ما أدار رأسي له سمت الرجولة الحقّة التي تفوح منه، حياؤه وخجله، نظراته المحدودة والمتغاضية، شعره اللامع المنسدل وجسده المشدود والفارع الطول...

كنت أرى منصور رجلاً مختلفاً عن بقيّة الرجال حينما يغضّ بصره عندما تقع عيناه صدفة عليّ، يشعرني هذا بالتقدير لأنوثتي وبالاحترام لوجودي وبأنني لست مجرّد بضاعة معروضة للنظر والتقليب بالعين واليد؛ لا ينتمي إلى أولئك الرجال الوقحين الذين يفحشون في القول لدى مرور أيّ امرأة أمامهم.

تجاهلني منصور مراراً، كنت أدرك أنني في حضرة طاقة هائلة لا يشملها اتّساع الكون ورحابته. له إشعاعات قويّة تعمي العين. أرقبه من خلال الرواشين فأجده كما هو لا يتغيّر...

لم يسعفني الحظ كثيراً معه. حتى لو طالت تلك اللعبة في ما بيننا كنت على استعداد لأن تأخذ تجربتي الوليدة تلك وقتها الكافي لتنمو وتنضج على مهل. كنت على استعداد تامّ للصبر والصبر إلى ما لا نهاية، لكن أن أراه يعود يوماً مترنّحاً وفي جسده جرح ينزّ دماً فهذا ما لا طاقة لي به...

ما الذي زجّ بمنصور التهامي في تلك المعركة أمام بيت القنصل الإنكليزي والفرنسي؟ فليذهبوا إلى الجحيم وليبقَ هو بعيداً عن تلك الأحقاد وفورات الغضب العبثي الذي تذوب منطقيّته في زخم الجماعات والحشود...

في هذه العشيّة عندما عاد وثيابه ملطخة بالدماء، وضعت كلّ قواعد العيب خلف ظهري، لم آبه لكلّ شهقاتي وتمتماتي وامتلاء الهواء في صدري. حركتي السريعة في البيت لفتت نظر أمّي فسألتني فلم أحر جواباً...

كانت أمّي من ذلك النوع من النساء الذي يتمالك نفسه عند نزول المصائب والملمات، كانت ترقبني بعينين فاحصتين، لا شيء يسبر أغوار الأنثى إلّا أنثى مثلها. لم أقاوم تلك النظرات من أمّي إذ سرعان ما انهار تماسكي، ضمّتني إلى صدرها في وقت كنت فيه بأمسّ الحاجة لمثل هذا الاحتضان والاحتواء. على صدرها اعترفت كطفلة صغيرة تعترف بشقاوتها وأخطائها البسيطة والعفوية، لا أدري بماذا أفصحت لها ولكنها بعدما نمت قليلاً في أحضانها إذا بها توقظني من نومي وتطلب منّي أن نذهب معاً لنزور الفتى ونرى ماذا حدث له.

كانت خطواتي إلى منزله تشبه خطوات من داست قدماه الحافيتان بستاناً خرافياً أو قصراً من قصور الخيال العذب والأمنيات المستحيلة، اضطراب نبضات القلب وخفة الروح وتنميل القدمين،

أعراض أصابتني دفعة واحدة.

رأيناه ملقى على الأرض ويبدو كأنه فارق الحياة. جرحه ينز بالدم الذي كوّن دائرة صغيرة على الأرض، طلبت منّي أمّي أن أحضر ماءً وقطعاً من القماش النظيف. لم أسمعها أوّل الأمر. تعطلت لديّ كل الحواسّ، لم يبق سوى البصر فقط، ولكنه كان بصراً بليداً وعاجزاً، صاحت أمي فيَّ فانتبهت كما ينتبه النائم من نوم عميق، استمعت لها بصعوبة ولكنّي فهمت على كلّ حال ماذا تريد وأحضرت لها ما أرادت...

مكثنا معظم ساعات الليل في تطبيبه وتنظيف جرحه ومسح الدم الذي استمرّ تدفقه حتّى أخذ الرعب منّا كل مأخذ بسبب تلك الكمّية الهائلة منه.

ظلّ أسود خيَّم علينا فجأة ونحن مكبّتان على الفتى. أمّي تنظّف الجرح وأنا أمسح على رأسه وشعره، كانت أمنياتي تبدو كأنها تحققت فجأة وبدون سابق إنذار. ها هو أمامي أداعب شعره وأمسح عرقه وأتامّله وأتحسّس بأصابعي جسده، هذه كانت منتهى آمالي وطموحاتي وسأكتفي بذلك...

خيّم الظلّ الأسود كثيراً حتّى استحال إلى شيء انتقل من هوامش الشعور إلى بؤرته، فانتبهنا له، كان هناك رجل ينظر نحونا وتساؤلات مرسومة على صفحة وجهه، قالت له أمّي من أنت أيها الرجل؟ صاح بصوت كالرعد: من أنتما؟ وما الذي جاء بكما إلى هنا؟ وماذا تفعلان هنا؟

لم يكن الموقف يحتاج إلى شرح أو تبرير. نظر ذلك الرجل إلى منصور ثمّ إلى أمّي التي شرحت له باقتضاب سبب وجودنا هنا. هزّ رأسه ثمّ تحسّس جرح منصور ومرّر بيده إلى جبينه ثمّ نظر إلى أمّي وطلب منها الاعتناء به ريثما يحضر طبيباً لكي يعاينه. شعرت بامتنان لهذا الرجل الشهم الذي سبقت لي رؤيته عبر الروشان من قبل يزور منصور في أحايين كثيرة وإن كانت متباعدة.

غاب ساعتين أو نحوهما ثمّ عاد مصحوباً برجل يبدو أنه ليس من أهل البلد، سحنته تبدو كحبوب البنّ المحروق ويحمل بيده صندوقاً حديدياً، توقّف الرجل برهة أمام منصور، زمّ شفتيه وبان الجدّ على وجهه، فتح صندوقه وأخرج منه قناني مليئة بسوائل ملوّنة، سكب كمّية منها في قطعة قماش بيضاء ثمّ بدأ بتنظيف الجرح. ران الصمت في تلك الحجرة إلّا من أنفاسٍ وتنهّدات تأتي منّي ومن أمّي وهزات رأس من ذلك الطبيب، ثمّ بعد ذلك بلّل جسد منصور بالماء لعلّ تلك الحرارة تخفّف من حدّتها.

أنهى الطبيب عمله ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال له كلاماً لم أفهمه، ثم أقفل صندوقه وخرج من الباب يتبعه ذلك الرجل.

بقيت أنا وأمّي نرقب منصور لعلّه يصحو من تلك الغيبوبة، ولكن دون فائدة. مضى وقت قصير عاد فيه ذلك الرجل الطيّب، طلب منّا أن ننقل منصور إلى دارنا في الأعلى بلهجة فيها الكثير من الرجاء،

قال لنا وهمّ كبير مرسوم على وجه:

– الطبيب يقول إنّ حياته في خطر حقيقيّ، الجرح غائر وخطر ويحتاج إلى وقت حتى يستردّ صحّته وعافيته. يحتاج إلى معجزة ربّانية لكي ينجو. أرجو منكما إن لم يكن لديكما أيّ مانع، أن ننقله إلى بيتكما ليحظى باهتمامكما حتّى تزول عنه تلك المحنة.

أيّ مانع يمكن أن يحول بيني وبين الاهتمام به، فمصيري مرهون بمصيره، وحياتي مقترنة ببقائه. سيكون بين أهدابي التي ستحتويه حتّى يُشفى وأتعافى أنا معه.

نامق باشا

إذاً فقد فعلها هذا الرجل. فعلها تماماً بعد نهاية المدّة المقرّرة التي حدّدها لي...

ولِمَ هذه العجلة؟

حينما كنت أتلقّى التهاني بأدائي فريضة الحج وفي ثالث أيّام التشريق بمنى، جاءني الخبر الصاعقة: لقد قُصفت جدّة بالقنابل وبسلاح "الطوبخانة" – سلاح المدفعية – بواسطة سفينة بريطانية راسية قبالة شواطئها.

أيّ حظ عاثر ألمّ بي؟ نهاية سيّئة لموسم حجّ ناجح. الدنيا تأبى أن تصفو لي. لا بدّ من أن يشوب صفائي كدر. ما بال الحياة تعبث بي كامرأة لعوب؟ أتحتمل جدّة مثل هذا النوع من القصف؟ أتتحمّل جدرانها وعقودها الجميلة وعتبات بيوتها المزيّنة بحجر البلاط البحري الذي يُستخرج من جوف البحر كلّ هذا العنف؟

ما هذه العنجهيّة التي لا تصيب إلّا المستضعفين من الناس. أتحتمل تلك البيوت المبنيّة من الحجر المنقبي والأخشاب والرواشين هذا القصف الوحشي؟

أفعال حقيرة جرت في توقيت سيّئ. انتهت تلك الأيام المباركة؛ أيّام الحجّ الأكبر. مكّة مليئة بالمسلمين من كلّ أصقاع الدنيا وهم في لحظة صفاء عقلي وديني وعلى أتمّ الاستعداد كي يهبّوا هبّة رجل واحد ثمّ يخوضوا البحر غير عابئين بالمدافع ولا بالسفن الحربية ثم يحرقوها ويغرقوها على رأس قبطانها ومسيّرها.

أحمق آخر ترسله إنكلترا إلى هنا إضافة إلى القنصل البائد. الأخبار تتواتر من جدّة من خلال الهاربين من نيران القصف. أخذ منهم الذعر كلّ مأخذ. هلك جمع لا أعلم تحديداً عدده من نساء وأطفال وشيوخ تحت وطأة هذا الاعتداء الغاشم الظالم.

لقد نفذ هذا القبطان تهديده ووعيده.

كنت قد استقبلت منه رسالة شفهية أثناء وجودي في منى يطلب منّي تسليم من قتلوا القنصلين الإنكليزي والفرنسي أو تنفيذ حكم الإعدام بحقهم. كان جوابي على مقترحاته تلك هو أنني قد حبست أولئك المتّهمين بالقتل ريثما يأتي الردّ من حكومة الباب العالي لكي أنفّذ تلك الأحكام.

يبدو أنّ هذا القبطان على عجلة من أمره، فها هو ينفّذ تهديده ووعيده بقصفه جدّة بلا هوادة أو رحمة...

كنت واقعاً تحت تيّارين يشدّانني إلى هذا الجانب وذلك الجانب، أشعر أحياناً بأنّ هؤلاء الأجلاف يستحقون ما حصل لهم، ألم يكونوا هم البادئين بالقتل؟ ألم يقتلوا القناصل وينهبوا دورهم وأموالهم؟

هل كانوا يحسَبون أن مثل هذه الأفعال ستمرّ مرور الكرام؟

لكن في المقابل، ألم يكن ردّ الإمبراطورية البريطانية قاسياً ومفرطاً؟

لو صُبر على ما قام به ذلك القنصل المتسرّع من أفعال وتمّ احتواؤها بذكاء وتمّ تحييد الغوغائييّن لما حدث ما حدث. لو ولو ولو... ماذا ستفعل هذه اللو الآن؟ لكن قدّر الله وما شاء فعل. لديّ إحساس كبير بأنّ هذا الأمر إن لم تتدخّل فيه الرؤوس الكبرى فستقوم حرب عقائدية تحرق الأخضر واليابس. لا بدّ من إخماد هذه الفتنة على الفور. الأمر فوق احتمالي وقدرتي. لا أريد أن أختم حياتي المهنية بفعل أندم عليه طول عمري.

ثمّ حدث ما يؤكّد لي مقدار سوء الأمور في جدّة، ففي مساء اليوم التالي كان بعض من سكان جدّة الناجين والنازحين يتوافدون على مكّة طلباً للنجاة من ذلك القصف. جاؤوا وهم يحملون أطفالاً مذعورين وزوجات نائحات ومسنّين أهينت كرامتهم وقُضّت مضجاعهم بعدما كانوا يشعرون بالأمان. تحاشيت أن ألتقي بهم وجهاً لوجه فأنا في غنى عن كلّ شكوى أو بكاء، أحتاج لمن يسمعني أنا، وأحتاج أكثر لأن يتوقّف حمّام الدم هذا...

كنت أتساءل: لماذا تأخر ردّ الباب العالي على ما أرسلته لهم واصفاً ما حدث من جرّاء تلك الفتنة المجنونة وإلقائي القبض على مثيري تلك الفتنة ومشعليها؟ أوضحت لهم الصورة بما فيه الكفاية، ولكنّ الرد تأخّر بما فيه الكفاية أيضاً...

الآن أصبح لكلّ جزء من الزمن أهمّية قصوى، فكلما كان هناك تأخير كان هناك مزيد من الضحايا ومزيد من الدمار.

لا بدّ من تهدئة نفوس الحجّاج الذين أخذوا بالتململ والسخط كبركان يوشك على الانفجار. لست على استعداد لمزيد من الانفجارات. يكفي ما حدث. لا بدّ من عمل شيء قبل أن تتوجّه كلّ هذه الحشود من الحجّاج إلى هناك فيحصل ما لا تُحمد عقباه. لقد زاد الطين بلّة توافد سكّان جدّة الهاربين إلى مكّة، ما إن رآهم الحجّاج حتى شاركوهم المصاب تارة بالاحتواء وتارة بالتهديد المباشر والمبطّن. ما زال الإيمان غضّ الإهاب في نفوس الحجّاج لم يخفت وهجه بعد، وهم بالكاد خرجوا من النسك وما زالوا يعيشون أجواءً إيمانية رحبة في أماكن مقدسة.

سمعت هذا الحديث كثيراً عن الرسول في هذه الأيام "مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى". هل قلت هذا

الحديث بصيغة صحيحة؟ لا أعلم. دائماً ما أكتشف أنني بعيد قليلاً عن الدين ومنعرجاته ودهاليزه، لكن هذا الحديث سمعته كثيراً هذه الأيام واستوقفتني هذه العبارة البليغة "تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى". الموقف لا يحتمل المزيد من الحمّى ولا السهر، يجب أن أفعل شيئاً حيال ذلك، هيبة الدولة العليّة أصبحت على المحكّ وتحت اختبار عسير لا بدّ من أن أخرج منه بأقلّ الخسائر الممكنة لي ولجناب الباب العالي. لقد تأخّر وصول الشريف الذي من المفترض أن يكون هنا منذ زمن طويل. ألا يقال إن شر البلاد بلاد لا أمير فيها. لو كان الشريف هنا لوضعت كلّ هذا الإشكال تحت يديه وأكون أنا مجرّد سلطة تنفيذية – هذا هو الوضع المنطقي – لما يقرّره من أوامر، ولكنّه الحظ العاثر الذي ما فتئ يلازمني منذ وطئت قدماي أرض الحجاز.

طلبت من إبراهيم آغا أن يجمع لي رؤساء بعثات الحج إضافة إلى شيوخ القبائل والتجّار والأعيان الذين قدموا للحج ومن هربوا من القصف في اجتماع عاجل في دار الإمارة في مكّة.

توجّه إبراهيم آغا إليهم هناك في منى وفي عرصات الحرم وكلّ أنحاء مكّة، بينما انصرفت أنا إلى ترتيب عقلي وأفكاري لكي أجد ما هو مناسب قوله في مثل هذه الظروف...

صالح جوهر

ما كدت أضع رأسي على الوسادة للخلود إلى النوم حتّى سمعت دويّاً كبيراً اهتزّت له أركان البيت أصابني بالصمم لفترة وجيزة. خرجت من الدار فزعاً وقد طاش عقلي. لمحت كرة من اللهب تعبر من فوق رأسي بسرعة رهيبة ثمّ على بعد حوالى مئتي خطوة وعلى أحد البيوت سقطت ثمّ دوى انفجار واحترق المكان. استحال الليل إلى نهار بسبب النيران التي أخذت في الاشتعال. اختلّ توازني ولفحني هواء حارّ. في الداخل ضجّ أولادي بالبكاء فزعين، وسمعت زوجتي تناديني بصوت اختلط فيه الخوف بالصراخ، كنت أحتاج إلى وقت حتى أستعيد حواسّي وذهني المضطرب ممّا تراه عيناي. سمعت نداء زوجتي استحال إلى بكاء حادّ وأنا ما زلت متسمّراً في تلك الحالة بين الحضور والغياب. تنبّهت كمن يستفيق من حلم إلى نداء زوجتي المتواصل ونحيب أطفالي فدلفت إلى الداخل. ما إن شاهدوني ماثلاً أمامهم حتى أقبلوا نحوي واصطدموا بي حتّى كدت أقع على الأرض. شعرت كأنّي غبت عنهم سنين عديدة. احتضنني أطفالي ولاذت زوجتي بكتفي من الوراء وهي لا تزال تنتحب. هدّأت من روعها وروعهم وأنا لا أعرف ماذا أقول لهم. استفسرت منّي زوجتي عمّا يحدث وما هذه الأصوات التي تصمّ الآذان؟ فقلت لها بكلّ بساطة: لا أدري. وحين هممت بالخروج مجدّداً دوّى انفجار آخر ولكنه كان بعيداً قليلاً فتشبّث بي الصغار وأمّهم فعدلت عن الخروج برغم تفاقم قلقي وفضولي للخروج واستطلاع ما يحدث. صعب عليّ كثيراً كوني بين أولادي وشيء مخيف يحدث من حولي فلا أستطيع تقديم أيّ تفسير حتّى لنفسي لما يحدث.

انفردت بزوجتي وطلبت منها برجاء أن تتماسك وتهدّئ من روعها فبكاؤها أمام أطفالها سيزيد من خوفهم ورعبهم. بعد تطمينات منّي ومقدّمات طويلة طلبت منها برجاء أشدّ حرارة أن تسمح لي بالخروج لكي أستطلع الأمر وما يحدث عن قرب. ما إن سمعت ذلك منّي حتى تمسّكت بثيابي أكثر من السابق فأدركت أنها لن تسمح لي بالخروج وقالت لي:

– هل جُننت يا صالح، تتركني مع هؤلاء الصغار أمام هذا الذي يحدث ولا نعرف ما هو؟

ما إن أنهت كلامها حتّى دوّى صوت انفجار آخر فقضى على البقيّة الباقية من أمل بالخروج. رضخت لرجائها ووجدت أنّ الخروج من البيت قد أصبح مستحيلاً.

كنت أقلّب الفكر في ما يحدث في الخارج، هل هي صواعق؟ فتذكّرت أن لا مطر هناك. وهل تمطر جدّة في الصيف؟ هل سقط أحد البيوت على رؤوس أصحابه؟ ولكن سقوط البيت لا يعقبه نار وانفجار

بهذه الوتيرة، هل أرسل الله عذاباً لأهل جدّة على ما اقترفوه من آثام. ثمّ ما هي الآثام التي ارتكبناها حتّى يغضب الله منّا كلّ هذا الغضب؟

هدأت الأمور قليلاً ومرّت فترة لم نسمع خلالها أيّ صوت، أدّى هذا إلى نوم الصغار الذين ما زال خوفهم مرسوماً على تعابير وجوههم ودموعهم ما زالت طريّة، كانوا متكوّرين في حجرة المؤخر للبيت. تململت من مكاني فوقفت على قدميّ وفكرت بالصعود إلى الطيرمة[2] لكي أستطلع الأمر. ما كدت أخطو خطوتين حتّى جاءني صوت زوجتي:

2 الطيرمة: حجرة صغيرة تقع فوق سطح الدار وتستخدم في تخزين الحطب والفحم ومؤونة البيت.

– إلى أين يا صالح؟

أشرت إلى الأعلى، قلت لها إنني سأصعد إلى الطيرمة لعلّي أفهم حقيقة ما يجري. نهضت من مكانها وأصرّت على الذهاب معي. أقلقني ذلك كثيراً وخفت أن تعود تلك الأصوات المدوّية مرّة أخرى وكلانا غير موجود بجانب الصغار فيزيد هذا من خوفهم ولكن لم تكن تسمع كلّ ما تفوّهت به:

– سأصعد معك.

قبلت على مضض. فضولي كان أكبر من إصراري على الجدال والأخذ والردّ. صعدت بمعيّة أمّ أولادي التي ما زالت ممسكة بثيابي من الخلف. كنت أخطو إلى أعلى وكلّي رجاء وأمل أن يهدأ هذا الغضب المصبوب على رؤوسنا والذي لا نعرف سببه ومصدره.

هناك في الطيرمة وعبر الجدار الواطئ لاحت بيوت جدّة يحيط بها السور فيكتنفها كما تكتنف الأم الرؤوم أولادها حولها، بيوتها بدت في تلك اللحظات مثل اللؤلؤ المنثور على أديم أرض سبخة. اصطدم رأسي بحبل معلّق فيه لحم مقدّد من بقايا خروف العيد الذي لم ننسَ فرحته بعد. كنّا في ثاني أيّام التشريق وما زالت فرحة العيد عالقةً بنفوسنا وثيابنا الجديدة وفرحة الصبية الضاحكين وهم ينتقلون من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق ثمّ... ثمّ جاء العذاب الذي لا نعرف حقيقته ولا نعرف أيضاً الأسباب المؤدّية إلى حدوثه.

خطوت نحو السور العلوي الواطئ، وإذا ببصري يصطدم بما هزّني هزّاً وبعثرني إلى أشلاء متعدّدة متناثرة...

شيء ما لمع هناك بعيداً جهة البحر، كنت أراه يتّجه نحوي وهو يبدو كشهاب في طريقه للأفول، يبدو صغيراً ثمّ يأخذ في الكبر والاتساع كلّما اقترب نحوي. يمرّ من فوق رأسي بسرعة البرق وله أزيز اللهب المشتعل. أتبعه ببصري فيمرّ بسرعة عالية، ثمّ على بعد خطوات ليست بالبعيدة ولا

القصيرة يسقط ثمّ يتبعه دويّ هائل يرجّ البيوت رجّاً ويشيع الخوف والرعب، يومض كشعلة ثمّ يخبو...

يا إلهي.. ما هذا الذي أرى؟ هل حانت ساعة القيامة؟ هل هذه هي النار التي تحشر الناس من اليمن حتّى أرض المحشر في فلسطين؟

لكن هذه الشهب وهذه النيران لا تأتي من جهة اليمن بل من جهة البحر. تداخلت لديّ الرؤى والأفكار فلم أعد أرتّب تسلسل نتائج فرضيّاتي.

هل يأتي الموت والدمار من البحر الذي نكنّ له كلّ إجلال وإكبار؟ المصائب قد تأتي إلى جدّة من أيّ مكان إلّا من جهة البحر الذي أحبّنا فبادلناه حبّاً بحبّ، لم نكن نتوقع أن يأتينا الخوف من حيث نحبّ...

صوت مخيف وكرة ناريّة أخرى تنطلق من البحر الذي يلمع فجأة فيضيء ما حوله في مدّة زمنية تشبه رقّة الجفن العلوي وانطباقه على السفلي ثمّ يحلّ الظلام، في تلك اللحظة الباهرة استطعت أن أرى شيئاً مثل وحش جاثم في عرض البحر. ضخم وقبيح المنظر لم يسبق لي رؤية شيء يشبهه في ضخامته واتساعه. ولكن ما هذا الوحش الأسطوري الذي لم يختر سوى هذه المدينة الوديعة الآمنة التي تمدّ رجليها لموج البحر في خفر وحياء لكي يصليها بوابل من نيرانه التي لا ترحم لوعة بكاء طفل أو انتهاك حلم عذراء في نوم هنيء...

هل من المعقول أن تلك السفينة الضخمة التي رست بعيداً عن الشاطئ منذ حوالى ثلاثة أيّام هي التي ترسل هذه الحمم والنيران على جدّة وأهلها؟

لم أنتبه من لجّة الفكر إلّا وزوجتي تهزني هزّاً عنيفاً وهي تبكي وأصوات الصغار تعلو وتأتي من بعيد كاستغاثة غريق في موج هائج وغادر، نزلنا من فوق مسرعَين إلى حيث كان الصغار. وجدناهم في حالة يُرثى لها، كانوا يبكون بكاء من وُضع في صحراء موحشة فأحسّ بطعم الخديعة من أقرب الناس له، افتقدنا أصغرهم فوجدناه – ويا للهول – قد حشر جسده الضئيل في صندوق السيسم الذي أحضرته لزوجتي في بدايات زواجنا. لم يكن يبكي من شدّة الخوف بل كان يرتجف من رأسه حتّى أخمص قدميه وعيناه تدوران في محجريهما، انتشلته من الصندوق بصعوبة وأنا أكافح ألمي وخوفي، كنت في حالة توقّع حادّ بمصائب أعظم من ذلك سوف تحلّ عاجلاً...

ضممته إلى صدري وبدأت تتناهى إلى أسماعنا أصوات استغاثات وصراخ ولغط من خارج الدار. أصوات مختلطة لصغار وكبار، ثمّ طرق عنيف على الباب؛ باب منزلي، وصوت المؤذّن يؤذّن في خارج أوقات الصلاة المعروفة...

فتنة

ما دامت أمّنا حواء أمّ البشر مدفونة هنا في جدّة فلن يصيبنا شيء!

قلت هذه الكلمات رغماً عني وأنا واقعة في تلك المسافة الوهمية بين النوم واليقظة. نهضت من نومي فزعة مرعوبة عندما سمعت دويّاً هائلاً بالقرب من بيتي. شيء لم تسمعه أذناي من قبل. تتالت تلك الأصوات المفزعة، كنت أسمع بعضها يأتي من بعيد والبعض الآخر على مقربة منّي. وعبر الروشان كنت أتطلّع إلى الخارج حيث كان المنظر المرعب يتجسّد أمامي، أصوات تصمّ الآذان، بيوت انهارت بسرعة بفعل هذا الدويّ المرعب وبعضها كانت النيران تلتهمه. ثمّ رأيت مجموعات من الرجال والنساء والأطفال تجري هنا وهناك وقد اختلط صياح الرجال ببكاء الأطفال بنواح النساء اللواتي كنّ يتخبّطن في مشيهنّ وقد خرجن بدون أن تسنح لهنّ الفرصة ليغطّين وجوههنّ وشعورهنّ.

يا إله الكون، ما هذا الذي أراه؟ جاءت أمّي مسرعة وعلى وجهها ألف سؤال وسؤال:

– ما الذي يحدث؟

– لا أعلم...

اقتربت منّي حتّى وقفت بجانبي وأخذت تحدّق عبر الروشان إلى الخارج. شعرت بجسدها ينتفض. تغيّرت ملامحها وحلّ الرعب محلّ السؤال على وجهها ثمّ بسرعة انسلّت إلى الخارج لكي تستطلع الأمر.

تذكّرت فجأة منصور الجريح الذي عاد إلى بيته القريب منّي منذ أيّام.

بعد أن أصيب بذلك الجرح مكث في ضيافتي ثلاثة أيّام اعتبرتها من أكثر أيّامي سعادةً وحبوراً.

في تلك الليلة، حينما عاد صالح جوهر بعدما أوصل ذلك الطبيب إلى الخان الذي يسكن فيه، طلب مني ومن والدتي برجاء حارّ أن يُنقل منصور إلى بيتنا المجاور لمنزله لكي نقوم برعايته، قال لنا وهو لا يزال يحمل همّاً كبيراً ينتظر من يزيحه عن كاهله:

– أطلب منكما ذلك وكلّي رجاء أن تنقلاه إلى بيتكما ريثما أتدبّر أمره. الرجل لا يزال في مرحلة الخطر. سيمضي وقت لا ندري هل سيطول أم سيقصر حتّى نستطيع الحكم هل سيموت أم ستُكتب له الحياة. من الأفضل أن يُنقل إلى منزلكما فأنتما سيّدتان وحيدتان وهو أيضاً رجل وحيد لا أهل له...

نكس برأسه ثمّ استأنف حديثه بهدوء:

– إذا طلبت منكما رعايته وهو في منزله وشاءت الصدف وشاهدكم أحد الفضوليين أو الفضوليات وأنتما تخرجان من بيت رجل وحيد وأعزب فسيعرّضكما هذا للأقاويل و...

قالت أمّي بلهجة حاسمة:

– سننقله إلى منزلنا وسنقدّم له الرعاية بقدر استطاعتنا.

لم يخفِ الرجل ارتياحه فقد شكرنا بحرارة وتعهّد أن يفعل كلّ ما في وسعه حتّى يستردّ عافيته ويغادر في أسرع ما يمكن منزلنا.

وضعناه بهدوء على سرير صغير، وبمساعدة ذلك الرجل وأنا وأمّي كنا نصعد به إلى إحدى غرف المؤخر في بيتي. رغم آلامي وخوفي الشديد على حياته وأن أفقده، طاش عقلي وقلبي من الفرح رغم صعوبة الموقف ولكن كون منصور في منزلي أراه وقتما أشاء نقلني من النقيض للنقيض. أنتقل من أقصى حالات التعاسة إلى أقصى حالات السعادة، هذه الموجات العنيفة ما فتئت تعبث بي صعوداً وهبوطاً، ولكنّي كنت في لحظة عطاء رغم كلّ الظروف الحالكة المحيطة بي، أريده أن يكون بجانبي وليحدث ما يحدث...

ساعات مرّت في اليوم الأول لوجوده في بيتنا وأنا أرقبه، أتطلع إلى ملامح وجهه وأتحسّس جسده وأداعب شعر رأسه. أنصت إلى انتظام تنفّسه وعفوية حركات جسده، أنظف له جرحه وأستبدل ملابسه، أجلس بجانبه أوقاتاً طويلة وأنا أتضرّع إلى الله أن يحفظ لي مصدر فرح في حياة جفّت فيها ينابيع الفرح.

كان هناك سرّ لم أبح به لأحد حتّى لأقرب الناس لي: أمّي. كنت أريد أن أخبرها أن منصوراً قد أفاق في اليوم التالي من إصابته. هذه الاستفاقات في بداياتها كانت عبارة عن همهمات وغمغمات لم أفهم منها شيئاً. أولها كانت من نهاية اليوم الثاني من وجوده تقريباً قبل أفول الشمس للمغيب، كنت وقتها أقلّب في صندوق السيسم الكبير بحثاً عن أقراط وأساور ذهبيّة قرّرت أن أبيع جزءاً منها لأستعين بها على قضاء حوائجي. أوّل الأمر ظننت بعد تلك الآهة التي صدرت منه أنّها كانت جزءاً من أمنياتي التي تكلّست ثمّ تحطمت بفعل الترقّب والانتظار لكي يستفيق من تلك الرقدة الطويلة، ولكنّها تكرّرت للمرّة الثانية فتركت كل ما كان يشغلني وتوجّهت نحوه وأنا أسير على أطراف أصابعي، نبضات قلبي تنتفض انتفاضاً لا دقاً، وعيناي لا ترمشان وأطرافي متجمّدة خشية أن أبعثر تلك اللحظة المنتظرة لعودة طالت أوبتها. جثوت بجانبه وأمسكت بيده اليُمنى فالتفّت أصابعه بوهن حول أصابعي تماماً كطفل صغير يمسك بأصابع أمّه. هل كنت أحتاج إلى أكثر من ذلك؟

دبّت الحياة في هذا الجسم السقيم والمنهك. وعادت الروح إلى أرضي العطشى التي عانت طويلاً

من القحط والجدب، أمطرت سمائي أخيراً. كنت فرحة جذلة كطفلة أهديت لها هدية غالية الثمن. كلّ الاحتياطات التي من الممكن أن تستخدمها الأنثى في مواجهة دعوة من رجل انهارت لديّ، كنت كمدينة تستسلم لدخول الغزاة بعد طول انتظار من حصار خانق يكتم الأنفاس. أمسكت بأصابع يده بكلتا يديّ وضغطت برفق ودلكتهما طمعاً في مزيد من الإشارات التي تشعرني بدبيب الروح في جسده وجسدي أيضاً. لم يخب ظنّي، أحسست بردّة فعله، تشبّث بأصابع يدي كغريق ينشد النجاة، كانت عيناي مصوّبتين تجاه عينيه مباشرة. بدا كأنّه يعاني من كابوس يجثم على صدره، يحرّك رأسه يميناً وشمالاً ولا يزال يتمتم بكلمات غير مفهومة، كنت وقتها على استعداد كبير للصبر كصبر أمّ تشعر بجنينها ينمو داخل أحشائها فتتقبّل ذلك بروح طيّبة. طال انتظاري ولم يفق بكلّ حواسّه. بعد قليل تراخت أصابعه وعاد إلى وضعه القديم، ولولا صعود وهبوط صدره لظننت أنه فارق الحياة. وضعت يده على صدره ونهضت أحتفل بتلك الرسالة المهمّة التي أعادت لي الروح. نمت في تلك الليلة وأنا أحتضن سرّي الصغير. لم أشأ أن يشاركني فيه أحد. حتّى أمّي لم أخبرها بتلك التطوّرات. ولكنّي لم أقوَ على عدم إخبارها فأخبرتها وليتني لم أفعل. لاحظت عليها عدم الارتياح، كانت نظراتها زائغة بسبب وجود رجل غريب في بيتنا، ربما كان غريباً عنها لكنّه بالنسبة لي كان أقرب إليّ من حبل الوريد. حياتي تتجسّد بوجوده. ألسنة الناس لن يستطيع أحد إسكاتها. ما دام بعيداً عن عيونهم فنحن وهو بخير. وقفت اليوم أمام المرآة طويلاً. تأمّلت ملامح وجهي، كنت أرى مزيجاً من الغبطة والهمّ يرتسم عليه. لا أدري أأنا امرأة سعيدة أم شقيّة. كنت ألحظ حيرة أمّي، أفاجأ بها في كثير من الأحيان ترقبني بعينين ساهمتين قلقتين. هل كانت تظنّ أنني أصبت بلوثة في عقلي بسبب هذا العشق؟ كنت أشفق عليها وقرّرت التخفيف من فرحتي تلك احتراماً لرأيها في وجود منصور هنا بيننا. لكنّي لم أنفّذ هذا القرار الذي اتّخذته، ففي اليوم التالي دخلت عليه الحجرة التي كان فيها ووجدته مفتوح العينين ينظر في سقف الحجرة وجدرانها مستغرباً ذاهلاً. لم تسعني الفرحة، أقبلت نحوه فزاد استغرابه وغضّ بصره قال لي:

– ماذا حدث لي وكيف جئت إلى هنا؟

أخبرته بالتفصيل عمّا حدث. نقلناه إلى هنا بعدما طلب منّا صالح جوهر ذلك، قلت له إنه قد أحضر لك طبيباً وإن ذلك الطبيب قال إن أمد شفائك سوف يطول قليلاً. تلزمك الراحة التامّة في قادم الأيّام...

كان يستمع إليّ وبصره مغروس في الجدار المقابل له. ران صمت ثقيل بيني وبينه. فضّلت الخروج فهو يبدو في حاجة إلى الاختلاء بنفسه...

رغم فرحتي الشديدة بعودته تلك تبدو هذه الفرحة في طريقها للزوال...

في اليوم التالي سمعت صوتاً يأتي من الحجرة التي يشغلها. على رؤوس أصابعي ذهبت إلى هناك فوجدته وهو يحاول الوقوف على قدميه. ذهلت وطلبت منه أن يعود إلى مكانه وليريح جسده فما زال أمامه وقت لكي يندمل ذلك الجرح. لم يكن يهمّه الجرح بل ما كان يهمّه هو أن يخرج من هنا في أسرع وقت. هل راوده شعور بالحياء لكونه يعيش بين امرأتين لا تمتّان له بصلة؟ طلبت منه أن لا يتحرّك هكذا فجأة، أطاع أمري ولكنّه بدا محرجاً في وجود امرأة لا تربطه بها أيّ صلة. ما زال يشعّ منه ذلك البريق؛ بريق الرجولة والحياء الذي يصل إلى مرحلة اللامبالاة بالآخرين.

مرّت ساعات كثيرة كانت أمّي فيها بالمرصاد لي. في دخولي وخروجي إلى تلك الحجرات الكثيرة كانت تتبعني كظلي بسبب وبدون سبب. احترمت قلقها ذاك فكنت ألبد في مكان ما وقتاً طويلاً وعندما أقرّر الخروج كنت أفتعل الضجيج حتى لا تُفاجأ أمّي بوجودي في مكان آخر بدون سابق إنذار.

في اليوم الثالث ضربت بكلّ تلك الاحتياطات عرض الحائط. كان منصور قد بدأ بالحركة البسيطة في أرجاء الحجرة ولكنّه كان لا يزال عاجزاً عن تحريك يده اليمنى. ذهبت إليه ووجدت أن حياءه لم يبارحه قيد أنملة، عاجزاً عن الكلام، يدور ببصره في أرجاء الحجرة. اقتربت منه وأمسكت برأسه بكلتا يديّ أحاول أن أجعل عينيه تتوقّفان عن ذلك الهروب غير المبرّر، ركّزت ببصري في وجهه، كنت أريد أن أقول له كلاماً كثيراً تدرّبت عليه في حجرتي طوال الأمسيات الماضية ولكن بلا جدوى، هربت منّي الكلمات وتاهت بعيداً فلم أستطع الإمساك بها...

اكتفيت بالنظر نحوه أتأمّل ملامح وجهه، كانت لا تشي بشيء محدّد. لم أستطع مقاومة تلك اللحظات المجنونة فغادرت على عجل.

أعود إلى الواقع المتجسّد أمامي. ما زالت تلك الانفجارات والأصوات المرعبة تهزّ البيت بفعل قوّتها، وكمن يتذكّر أمراً بعد فترة نسيان قصيرة تذكّرته. شغلني عنه هذا الهول الذي لا أعرف من أين جاء وما سببه.

كان كلّ تفكيري منصبّاً تجاه بيت منصور في الأسفل. مشيت إلى الروشان وتطلعت من خلاله لعلّي أراه ولكن بدون فائدة. كان الظلام يخيّم في الخارج في ليل حالك السواد على غير العادة.

عادت أمّي بعد لحظات وهي مفزوعة أسمعها تنادي عليّ بخوف:

– فتنة أين أنتِ؟

– أنا هنا...

دخلت وعلى وجهها ارتسم رعب لم يسبق لي رؤيته من قبل على ملامحها...

– ماذا يحدث في الخارج يا أمّاه؟

كانت ساهمة حاضرة بجسدها دون عقلها، كرّرت عليها السؤال فانتبهت وقالت لي:

– يا ابنتي يبدو أن هناك أمراً جللاً يحدث لهذه المدينة.

صوت دويّ مرعب يأتي من الخارج ولكنّه هذه المرّة كان قريباً جداً حتّى لكأنّه حدث في الحجرة التي كنّا فيها. التحم جسدي بجسد أمّي ووقعنا على الأرض بفعل ذلك الاهتزاز القويّ.

انقبض قلبي. فكّرت بمنصور بشدّة في تلك اللحظات. هرعت إلى الروشان. نظرت إلى الخارج فرأيت ألسنة النيران تشتعل قي بيته الذي انهار قسم كبير منه. صرخت رغماً عنّي فانتبهت لي أمّي. جاءت تهرول والفزع مرسوم على ملامحها. سألتني عمّا حدث لي؟ أشرت لها إلى الأسفل وقلت:

– يبدو أن بيت منصور يحترق.

تقدّمت من الروشان وأطللت إلى الخارج. كانت ألسنة النيران تكاد تصل إلى منزلنا. هرعت أمّي إلى خارج البيت وهرعت أنا معها. كنا في طريقنا إلى بيت منصور. لم نجد أيّ بيت بل بقايا بيت. انهار جزء كبير منه واشتعلت فيه النيران. أسرعت مع أمّي صوب تلك الأكوام الهائلة من الأخشاب والأحجار. ناديت بأعلى صوت: منصور أين أنت؟

لم يجبني أحد. أخذت أزيح الأحجار والتراب والأخشاب بطريقة هستيرية وأنا أصرخ. لفت صراخي انتباه أناس هاربين من تلك النيران المصبوبة على الرؤوس كانوا يمرّون بالصدفة من أمام البيت، اقتربوا منّي وسألوني عمّا بي. أشرت لهم إلى تلك الكومة الكبيرة من بقايا بيت منصور. عرفوا ما كنت أرمي اليه فبدأوا بالنداء على منصور بعدما أخبرتهم باسمه. من حسن الحظ أن البيت قد انهار جزء منه وبقي جزء استطاع أحد الرجال أن يدخل إلى ذلك الجزء السليم من البيت. ذهب إلى الداخل ثمّ صاح بعد قليل: لقد وجدته، ها هو هنا. ارتعش قلبي من الفرح ولكنّه كان فرحاً منقوصاً. سألت ذلك الرجل:

– هل هو بخير؟

لم يجبني أوّل الأمر ولكن بعد قليل قال لي:

– لا أعرف ولكن هناك دم ينزف من أماكن مختلفة من جسده.

سحب الرجال منصور إلى الخارج. كان يبدو كميت لا تصدر منه أيّ حركة. رأسه معفّر بالتراب وجسدة مليء بالجروح والخدوش والكدمات. كان غارقاً في دمائه وجروحه التي كُتب لها أن تتجدّد في كلّ مرّة وكلّ حين.

سألتهم بوجل: هل هو ميت؟ لم يجبني أحد، كانوا في حال تغنيهم عن الجواب لهذا السؤال في مثل هذه الظروف.

احتار الرجال ماذا يفعلون به ولكنّ أمّي قالت لهم بدون تردّد:

– اذهبوا به إلى هذا البيت المجاور ريثما أستدعي من يهمّهم شأنه.

وضعوه على قطعة من خشب وصعدوا به إلى بيتي. لقد عاد لي مرّة أخرى. ولكنّي لا أعلم هل عاد حيّاً أم ميتاً. شكرت أمّي أولئك الرجال الذين عادوا إلى زوجاتهم وأطفالهم المرعوبين والمنتظرين أسفل البيت. خطوت أنا وأمّي إلى حيث كان منصور. كان ممدّداً على الأرض ولا يشعر بما هو حوله. عدنا إلى نقطة البداية من جديد. لكنّ الله رحيم بعباده. يأتي الفرج أحياناً بعد الشدّة. قمت أنا وأمّي بتنظيف جراحه وتضميدها قدر المستطاع. بعد قليل كنت ممسكة بيده عندما وقفت أمّي أمامي وقد لبست ثياب الخروج، قلت لها:

– إلى أين أنتِ ذاهبة؟

– إلى ذلك التاجر المدعوّ صالح جوهر. لا بدّ من أن يأتي لكي يخلّصنا من هذه الورطة. لقد استأمننا عليه ولا بدّ من أن يسترجع أمانته.. نحن الآن في لحظات حرجة، في مثل هذه الظروف تُنتهك خصوصيات الناس ببساطة. ربّما تجدين أناساً هاربين يدخلون بيتك بدون سابق إنذار. ماذا سيكون موقفنا عندما يرى الناس رجلاً غريباً في بيتنا ونحن امرأتان وحيدتان؟ في لحظات الخوف يكون كلّ شيء مشروعاً لا وجود للعيب على الإطلاق.

– ولكن يا أمّي...

لم تدعني أكمل حديثي بل حدجتني بنظرة قاسية وهي تشير إلى فمها أن أسكت ثمّ خرجت.

منصور التهامي

ما هذه الأصوات المدوّية المرعبة؟

انتبهت من نومي فزعاً. كان كلّ ما حولي يسبح في ظلام دامس. وقفت على قدميّ وأنا أحاول أن أقدّم تفسيراً منطقياً لهذا الضجيج والصخب. خرجت من البيت ووقفت في الفناء الخارجي. أدرت بصري في السماء فلمحت كرات من لهب تسقط هنا وهناك وفور وقوعها تصدر صوتاً هائلاً يهزّ الأرض ويخلّف ناراً هائلة تحرق كلّ ما هو في محيطها. بعد قليل سمعت ضوضاء عظيمة آتية من أناس قادمين نحوي، صراخ الأطفال وعويل النساء يتصاعد كلّما دوّت تلك الكرات الناريّة بذلك الصوت الذي يصمّ الآذان. التفتُّ نحو بيت فتنة، لمحته يبدو كقلعة مشيّدة في أرض سحريّة الوهم فيها كالحقيقة.

فتنة. أذكر جيداً طعم ذلك اللقاء. كنّا وجهاً لوجه. أحسست وقتها كأنني أداعب غيمة بيد وبالأخرى أمسك بنجمة مضيئة. لقاء أشبه بوقع المطر على أرض عطشى. لقاء كسر تلك العزلة التي لازمتني وقتاً طويلاً. حطّم طوق الأشواك الذي كان يحيط بي. أحيا في داخلي أملاً ذاوياً ولكنّه بقي كامناً كبذرة في جوف الأرض تنتظر السقيا أو المطر لتنبت من جديد تحت ومضات برق رحيم. أين أنت الآن منّي؟

غادرتُ بيتها بعد ضيافة امتدّت ثلاثة أيّام قضيت جزءاً منها في غيبوبة كاملة بسبب تلك الكمّية الكبيرة من الدماء التي نزفتها وتلك الكدمات والجروح التي أصبت بها. في نهايات اليوم الثالث اصطبغت حياتي بطعم جديد ولون جديد. لو كنت أعلم أنّ للحياة جانباً مضيئاً هكذا لشربت منها حدّ الارتواء. سأتخلص من أوجاعي العقلية والروحية وسأمدّ جسور التواصل مع الكلّ بدون استثناء.

في الأيّام التي تلت خروجي من بيتها كنت أتواصل معها عبر الروشان. لأول مرّة أقف غير هيّاب أنظر إليها وتنظر إليّ. لم أكن أرى كثيراً من ملامحها ولكنّي كنت أرسم صوراً عدّة لها في عقلي. شكلت بخيالي أدقّ التفاصيل التي بالإمكان أن تحدث في ما بيني وبينها. أصبحت أحلامي دبقة لزجة فيها من النعومة الشيء الكثير. لم تعد حواسّي معطلة. استيقظت وأصبحت في أفضل حالاتها. يبدو أن الحياة بدأت تغدق عليّ من نعيمها المكنوز. ولكن رغم ذلك كانت تنقصني الجسارة للاعتراف من لذائذ الحياة. هذه هي نقطة ضعفي الوحيدة ويبدو أنها ستلازمني بقيّة عمري...

بيتي غارق في الظلمة وعقلي يشعّ بأفكار تشبه هذه الكرات من اللهب التي تسقط على الناس وبيوتهم. يبدو أنني اتّخذت قراري في الزمن غير الملائم. صحوت من ذلك التيه متأخّراً. لم أفهم تلك الإشارات والتنبيهات التي كان صالح جوهر يحاول لفت نظري إليها. دائماً ما كان يقول إن للحياة جانباً مضيئاً وإن نزوع الطبع إلى الإغراق في السوداوية يجب أن يتوقّف وإذا لم يتوقف يجب أن يُقمع بشدّة. كنت أسمع كلماته تلك يلوكها عقلي قليلاً ثمّ يمجّها على قارعة الطريق.

أين هو صالح جوهر منّي الآن؟

عرفت أنه قد بذل تضحيات كثيرة بعدما أصبت بذلك الجرح القاتل أمام بيت القنصل الإنكليزي، قدّم لي الرعاية الكاملة حتّى استطعت أن أتعافى. كيف يمكنني أن أردّ كلّ هذه الديون التي أغرقني في لجّتها هذا الرجل النبيل؟

كان مصدري الوحيد في أخبار جدّة بعد مكوثي القسري هنا في بيتي بسبب ذلك الجرح الغائر، يقول لي أهمّ الأحداث التي حدثت. يخبرني عمّن مات ومن تزوّج ومن ذهب إلى البحر ولم يعد حتّى الساعة. أخبرني أيضاً أن والي الحجاز نامق باشا قد جاء إلى جدّة. قال لي إنه كان غاضباً بسبب ما حدث. تفقّد كلّ الأماكن التي شهدت حوادث الشغب والقتل. قال لي أيضاً إن القنصل الإنكليزي قُتل والقنصل الفرنسي ومساعده قُتلا، وأيضاً قتل واحد وعشرون نصرانياً ونُهبت حوانيتهم ودورهم. في حقيقة الأمر لم تفاجئني كلّ تلك الحوادث، فمن رأى غضب الناس وجنونهم ذلك اليوم يمكنه أن يتوقع الأسوأ.

في اليوم التالي كانت مأساة أخرى تنتظر أهل جدّة عندما بدأت جثث النصارى تزكم الأنوف بروائحها وخصوصاً تلك الجثث التي سُحلت في الشوارع. كانت ملقاة على قارعة الطريق. انتفخت الجثث وبدأت بالتفسّخ. تأفّف الكثير من الرجال من أن تمسّ يده جسد رجل نصراني. تبرّع قليل من الرجال ثم جمعوا جثث النصارى وانطلقوا بها عبر الزوارق إلى إحدى الجزر القريبة من جدّة حيث كانت هناك مقبرة للنصارى فدفنوها فيها.

قال لي أيضاً شيئاً لفت انتباهي. قال إن الوالي العثماني نامق باشا قد طالب القائمّقام وقاضي القضاة بتسليمه من كانوا السبب في القتل وإثارة الفتنة. سلّموه قائمة مكوّنة من أربعة عشر رجلاً زجّ بهم في سجن الإمارة. ولكنّه لم يكتف بذلك بل تعهّد بأنه بعد انتهاء موسم الحجّ سيعود ليكشف المزيد من الأسماء ولن يتوانى عن تنفيذ أقسى العقوبات بحق أصحابها. سألت صالح جوهر عن مآلهم وما سوف يتم في أمرهم. أطرق برأسه إلى الأرض ثمّ قال بصوت خفيض:

– لا أحد يستطيع توقّع ما يمكن حدوثه، ولكن قد يُعدَمون على الأرجح. حتّى هذه القائمة ستبقى

مفتوحة لآخر لحظة، من المحتمل أن يدخل فيها أشخاص جدد أو يخرج منها أناس آخرون، ستكون قائمة مائعة غير ثابتة...

لم أر صالح جوهر حزيناً بمثل حزنه هذا قطّ قبل هذه اللحظة. ران علينا صمت طويل وثقيل. قال لي إن جدّة لم تعد جدّة. دخلتها الشرور وحلّ النحس بها وأهلها، وتوقع أن قادم الأيام ستكون أياماً سوداء قاتمة وأنه يُستحسن بالمرء أن يراقب كلّ سكناته وحركاته وأقواله، فثمّة عيون ترى وتسمع وتراقب. تُرى إلامَ كان يرمي صالح جوهر بمثل هذه الكلمات؟ هل كان يحاول تحذيري بطريقة غير مباشرة؟

كان يزورني باستمرار في بيتي بعدما خرجت من بيت فتنة. ولكن بعد فترة لم يعد يزورني إلّا لماماً، خصوصاً بعدما أخبرني أنّ الوالي العثماني نامق باشا في جدّة ليتفقد أحوالها ويعالج تلك الكارثة التي حلت بها. كان يأتي مستعيناً بظلمة الليل. طيلة شهر كان يأتي بصمت ويخرج بصمت ويحثّني بأمل ورجاء على ألّا أغادر البيت. لم أعد ألمح فيه ذلك الشغف للحياة واستكشاف جوانبها المضيئة. أرى على وجهه مخاض همّ يتشكّل وتتّسع رقعته عقب كل زيارة من زياراته تلك. كان لا ينسى تلك التوصية: يطلب منّي المكوث في البيت وعدم مغادرته على الإطلاق. أوكل لأحمد صبيّ المقهى مهمّة تلمّس احتياجاتي من مأكل وملبس وغيره. لا أفهم لماذا يصرّ صالح جوهر على مكوثي في البيت. يريد منّي أن أبقى مسجوناً. لم تدخل عقلي مبرّراته بخطورة الجرح وتأخر شفائه ولكنّي خضعت لإرادته. لم أكن في حاجة لتكدير صفاء هذا الرجل لأني أدرك تماماً نبل مقصده وسلامة نيّته.

هذا المساء قرّرت أن أتمرّد على سلطته الأبوية تلك التي ابتدأت منذ مقدمي إلى جدّة حتى اللحظة. سوف ألحّ عليه كي يخبرني عن سبب إلحاحه عليّ لكي أكون حبيس البيت. أستطيع الآن أن أمشي على قدميّ وأستطيع تحريك يدي اليمنى فما الذي يمنعني كي أخرج من هذا السجن؟

كنت قد قرّرت أن أخبره بذلك في أقرب زيارة يقوم بها لي ولكن لا أعلم هل سأراه بعد هذه الليلة العصيبة أم لا؟

عدت إلى داخل البيت واحتوتني الظلمة من جديد. تلك الانفجارات تزداد حدّتها مع مرور الوقت. أحاول أن أتلمّس طريقي في الداخل. تساءلت بيني وبين نفسي: هل هناك رابط بين ما حدث في جدّة منذ أيّام وما يحدث لها الآن؟

كنت أقف في منتصف الحجرة أحاول أن أجد إجابة لتساؤلي هذا. و... فجأة رأيت نوراً باهراً ينهمر من سقف البيت ثمّ شعّ في وجهي فأفقدني البصر للحظات ثم أعقبه دويّ انفجار هائل. وجدت نفسي

معلقاً في الهواء حتى كدت ألامس السقف وهواء حارّ يلفح وجهي وجسدي، ثم هويت إلى الأرض و...
لحظتها لم أعد أشعر بشيء...

نداء

يا أهالي مكّة..

يا أهالي جدّة..

يا حجّاج بيت الله الحرام..

يا شيوخ العشائر والقبائل..

يا تجّار مكّة وجدّة...

الوالي نامق باشا يدعوكم جميعاً غداً في دار الإمارة..

للتباحث في الأحداث التي حدثت في جدّة..

يا أهالي مكّة...

يا أهالي جدّة...

يا حجّاج بيت الله الحرام...

الوالي يطلب منكم الحضور جميعاً غداً في دار الإمارة..

للتشاور في ما حدث من أحداث في جدّة

ليعلم الحاضر منكم الغائب...

يا أهالي مكّة...

يا أهالي جدّة...

نامق باشا

لم يتّسع ديوان الإمارة رغم مساحته الكبيرة لكلّ هذه الأعداد الغفيرة من الناس، ربما كان ذلك بفعل النداء الذي قام به أحد الرجال ذوي الصوت الجهوري وبتكليف من إبراهيم آغا. طاف المنادي كلّ شوارع وأزقة مكّة وأسواقها وحاراتها والعرصات المحيطة بالحرم أيضاً. فاجأني عددهم الكبير، لذا استعنت بالساحة الخارجية المحيطة بدار الإمارة. وجّهت الدعوة لكل قائد حملة حجّ ومن رؤساء محامل الحجّ: المحمل العراقي والمصري والشامي والعثماني واليمني ومن مختلف أنحاء العالم، الذين صادف وجودهم في حجّ هذا العام، ولم أنسَ كذلك توجيه الدعوة لشيوخ العشائر والقبائل في مكّة وتلك التي تحيط بها. كان من المؤكد أن يكون هناك أيضاً الفضوليون والمندسّون من العامّة ومن سكّان مكّة الذين لم يؤدّوا الفريضة. وكذلك وجّهت الدعوة بالطبع للحجّاج القادمين من جدّة من التجّار والأعيان وذوي الشأن. وجاء أيضا الهاربون من جدّة وأهوالها والأخطار المحدقة بها. ما زال في العيون ذلك الخوف العالق بالأحداق والجاثم على النفوس أيضاً.

لم يسبق لي أن تكلّمت في مثل هذه الكثرة من الناس. كانوا غاضبين ونزقين يرفعون أصواتهم عالياً لأتفه سبب. يشعرون بالإهانة وهي تعصرهم عصراً بلا رحمة. كرامتهم وُضعت على المحكّ. دينهم، عقائدهم، مقدّساتهم، أرواحهم، أطفالهم، نساؤهم... كلها خطوط حمراء جرى العبث بها. مهمّتي ازدادت صعوبة. عمّا قليل سأتحدّث إلى حشد غاضب على استعداد للانفجار، لا يتورّع عن عمل أيّ شيء من شأنه أن يزيد من وتيرة هذا التوتّر والاحتقان.

الحديث إلى مثل هذه الكثرة من الناس يربكني. أنا رجل قضيت معظم سني عمري في نظام عسكري صارم. أتحدّث بلغة الجسد والفعل أكثر من الكلام. حتّى الكلام في النظام العسكري كلام مباشر لا يخضع لقوانين الحديث العادي أو المنمّق، بل هو مجرّد كلمات تؤدّي الغرض منها بأقلّ السبل. كيف يمكن لشخص مثلي وفي أرض الفصاحة والبلاغة، أرض نزل فيها القرآن الكريم، أن يتقن حرفة الكلام البليغ؟ ولكن تلك السنوات القليلة التي قضيتها في مسقط رأس أجدادي في مدينة قونيه التي كان البعض من سكّانها يتحدّثون العربية بطلاقة، ساعدتني كثيراً في هذا اليوم، إضافة إلى قرار والدي – الذي أدرك مدى حكمته الآن – الزجّ بي في سكرتارية المكتب الإمبراطوري حيث حفل تعليمي بموادّ ذات نهج ديني وعربي شمل حتّى قواعد النحو والدراسات الدينية وبعض اللغات كالإنكليزية والفرنسية قبل أن يرسلني السلطان عبد الحميد إلى أوروبا حيث قضيت سنوات في التنقل

في ما بين تلك الدول لتحسين لغاتي المتعدّدة في أماكنها الأصلية. تحسّنت لغاتي الأجنبية وتوارت مقدرتي على الحديث بلغة القرآن بسبب تلك السنوات التي قضيتها في بلاد أوروبا. التحدّث إلى الجموع المتكدّسة يختلف عن الحديث الشخصي والمباشر لفرد أو فردين. لا مجال هنا للسقطات اللغوية التي قد تجلب العار للمتحدّث حتى آخر عمره...

وانا أتقدّم إلى مقدّمة هذه الحشود أرى الوجوه ترمقني وتتوقع منّي الكثير. أتمنّى في قلبي ألّا يعقدوا عليّ آمالاً كباراً. فانا لا أملك عصا سحرية لحلّ هذه الكارثة التي لن تُحلّ إلّا بتدخل شامل وعلى مستوى الدول والحكومات؛ هذه الكارثة لن يحلّها مجرد والٍ مثلي. أتمنّى أن يفهموا هذه الجزئية. أتقدّم إلى حيث يجب أن أكون في مقدمة الحشد. ما إن وقفت أمامهم ورأيت هذه الكمّية الكبيرة من العيون تنظر إليّ وتقتحمني اقتحاماً حتى شعرت بخدر يتصاعد من أسفل قدمي حتى رأسي. مع ذلك قرّرت أن أنهي هذه المسألة في أسرع ما يمكن. لا بدّ من مناقشة الأمر بكلّ صدق وشفافية. لا بدّ من أجعل تلك الصدور المخنوقة بكلام كثير تخرجه تماماً مثل الخراج المليء بالصديد. لا بدّ من ثقب في قمّة هذا الدمل حتى يخرج القيح إلى الخارج. الكلام المكبوت في الصدور أشدّ إيلاماً من ضرب السياط وتراكم الهموم والمصائب.

جلست وبدأت الغمغمات والهمهمات تخفت رويداً رويداً. كانوا ينظرون نحوي وأنا ماثل أمامهم بالزيّ العسكري وحولي ثلّة من الجنود المدجّجين بالسلاح. كنت قد حضرت كلاماً كثيراً يتناسب إلقاؤه في مثل هذه المناسبات، ولكن – ويا للعجب – لم أتفوّه إلّا ببضع كلمات بسيطة خرجت منّي وقد ضاع ذلك الكلام والأفكار التي أعددتها مسبقاً، هكذا تبخّرت وتخلّت عنّي في وقت كنت فيه بحاجة إليها. تبّاً لك من كلمات أبت الخروج لتشنّف مسامع تتوق إلى من يشفي صدور هؤلاء القوم الذين يظل الكلام البليغ والموزون شغلهم الشاغل على مدى مئات من السنين. ما استطعت قوله وأذكره هو:

– قصدت بهذا الاجتماع بكم التشاور وتبادل الآراء لكي نخمد نار هذه الفتنة قبل أن يستفحل أمرها...

هكذا فقط. هذا ما استطعت قوله. سكتّ وسلمت لهم حبل الحديث ودفة الحوار. كنت أريد أن أتحدث وأتحدث أكثر من هذه الكلمات المقتضبة ولكنّي تخلّيت عن الحديث أو هو الذي تخلّى عني بمعنى أصحّ، للكلام شهوة عارمة ما إن تمسك بخيوطها وتتقن صنعتها حتّى تنداح على لسانك الكلمات مثل الماء المنسكب، ولكن ما حدث لي كان محرجاً. ما تفوّهت به كان أقلّ ممّا كنت أتوقّع...

في مقدّمة هؤلاء الناس يجلس أعيان جدّة وتجّارها والهاربون من جحيم القصف. كانت عيونهم محمرّة وقد اعتلج في النفوس غضب هائل. قام أكبرهم سنّاً، رجل ذو لحية مشذبة بعناية. قال بصوت

عالٍ أدهشني مدى قوّته وحدّته:

– نحن في معقل الإسلام، ومن هذه الأرض المباركة انطلق نور الإسلام فعمّ أرجاء الأرض وانتشر، ولا يزال بحمد الله الإسلام عزيزاً وقويّاً، ويأبى الله أن يطفئ نوره حيث مهبط رسالته...

توقّف الرجل قليلاً عن الكلام، صوّب نظره تجاه الناس المتجمهرين وبدا كأنّه يقيس مدى تأثير كلامه على الناس، وعندما لاحظ أن العيون ترمقه والرؤوس تهتز موافقة لكلّ حرف ممّا يقوله انتحى بالحديث إلى جانب آخر مغاير لتلك البداية الإنشائيّة.. قال ذلك الرجل:

– هنا يا معالي الباشا والي الحجاز قبائل كثيرة على أتمّ الاستعداد لأن تموت في سبيل الله، سيلقون بأجسادهم وأرواحهم تحت نيران هؤلاء النصارى عليهم من الله ما يستحقون، هنا قبائل ثقيف وهذيل ومن الشمال قبائل حرب ومن الجنوب قبائل غامد وزهران وكلهم على استعداد تامّ في سبيل الدفاع عن حياض الدين والإسلام...

ثمّ توجّه ببصره نحوي وكأنّه يخصّني بما هو قادم من الكلام وقد لانت نبرة حديثه:

– كلّ هذه القبائل يا صاحب المعالي تنتظر من جنابكم الإذن في التجمّع ثم المسير إلى جدّة فيقومون بإغراق هذا المركب الذي سام الناس الخسف والسوء، سيقومون بإغراقه بمن فيه من هؤلاء النصارى الأنجاس فيخلّصون الناس من شرّ نيرانهم التي لا ترحم أحداً لا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً طاعناً في السنّ. فلينظر معاليكم في هذا الأمر ونحن تبع لكم، أينما تسيروا نَسِرْ، من أمامكم وخلفكم نملأ الشعاب والأودية بالمجاهدين في سبيل الله...

سكت ذلك الرجل فجأة وكأنه كان يلقي كلاماً حفظه مراراً قبل التفوّه به.

يا له من خطاب تحريضي!

هذا ما كنت أخافه، أن تقوم مثل هذه الكلمات – بتحريض ثلة من الفقهاء السطحيين – بتحريك الدهماء وعامّة الناس وتزجّ بهم في أتون معركة خاسرة لا يقدرون على الاستمرار فيها إلى النهاية.

مثل هؤلاء الحمقى ممّن يحسنون الكلام واللعب على الحبال المشدودة لأناس فقدوا الأمل، يكونون هم أوّل من ينسحبون من أرض المعركة بعد أن يورّطوا هؤلاء المساكين فيها. ماذا ستفعل هذه القبائل الكثيرة وهي تواجه آلة الحرب المتطوّرة والجهنّمية بمجموعة من البنادق القديمة الصنع والهراوات والسيوف والخناجر؟

الأمنيات لا تصنع النصر. ليت مثل هذا الشيخ يدرك هذا الأمر. كان لا بدّ من أن أرد على كلامه وأخرج من الفخّ الذي نصبه هذا الشيخ الموتور المنتفخ الأوداج. اخذ الناس بالتهليل والتكبير ورفع

الأيدي، أعرف ردود الفعل هذه جيداً، سرعان ما تتلاشى عند أول اختبار حقيقي للمواجهة. ماذا أقول لهم؟

كتمت غيظي بابتسامة بلهاء لا معنى لها، ووجدت نفسي أقول:

– أوافق على كل ما قلته أيّها الشيخ الجليل، ولكن نحن في موقع تشاور وطرح للآراء أمام الجميع، وسأردّ على ما تفضّلت به من كلام، نعم معك كل الحق في ما قلته من اجتماع هذه القبائل ويوجد منها ولله الحمد ضعفها في كلّ أنحاء جزيرة العرب وكلهم على نفس الاستعداد للجهاد في سبيل الله، ولكن ماذا ستفعل كلّ هذه القبائل في هذه اللحظة بالذات وفي سبيل حلّ هذه المصيبة الواقعة على أهلنا من سكّان جدّة المنكوبة؟ نريد وقف هذه الحمم من النيران المصبوبة على رؤوسهم. من المؤكّد أن كلّ القبائل الموجودة هنا حول مكة وجدّة قادرة بإذن الله على إغراق هذا المركب الإنكليزي، ثم ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سيمتلئ بحر جدّة بالعشرات من هذه المراكب، سيرسلها النصارى إلى هنا وسيقذفونها بالمدافع حتى لا يبقوا أحداً يمشي على ترابها. ستتعرّض بوابة الحرمين لمصاعب هي في غنى عنها، وليس هذا فحسب بل سيجتمع النصارى من مختلف البلدان وسيحاربون الإسلام والمسلمين في كلّ مكان وسيجتمعون على محاربة الدولة العليّة. سيتكالبون عليها من كلّ حدب وصوب، وإذا حدث مثل هذا فماذا ستفعل هذه القبائل المجتمعة وهي لا تمتلك سلاحاً ولا عتاداً ولا طوبخانات ولا حتّى مراكب يستعينون بها في هذا الأمر؟

عندما توقفت عن الحديث وجدت نفسي ألهث وأنفاسي تتلاحق وكأنني كنت أعدو في فلاة جدباء. التقطت أنفاسي ومسحت العرق المتفصّد على جبيني وانتظرت ما الذي سيكون من ردّ فعلهم على كلامي. هل أبدو في نظرهم مثبّطاً لما كانوا يرمون فعله؟ هل أبدو متخاذلاً عن نصرة الإسلام والمسلمين في مثل هذا الظرف العصيب؟

ما كدت ألتقط أنفاسي حتى نهض أحد التجّار – من تجّار جدّة – متحدّثاً. كان شابّاً تبدو عليه آثار النعمة، أبيض الوجه، أحمر الخدّين، نظيف الثياب. قال هذا التاجر الشاب:

– أستسمح الوالي لسماع هذا الرأي فإذا وجده صواباً فذلك ما نرمي إليه، وإذا كان غير ذلك فالأمر شورى...

يا الله! يبدو أنّ هذا النهار سيكون طويلاً أكثر ممّا كنت أتوقع. بطل وأحمق آخر. ماذا يريد أن يقول بعد كلّ الذي قيل؟ هززت رأسي موافقاً وأنا أقاوم رغبة ملحّة في صفعه على وجهه السمين الضاجّ بالحيويّة والصحّة ولكن ليس هناك بدّ من الاستماع له.

قال ذلك التاجر المرفّه:

– ليسمح لنا الوالي نحن سكّان جدّة الخبراء في صناعة المراكب، بإعطال وتخريب هذا المركب الذي يصلي بناره وحممه رؤوس أهلنا في جدّة، والحلّ أن نختار من لهم الدراية بصناعة المراكب ومن الغواصين أن يغوصوا أسفل الماء وعندما يصلون إلى أسفل المركب يخرقونه بضربات من الفؤوس فيتسرّب الماء إلى الداخل فيغرق المركب بمن فيه...

رغبتي في صفعه تتصاعد ولكنّي كتمتها بصعوبة. شكرته على رأيه النيّر ولكنّه يفضّل حلّاً من مجموعة حلول تؤجّجها الرغبة الصادقة في المساعدة ومدّ يد العون رغم كونها غارقة في السطحيّة والبساطة...

كان لا بدّ من أن أتناول كلّ هذه الآراء كلّاً على حدة لذا أجبت على اقتراح ذلك الشاب:

– ما ذكرته ليس من الصواب في شيء فأنتم إذا أغرقتم مركباً واحداً فستأتيكم عشرة مراكب، وإذا استطعتم إغراق عشرة مراكب فسيرسلون لكم المئات منها وسيزداد الأمر سوءاً على سوء.

كان لا بدّ من أن أحسم هذا المجلس المنعقد قبل أن تتكاثر الآراء كذباب رأى قطعة من حلوى فتكالب عليها... قلت لهم:

– أنا لديّ رأي ربما وافقني عليه جزء كبير منكم؛ الرأي هو أنّ هذا الأمر يمكن حلّه باللطف وحسن التدبير والسياسة دون اللجوء إلى إراقة مزيد من دماء الأبرياء من الناس البسطاء. الرأي هو أن نتوجّه إلى جدّة بمعيّة الأعيان والوجهاء والتجّار وأنا معكم، ونطلب مقابلة قبطان هذا المركب الإنكليزي ونتّفق معه على أن يوقف هذه المدافع التي ما فتئت تقتل يميناً ويساراً وتهدّد أمن وسلامة الباقين من الناس. سنصل إلى اتفاق نحقن به الدماء وندفع به الضرر...

قلت ذلك الكلام وأنا أدعو الله أن لا يقف أحد من هؤلاء البعيدين الذين لم تمسّهم نيران ذلك المركب الشيطاني فيفسد هذا الرأي الذي قلته. الأمر أكبر من أن أتصرّف فيه وحدي، وأدعو الله أن لا يتأخّر ردّ الدولة العليّة في إيجاد حلّ جذري ونهائي لهذه المصيبة.

وافقني الكثير من الناس على ما قلت فشكرت الله في سرّي وشعرت بامتنان كبير لله سبحانه وتعالى.

انتقلت بعد ذلك إلى الخطوة الأخرى وهي تكوين جماعة من التجّار والوجهاء والأعيان الذين سأذهب برفقتهم إلى جدّة لمعالجة هذا الأمر في أسرع ما يمكن...

صالح جوهر

هناك عبر الزقاق الطويل والمعتم لمحتهم رغم تلك القتامة الموحشة. كانوا كالأشباح الهائمة التي تطوف المدن والقرى في الهزيع الأخير من الليل في الصيف والشتاء وكلّ فصول السنة. يسيرون وقد اختلطت أصواتهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، يركضون هنا وهناك، يصطدمون بالجدران وأبواب المنازل ويتعثّرون بأكوام الحجارة للبيوت المنهارة... كانوا أشبه بموتى خرجوا من قبورهم في التوّ واللحظة...

أراهم وأسمع صرخاتهم تزداد وضوحاً وحدّة كلّما اقتربوا منّي، حيث أقف ذاهلاً عاجزاً عن فهم ما يجري حولي. زوجتي وصغاري واقفون عند باب الدار وعيونهم معلقة بي وقد حبسوني بتلك النظرات المتضرّعة كي لا أدعهم وحدهم في هذا الظرف...

أحزنني جداً بكاء الأطفال والرضّع. منذ زمن طويل وأنا لا أطيق بكاء الأطفال والصغار. بكاؤهم يربكني ويهدّ من تماسكي، فما بالك إذا كان الذي يصرخ كلّ هذا الكمّ الكبير منهم؟

ما الذي حدث لك يا جدّة؟

كرات كبيرة من اللهب تعبر من أمام عينيّ وفوق رأسي قريبة وبعيدة عنّي تسقط هنا وهناك غير عابئة بخوف الناس ولا بأرواحهم...

أدركت بعد فترة – وكان للحدس أكبر دليل لي – أن ما يحدث له علاقة بتلك المجزرة التي قُتل فيها القناصل والنصارى قبل أقلّ من شهر.

لا يقدر على فعل ذلك سوى... سوى... عقلي يربط بين ما رأيته وأنا على سطح المنزل مع زوجتي. أرسل بصري هنا وهناك حتى أعرف ماذا يجري. ما زالت تلك الكرات من اللهب تسقط هنا وهناك، وسرعان ما تنشر الدمار بمجرّد سقوطها على البيوت ورؤوس الناس أيضاً...

– جدّة تتعرّض للقصف من البحر...

هذه هي الحقيقة التي توصّلت إليها. تلك السفينة الضخمة الراسية في عرض البحر منذ أيّام هي التي قامت بالقصف. طالما راودني شعور ملحاح بعد تلك الأحداث بأنها لن تمرّ مرور الكرام، سيحصل أمر جلل في يوم ما، ولكنّي لم أتوقع أن يكون قريباً وسريعاً هكذا...

ذلك الوحش الخرافي والأسطوري الجاثم على جسد جدّة من ناحية البحر يرسل حمماً من اللهب بدون توقّف. لم يكن وحشاً بل سفينة هائلة الحجم رابضة هناك في الميناء. أيّ توقيت شيطاني اختاروه لكي يفعلوا ذلك؟

الحجّ، الأعياد، الأوقات المثلى للتجارة والكسب، أيّام من أيّام الله المجيدة على ظهر الأرض. يستغل هؤلاء النصارى المجرمون أوقات الانتقام بحساسية عالية فيها الكثير من القسوة والدهاء والمكر.

إن لم ينقذكِ الله يا جدّة من هذه المصيبة فستصبحين هباءً منثوراً. سيقال بعد ذلك إن مدينةً ما كانت هنا يوماً. سيبقى الحزن عليك ممتدّاً كلّ السنين التي ستأتي. سيصيب وجهك الجميل الكثير من البثور التي ستسهم حتماً في تشويهه...

في برحة المظلوم القريبة من بيتي تجمّع الكثير من الناس. صمت الليل تحطّم تحت وطأة الصراخ المتداخل من الأطفال والرضع وتأوّهات الطاعنين في السنّ. كنت غير قادر على التركيز في مثل هذه الضوضاء وخصوصاً بعد ان جلبت معي زوجتي وأطفالي. شعرت بمدى خطورة وجودهم في البيت ثمّ تأتي – لا قدّر الله – واحدة من هذه القذائف فتقضي عليهم أو حتى تصيبهم بمكروه. لم أعد أحتمل أيّ مصيبة أخرى تثقل كاهلي. كنت منهكاً ومنهاراً من الداخل، أتماسك فقط أمام زوجتي وأولادي والناس الذين حولي.

هل وجودهم في هذه البرحة المكشوفة خطر عليهم؟ إن شاءت الأقدار والصدف القاسية وسقطت قذيفة ها هنا بينهم فستحصد الكثير من الأرواح، ولكنّها غريزة التجمّع التي غالباً ما تتحرّك في بني البشر عندما تدلّهم عليهم المصائب والخطوب. كنت أريد أن أقول لهم إن تجمّعهم ها هنا غير مجدٍ وخطرٌ أيضاً، ولكني التزمت الصمت، إذا شاء القدر أن نموت فلنمت معاً، أو مثلما يقولون الموت مع الجماعة أرحم.

كان المؤذّن ياسين يؤذن الأذان تلو الأذان فيؤجّج في النفوس الأمل بربّ العالمين. أمل أن يتكفّلنا الله برحمته من فوق سبع سماوات. أرقب طفلاً رضيعاً يلتقم ثدي أمّه التي انزوت به في مكان قصيّ عن الناس كانت مستكينة تنظر إليه وقد تلاشت عن وجهها تلك النظرات التي خالطها الخوف والرعب في الباقين، تساءلت بيني وبين نفسي: هل سيسمح الله بأن يؤذى هذا الطفل الآمن في حضن أمّه؟ هل سيؤخذ بجريرة غيره من الكبار الذين يرتكبون ما يستوجب العقوبات الإلهية؟

أرى في وجوه الرجال المتحلقين حول أولادهم ونسائهم غضباً مخلوطاً بالخوف من الموت؛ أن يموت أطفالهم ونساؤهم أمام أعينهم وهم لا يستطيعون فعل أيّ شيء من شأنه أن يحميهم من خطر يحيق بهم ولا يعرفون سببه ولا من أين يأتي، يتبادلون النظرات الحائرة؛ نظرات حيوان مفترس تمّ اصطياده في التوّ واللحظة وهم يحاولون حشره في قفص من حديد. مررت في حياتي بانكسارات وخيبات أمل كثيرة ولكني لم أجد أصعب من رؤية رجل يقف عاجزاً أمام خطر داهم لا يستطيع دفعه عن نفسه وعمّن يحبّ.

وكما هو الإلهام في لحظات فقدان الأمل سمعنا صوتاً من الخلف لم أستطع أن أتبيّنه أوّل الأمر، كان صوتاً جهورياً حادّ النبرات صاح في الناس:

– اذهبوا إلى بيت الله، اذهبوا إلى مكّة، لن يصيبكم شيء بحول الله في بلده المحرّم، ستنالون حماية إلهية فالله لن يسمح بأن يؤذى بيته المحرّم ومن يلوذ به.

وكأنما الناس كانوا بانتظار مثل هذه الصرخة، فقد بدأ الحشد يتحرّك: من كان جالساً قام ومن أخذته سِنة من نوم انتبه، ومن نام له صبيّ أو فتاة بدأ بإيقاظه من نومه، ومن كان يبكي في صمت من الكبار كفّ عن البكاء...

تحرّكوا من مكانهم في تلك البرحة وصوت ياسين المؤذن يسوطهم سوطاً من الخلف:

– اذهبوا إلى مكّة. هيّا ماذا تنتظرون. لن يخيّب الله أملكم. سيكرم وفادتكم ويحميكم...

كاد يستمرّ في خطبته إلّا أنّ قذيفة مرّت من فوق الرؤوس فسكت. همد الناس وهم يرقبونها وهي تخترق ظلام الليل وهدأة السكون قبل أن يصدر منها ذلك الدويّ الذي يصمّ الآذان فتعقبها كمّية هائلة من النيران. تتصاعد ألسنة اللهب منها في مكان غير بعيد عن البرحة. وجم الناس وتصايح الأطفال وبكت النساء وتسمّر الرجال في أماكنهم فتوقفوا عن المسير، ولكن لم يكن ياسين المؤذن ليتركهم فقد عاد يصرخ فيهم:

– إلى مكّة يا عباد الله. لا يصيبنّكم الخوف، استمرّوا في سيركم...

بدأ ياسين كقائد يحثّ جيشه على معركة وشيكة الحدوث في تلك الليلة حيث بدأ بالتهليل والتكبير، شاركه الرجال المأخوذون بحماسة يقطعها مرور القذائف فوق الرؤوس وصوت ارتطامها بمكان ما، يسكتون قليلاً ثمّ يستأنفون التهليل والتكبير...

هل أدرك سكّان جدّة في تلك اللحظة سبب هذا الغضب المدمّر والهائل الذي قضَّ مضاجعهم وأخرجهم من بيوتهم هذه الليلة؟

كنت أسأل نفسي هذا السؤال ولا أدري هل يعرفون سبب هذا القصف، ومن أين يأتي؟

أكاد أجزم بأنّ من يعرف سبب هذا البلاء المحيق بنا هم كلّ من أسهم وشارك في المذبحة التي وقعت قبل شهر من الآن، وربما لا يعرف البعض منهم ممّن أسهم في تلك الأحداث سبباً لكل هذا الجحيم.

حتّى أنا أيضاً أنسى في غمرة هذه الأحداث وهذا الجنون الذي لا حدّ له سبباً مقنعاً في تشريد هؤلاء الناس في جوف الظلام وتعكير صفو أمنهم في ليلة ليلاء لا تشبه مثيلاتها.

الناس يتحرّكون ككتلة واحدة وقد عمّ الظلام الدامس وتربّع الخوف من المجهول في النفوس.

بدأنا بالتحرّك نحو مكّة، وبعد قليل كنّا نرى أمامنا هذا المشهد: امراة تسير مقبلة نحونا، كانت تسير وتتعثر حيناً، تسقط وتقوم وتواصل سيرها وما إن اقتربت حتّى سمعت صوتاً ينادي باسمي أخرجني من لجّة الأفكار:

– أين صالح جوهر؟

صالح جوهر. صالح جوهر. تناقلت الألسنة اسمي حتى وصل صداها إليّ، انتبهت وعدت إلى رشدي لأجد تلك المرأة تقف أمامي مباشرة.

كانت تلهث وقد اتّسعت عيناها من الذهول وهي تقلّب بصرها في ذلك الحشد الكبير من الناس وهم يسيرون معاً. كانت تقف أمامي وأنا أحاول أن أسترجع هذا الوجه المألوف. هل تنسينا المصائب والأهوال حتّى تلك الوجوه المعروفة لنا؟

– نعم أنا صالح جوهر، أيّ خدمة أستطيع أن أسديها لك؟

بعد التحديق في وجهها على ضوء البيوت المشتعلة بالحرائق بسبب القصف عرفت من تكون. كانت أمّ فتنة، ولكن ادّعيت عدم معرفتي بها خوفاً من انكشاف السرّ الذي كان يربطنا معاً...

فتنة

إن كان لي مطلب أخير وأمنية وحيدة تحققها يا الله فاجعلني فداءً لمنصور...

الظلام تشتدّ قبضته، وتلك الأصوات الهائلة تمزّق سكونه وتنتهك خصوصيته. ارحمنا يا ربّ. قلبي موزّع ومشتّت بين أمّي التي خرجت في مثل هذه الظرف غير المؤاتي، وحبيب جريح ممدّد لا يقوى على الحركة. أرقبه بعينين ترجوان له العودة إلى سابق عهده ضاجّاً بالحيويّة ومتسربلاً برجولة طالما أسرتني.

أين أنتِ يا أمّاه؟

ليتك لم تتركيني وحيدة أغالب خوفي عليك وتوتّري من أن يصيبك مكروه. أصوات تلك الانفجارات المدوّية خالطها شغب وبكاء وصراخ. أصوات متداخلة يبدو أنّها لأناس أصابهم أذى. ليتك يا منصور تستيقظ فنخرج من هذا الجحيم ونهرب إلى حيث لا يرانا أحد. لكنّها الأمنيات وستبقى أمنيات، الجسد خامد ومكبّل والروح تصهل تريد الخروج والانعتاق.

ليتني أعرف ما الذي يحدث حتّى تكون لخطواتي أرض صلدة توصلني إلى حيث يكون الأمان.

لم أعهد قلبي وهو يخفق بوجل وقدميّ مرتبكتين وعقلي مشتّتاً لهذه الدرجة...

عندما ترفّ إحدى عينيّ رغماً عنّي أدرك أنّ هناك أمراً جللاً يُحاك وتُنسج خيوطه بالعلن أو بالسرّ. يكفيني ما لقيت من الدسائس والمكر والوجوه القبيحة والحظّ العاثر...

من خلال الرواشين وفي مجال الرؤية المتاح أمامي أرى نيراناً هائلة تلتهم بيوتاً مجاورة لبيتي، وأرى لمعاناً يضيء السماء لبرهة قبل أن يستحيل إلى صوت يهزّ القلوب ويبعثر تماسك الجسد...

يا أمّنا حوّاء، يا أمّ البشر، أبعدي عنّا الشرور والدسائس والمكر. أنقذينا من براثن عدوّ لا يرحم.

أمّي تأخّرت عودتها، وقلبي لم يعد ينبض بل يرجف ويدق كطبول حرب وشيكة الحدوث.

أصوات متداخلة تعبر من أسفل البيت. أهرع إلى الروشان لأرى منظراً غريباً لم يسبق لي رؤيته: نساء يبكين وأطفال يصرخون وهم معلقون بثياب آبائهم وأمّهاتهم، ورجال يسيرون خطوة للأمام وخطوة للوراء يرفعون رؤوسهم إلى السماء ويستحثّون الآخرين على السير. إلى أين يذهبون؟

أسمع من خلال حديثهم المتقطع كلاماً لم أسمعه من قبل: سفينة، قصف، مدافع، الإنكليز...

الإنكليز مرّة أخرى. قلبي يحدّثني بأنّ كلّ هذه المصائب كانت بسبب هؤلاء الإنكليز، أصابتنا لعنة بوجودهم هنا بيننا. هنا بسببهم يرقد منصور، ولا أدري هل هو في عداد الأحياء أو الأموات...

بسببهم اختلّ ميزان الدعة والسكينة في هذه المدينة، ما إن وطئت أقدامهم هنا حتّى عرفنا الدم والقتل والمصائب التي تجرّ مصائب أكبر وأعظم..

مرّ ذلك العدد من الناس الذين عبروا بيتي وحدث دويّ هائل أعقبه صراخ يصمّ الآذان، ولكنّه ضاع في ضخامة ذلك الانفجار، اهتزّ البيت واهتزّ قلبي، سقطت بعض الأواني من مكانها وانسكب ماء الزير. انكمشت وتقوقعت من الخوف على نفسي وقلبي يحدّثني بأمور تحاك في الخفاء لهذا البلد وأهله. ما يحدث الآن يبدو أنه خارج حدود الاحتمال والصبر...

لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا الأمر يحدث من قبل. تنتابني رغبة في الخروج لكي أرى بنفسي ماذا يحدث. كنت أتأرجح بين البقاء والخروج. أصعب ما يواجهني خطر لا أعرف سببه أو مصدره. خوف يداهمني بلا توقّع فيدمي روحي ويعطّل رتابة سير الأشياء في خطها المعلوم والمرسوم.

وأخيراً تغلّب فضولي على خوفي فقرّرت الخروج وليتني لم أخرج!

لم أخرج من الباب الرئيسي للبيت ولكنّي تعمّدت الخروج من باب آخر يُستخدم لخروج النساء عندما يزدحم البيت بالرجال، كان يقع في الجهة الاخرى من البيت. باب صغير يقف في بداية زقاق قصير وموحش وما إن يبلغ نهايته حتى يبدأ زقاق آخر يلتفّ من خلف البيوت. ابتعدت قليلاً عن الدار. كان الظلام موحشاً وساتراً أيضاً. قطعت مسافة لا بأس بها مشياً على قدميّ الوجلتين زقاقين أو ثلاثة، وعندما أكملت تلك الدورة وأصبحت أقف في تلك الساحات التي تفصل بين البيوت توقفت. رأيت في هذا المحيط البسيط ما لم يسبق لي رؤيته من قبل. كانت المناظر المؤلمة والسيّئة تزداد حدتها كلّما ابتعدت أكثر وأكثر عن محيط حارتي...

الموت يخيّم بظلاله على المكان. على نيران مشتعلة تصدر من بيوت مهدّمة رأيت بأمّ عيني ما أوجع قلبي وجعل الدمع يسحّ من عينيّ رغماً عنّي: بيوت أعرف أصحابها انهارت أجزاء كبيرة منها وبعضها تشتعل فيه النيران. رأيت كلّ هذا في محيط بسيط من بيوت واقعة في نفس الحارة التي أسكن فيها. جلت ببصري هنا وهناك فلم تقع عيناي إلّا على خراب ودمار وموت ودموع وصراخ...

أيّ ليل عسير هذا؟

أصوات هائلة أسمعها من قريب فيهزّ دويّها الأرض وجدران البيوت وتوجع القلب بجبروتها وقوّتها. صراخ متداخل يعقب حدوث هذه الانفجارات. ما الذي حدث لجدّة؟

هل ستطول هذه المحنة؟ أكثر ما يصيبني بالأسى هو صراخ الأطفال المتعالي الذي يقطع نياط القلب. سمعت رجلاً يقول لصاحبه وهما يمرّان من أمامي مباشرة والهلع بادٍ على ملامحهما: إن جدّة تتعرّض للقصف من جهة البحر.

ماذا يعني قصف؟ هل هو من فعل البشر أم هو عذاب مصبوب على هذه المدينة وأهلها؟

كلّ هذه الأسئلة تحرقني وتهزمني وتحطم تماسكي وتبعثر سكينة نفسي...

تعذيب بالنار! لا يفعل هذه الأفعال الشريرة إلا الشياطين والعفاريت التي تسعد بالدمار لكي تعيش في الخرائب والبيوت المهدمة الخالية من الناس وصراخ الأطفال الفرحين وآهات النساء في الليالي الباردة...

خطواتي تلك آتت ثمارها المرّة سريعاً فقد زادتني غمّاً على غمّ. لو لم تلقِ الأقدار بمنصور في طريقي لاستقبلت الموت بصدر رحب، ولكنّ سنوات عمري لم تعد ملكاً يخصّني وحدي بل هي في يد منصور وحده يفعل بها ما يشاء...

عدت على عجل من حيث أتيت وأنا أسفح الدمع والبكاء تتصاعد وتيرته حتى أصبح مسموعاً.

يبدو أن جدّة تذوي كنجمة في عتمة أبديّة. ما ألمّ بها من مصائب يفيض عن حاجتها. ارتدت أسمالاً بالية بعد الحلل الزاهية. كتم على أنفاسها الموت بعدما كانت تضجّ بالحياة. هذه المدينة تشبهني كثيراً، ما إن تلوح بوادر الفرح حتى تقبل جحافل الحزن والموت والدمار. الفرحة هنا مغتصبة تومض كلمعة السراب في صحراء موحشة.

وصلت إلى البيت بصعوبة وتقيّأت رغماً عنّي في إحدى غرف المؤخر.

استلقيت على الأرض فلم أعد أقوى على الحركة وقدماي تصطكّان، أشعر بالأشياء حولي مائعة سائلة لا ملامح مفهومة لها. فجأة تذكّرت أمّي فازدادت حالتي سوءاً، أمّي نافذتي الوحيدة على هذا العالم، السند والمعين في زمن كثر فيه اللئام واللصوص، لصوص المال والأجساد والعقول وسالبو الحياة من أصحابها دون حق. أين هي الآن؟ ليتها تعود سالمة ممّا رأيته من أهوال.

نامق باشا

أردت ان أحسم كلّ الأمور العالقة بهذه المصيبية في جلسة واحدة. لا أضمن تقلّب أمزجة هؤلاء الناس، دائماً ما تغلبهم عواطفهم. لنضع النقاط على الحروف هنا وفوراً.

ما إن لفظ ذلك الاجتماع الهادر أنفاسه حتّى تكوّنت النواة الأولى لوفدٍ شُكّل لمقابلة ذلك القبطان الإنكليزي المتمترس في سفينته والذي أراق دماءً بريئة لأناس لا ناقة لهم ولا جمل، يرمي بقذائفه هنا وهناك غير عابئ بما سوف يجرّه هذا العمل الأحمق من ويلات على الجميع. من سيضمن أن لا تحدث أعمال كارثية أخرى، ليس هناك أسهل من أن يقوم شخص أو مجموعة أشخاص فاقدي الأمل من كلّ شيء بتدمير الآخرين من أعداء وحتّى تدمير أنفسهم، إذ ليس لديهم ما يخسرونه. في مثل هذه الحالات يكونون أشبه ببرميل بارود معرّض للانفجار في أيّ وقت. الضربة التي تأتي من شخص فاقد الأمل في الحياة ولؤم البشر في الغالب تكون موجعة إن لم تكن مميتة بحدّ ذاتها.

ثمّ إن جدّة الآن في وضع خطير. ربما قامت رؤوس الفتن من رقدتها التي تشبه رقدة ذئب قلق. ربّما انتشرت جرائم السلب والنهب وتصفية الحسابات. أيّ مكان تغيب فيه السلطة يكون مكاناً مفتوح لكلّ الاحتمالات السيّئة. أنا رجل عسكري أدرك تمام الإدراك أن هناك فئات من البشر تنتظر بفارغ الصبر اقتناص مثل هذه الفرص واهتبالها وعدم التفريط فيها.

في وقت سابق من اليوم جاءني الوكيل إبراهيم آغا بخبر أثلج صدري فقد أخبرني أنّ الباب العالي أرسل أحد قوّاده ويُدعى إسماعيل باشا لحلّ هذه الكارثة وهو حالياً في مدينة جدّة. أرسل إسماعيل باشا في وقت لاحق أحد رجاله يطلب مني موافاته هناك في جدّة في أسرع وقت ممكن، فشعرت بنوع من الارتياح.

جلست ذلك المساء أقلّب وأفتّش في خلفيّات الأسماء المرشحة لمرافقتي لمقابلة قبطان السفينة البريطانية حتى نستطيع إيقاف حمام الدم المراق في أزقّة جدّة المنكوبة وشوارعها.

تلك الليلة أفزعتني أحلام موجعة، نهضت من نومي عدّة مرّات وجسدي مبلول بالعرق. هذه هي عادتي عندما يقلقني أمر ملحّ أو أقف على طرفي نقيض بين آراء متضاربة غير واضحة الرؤية. أكثر ما أفزعني في كوابيسي تلك هو أنني رأيت في ما يرى النائم أن بيتي الريفي في طرابزون يحترق. كانت ألسنة النيران تلتهمه وأنا بداخله كفأر محبوس في مصيدة يتطلّع للخروج. يبدو أن تقاعدي

سيكون بعد أهوال ومصاعب ستمرّ بي. لا أريد ذلك أن يحدث البتّة، أريد أن أختم حياتي العسكرية بهدوء وبدون جلبة ولكن يبدو أن ذلك أصبح حلماً بعيد المنال.

آمل أن نئد هذه الفتنة بمساعدة أعضاء الوفد المرافق المتّجه صباح الغد إلى جدّة.

كان بإمكاني حسم هذا الأمر باكراً بطريقة أو بأخرى بغضّ النظر عن مدى عدالتها من عدمه، ولكن ليس لديّ سلطات وصلاحيّات تخوّلني فعل ذلك. لا بدّ من موافقة الباب العالي على ما سيتمّ إقراره. هناك تراتبية في إصدار القرار قبل تنفيذه وأنا لا أملكها على الإطلاق. كل ما أملكه هو الانتظار لا غير. ولكن إلى متى؟

الناس صدورهم تغلي وتمتلئ بالغيظ والحنق عندما يرون بيوتهم تتهدّم على رؤوسهم، إضافة إلى الموت والدمار والتشريد العشوائي الذي يبطش بهم. يقولون هنا إن الخير يخصّ والشرّ يعمّ. ما أصدق هذه المقولة بالفعل.

في ذلك اللقاء رأيت في عيون أهل جدّة من الأعيان والتجّار وحتى الناس البسطاء، كلّ تقلبات النفس البشرية من غضب وخوف وأمل ورجاء... كلّ له أمر يهمّه: التاجر تهمّه الأموال، والوجيه يهمّه أن لا تهتزّ صورته ومكانته لدى الناس، والرجل العادي يهمّه أن لا ينقطع حبل رزقه الواهن والمهترئ، ولكنّهم كلهم كانوا لا يتوقعون أن يموتوا تحت أنقاض بيوتهم بسبب قصف غادر. لم يدر ذلك في خلدهم على الإطلاق. للموت طعم حارق حينما يأتي من حيث لا يُتوقّع حدوثه. لقد تعوّدوا، وخصوصاً الأعيان، أن يموت الواحد منهم على فراش وثير وحوله الأبناء والزوجات والجواري الحبشيّات والأولاد والبنات المتطلعون إلى الميراث إن كان المحتضر غنيّاً، وإلى البؤس والشقاء المستديم إن كان المحتضر فقيراً. يعشقون الحياة ولا يبالون بالموت هنا في هذه الديار. إما أن يكون الشخص حيّاً كما يجب أن تكون الحياة، أو ميتاً وهو على قيد الحياة. قد يعيش المرء هنا ولكنّه يتسربل و"يتشعلق" بحياة بئيسة عنوانها الفقر والحاجة والعوز...

لماذا تأخّر الردّ كلّ هذا الوقت من الباب العالي في حلّ هذه المصيبة؟ خيوطها تتشابك كلّ يوم ولا حلّ أو أمل يلوح من بعيد أو قريب. لا شيء سيمسح كلّ هذه العذابات المتّصلة والفجر الذي لن يوشك على الانبلاج. هل سيستطيع إسماعيل باشا معالجة كلّ هذه الجروح النازفة؟ وجدت نفسي أدعو له ولي أيضاً أن تُكلّل كلّ جهودنا بالنجاح في أسرع وقت.

لكن من جهة أخرى فالنوايا الحسنة لن تحلّ هذه المشكلة ولن تحلها أيضاً تلك الدماء المهدورة عبثاً في جدّة المنكوبة، فلقد أراقتها قلوب صلدة لا تتورّع عن اقتراف الآثام تلو الآثام.

كان من المقرّر أن نسافر غداً إلى جدّة. أسافر بمعيّة أعضاء الوفد الذين تمّت تسميتهم إبان ذلك

الاجتماع المحموم. كان الوفد مكوّناً من شيخ العلماء الشيخ جمال شيخ عمرو، وجمع من العلماء على رأسهم الشيخ جمال النشار والشيخ محمد جاد الله والشيخ صديق كمال وشيخ السادة السيد محمد بن إسحاق بن عقيل. كانت تلك الأسماء مكتوبة أمامي وأنا أحاول تذكّر الوجوه التي تخصّ هذه الأسماء ولكن عبثاً...

اتفقنا على أن نلتقي غداً. سنصلّي صلاة الفجر معاً في صحن الحرم من جهة مقام إبراهيم وسنصلي أيضاً ركعتين وندعو الله جميعاً أن يوفّق هذه الفئة في إيقاف تلك الآلة الجهنّمية التي ما زالت تصبّ حمم لهبها على رؤوس الناس من أهل جدّة المساكين.

زارتني تلك الأحلام المرعبة أثناء نومي كما هي العادة منذ حدوث هذه المشكلة. يبدو أن رحيلي من هنا قد أزف وقته؛ نعم سأرحل من هنا لأختم حياتي العسكرية الحافلة بالتنقلات من مكان إلى مكان. لقد خدمت الدولة العليّة سنوات طويلة، وقد حان الوقت لكي أستريح.

أدّيت صلاة الفجر بمعيّة أعضاء الوفد. في قسمات وجوههم همّ مكبوت يطفح من خلال نظراتهم الزائغة في غبشة ذلك الفجر، كانوا أشبه ما يكونون بجنود في مهمّة غير مأمونة العواقب قد تكلّفهم حياتهم، وكنت أسأل نفسي: هل أكون أنا أقلّ منهم في هذا الكمّ من المشاعر الجيّاشة؟

لا. أجبت معزّياً نفسي – كان هناك شعور ملحّ كثيراً ما يتقاذفني هنا وهناك لكوني مجرّد والٍ وشخص غريب عن هذه الديار وأهلها – لم أكن أقلّ منهم في أخذ هذا الأمر الخطير مأخذ الجدّ. هذه المشكلة الطارئة كشفت لي جوانب كثيرة كانت خافية عليّ في سنوات وجودي والياً لأقدس بقعة على وجه الأرض، من أهمّها أنّ ذلك الفاصل الرقيق والشفّاف الذي يفصل بيننا وبين هؤلاء القوم تحت مسمّى الأخوّة في الدين والإسلام وما إلى ذلك من هذه العبارات الفضفاضة، من الصعب تجاوزه فضلاً عن تحطيمه أو كسره. لا أعني بذلك أننا نفوقهم ذكاءً وفطنة وقدرة. لا؛ ليس كذلك ولكنّهم دائماً ما يرسلون لنا إشارات مبطّنة بأنّنا مجرّد دخلاء وسنغادر ديارهم عاجلاً أو آجلاً، وأنّ لوجودنا هنا حكمة إلهية وأقداراً صاغها الله جل وعلا وقيّضنا لحماية مقدّساته التي ارتضاها لعباده من فوق سبع سماوات. لذا كان من الضروري أن يتعايشوا معنا ولكن بدون أن يسمحوا لنا بالانصهار معهم في بوتقة واحدة. لهم أسلوب حياة يميّزهم عن غيرهم من البشر. شعب تكافلي بالدرجة الأولى وعنصري في نفس الوقت. يعتزّ بأرومته وأصوله. كلّ هذه الدهاليز كنت أكتشفها يوماً وراء يوم على مهل وبصبر...

كنت أعيش بين ظهرانيهم وأنا ممسك العصا من المنتصف بتوازن مرهف جعلني أسير بسفينتي وسط أمواج الاعتزاز بالحسب والنسب والأصول النقيّة من جهة ومن الجهة الأخرى الدين والصلاح

والتقوى. كلّ هذه الحواجز هي حواجز هشّة سرعان ما تُكسر. وقتئذ تثور ثائرتهم وتصل إلى مدى لا يعلم به سوى الله العليم.

هناك في جدّة تنقلب الموازين؛ فالمصالح الشخصية تأتي في المقدّمة. جدّة مدينة بحريّة اكتسبت من البحر خصائصه المميّزة له: المدّ والجزر، الأخذ والعطاء، الاحتكاك بشعوب مختلفة من خلال السفن الذاهبة والآيبة التي تلقي بمختلف أنواع السحن والوجوه وتتحدّث بمختلف أنواع اللغات ولها ميول واتّجاهات مختلفة، ولكنّها سرعان ما تتلاشى تحت وطأة المصالح البحتة.

لماذا انتابتني كلّ هذه المشاعر الفلسفيّة الآن؟

الوقت لا يتّسع لمثل هذه الترّهات، فهناك ما هو أهمّ. أجول ببصري في وجوه أعضاء الوفد المنتخب لدرء الأذى عن مدينة طالما جعلتني أفكّر مليّاً في جمالها الخافي عن العيون الساهية وأسرارها الغائبة خلف كتل من ضباب كثيف وليل حالك السواد. عرفت جدّة واكتشفت خفاياها في تلك الليالي المقمرة حينما أقف على الشاطئ أرقب سورها المحيط بها وبيوتها ومآذنها المشرئبّة في سماء كساها لون فضّي يأخذ بمجامع القلوب. رواشينها تبدو كحوريّات البحر التي تتلصّص على ساكني تلك البيوت التي بُنيت بذوق مرهف وإحساس عالٍ بجمال المكان وتفرّده.

وهناك على مسافة قليلة تربض سفينة ألقت بما في جوفها على هذه المدينة التي ترحّب بالكلّ بدون استثناء. سفينة على وشك الرحيل في أيّ لحظة ولكنّها لن ترحل حتّى تترك في سويداء قلوب من درجت خطواته في هذه المدينة الساحرة حبّاً وشوقاً وذكرى لا تعرف هل هي ستتركك في القريب العاجل أم ستبقى معك طول العمر...

منذ الهجوم البرتغالي على جدّة في عام **1516**م وهذه المدينة تبدو عصيّة على الطامعين والمغامرين. كأنّي بقائد الأسطول البرتغالي "لوبو سوارس" وهو واقف في عُرض البحر يرسل نظراته الكسيرة نحو تخوم مدينة مفعمة بالأوهام والأحلام تقف على حافة بحر متلاطم الأمواج. يقف وقد اكتنفته أحلام اليقظة فيغادرها مهزوماً كسيفَ البال بعد مقاومة باسلة جعلتها تنعم بالسلام أكثر من ثلاثة قرون تحت كنف الدولة العليّة، حتى قيّض الله لها رجلاً متوحّشاً يقصفها من البحر غير آبهٍ بالنواميس البشريّة التي تقوم على عدم العبث بحياة الآخرين واحترام حقّ الإنسان في الحياة وعدم أخذ الأبرياء بجريرة المذنبين، ولكن...

الموكب يستعدّ للسفر صوب جدّة. نور الشمس يبزغ عبر تلك الجبال التي تحيط ببيت الله المقدّس. جبال شمّ تبدو في ذلك الشروق كأساطير متجسّدة وبارزة للعيان تحمي البيت العتيق بفيض إلهي من نور يشيع في النفوس الخشية والرهبة.

ربّما للمرّة العشرين كنت أنتقل ببصري في تلك الوجوه العابسة لأعضاء الوفد. كانوا ككتلة واحدة أنا بمعزلٍ عنها. لقد تمّ إقصائي! يتحدّثون معاً ويتركونني أحدّث نفسي وجنودي فقط.

في الطريق المكتظّ كعادته في مثل هذا الوقت من كلّ عام، كانت الحركة كثيفة ولكنّها كانت في الاتّجاه المعاكس. كانت تلك الأرتال البشريّة تتحرّك نحو جدّة برغم كلّ التحذيرات التي طلبت من جنودي إبلاغهم بها، فالمدينة تئنّ تحت وطأة قصف قد يُستأنف في لحظة وبدون سابق إنذار. كلّ شخص سيكون مسؤولاً عن سلامته الشخصيّة عندما يقرّر الذهاب إلى جدّة في مثل هذه الظروف العصيبة؛ وكأنّني كنت أصرخ في أرض يباب؛ قرّر الكثير من الحجّاج والفضوليين والمشرّدين من بيوتهم في جدّة مرافقتنا إلى هناك غير آبهين بالنصائح المسداة لهم. كم هم مساكين، يحسَبون أنّ هذه القوّة العسكرية التي ترافقنا قادرة على إزالة النير الواقع على جدّة وأهلها. نحن الحلقة الأضعف ما دمنا متوجّهين للتفاوض لا للقتال. لكن ها هو الفرج قد جاء. إسماعيل باشا بدا في تلك اللحظات الأمل الأخير الذي يلوح في الأفق لحلّ هذه الكارثة.

مع اقترابنا من جدّة راعني تكاثر الناس من حولنا. من المؤكّد أنّهم قد سمعوا بقدومنا. كانوا يسيرون معنا، من خلفنا ومن أمام الجنود. أربكني بالفعل عددهم الكبير. أتمنّى أن لا يكون معنى هذا لدى ذلك القبطان الذي يقصف المدينة تجييش الجيوش لتحرير جدّة من براثنه فيشدّد من قبضته الحديدية عليها. أشعر كأنّ له عيوناً هنا تنقل له ما يحدث. لا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم. وجدت نفسي أكبح غضبي بالإكثار من الحوقلة والكثير من الاستعاذات التي لفتت أنظار أعضاء الوفد لكثرتها بمناسبة وغير مناسبة. كانوا يتحدّثون بألفاظ وجمل لا أعرف معناها وإشارات تبدو مفهومة لديهم. أحاول ان أكتم في صدري غضباً مكبوتاً تجاههم. آذاني بالفعل تحييدهم لي. كنت كجسم غريب في وسطهم، ينطق أحدهم كلمة فيتضاحكون بمنأى عنّي، بل لقد وصلت بهم الحال إلى أن تندّرهم قد طال حتّى شنبي الأشقر الكثّ الذي كان بالطبع غريباً بلونه وسط شوارب سوداء كثّة تلتصق بوجوههم. أعرف ذلك، فقد سمعتهم يتحدّثون بمثل هذا الأمر خلال إحدى الاستراحات التي أنخنا فيها الجمال والخيول والحمير والبغال في منتصف الطريق، وعندما لمحوني صمتوا وأخذوا ينكثون بعصيّهم الحصى والرمل أسفل أقدامهم.

كنت أربأ بنفسي عن تلك الصغائر، ولكن ما إن شعرت بالاقتراب من جدّة حتّى أخذت نفسي تجنح إلى المشاكسة والثورة لأتفه الأسباب. كان غضبي يتصاعد بمجرّد رؤيتي تلك الجموع الهاربة من القصف العنيف من سكّان جدّة. آلمني بالفعل منظر الأطفال الصغار ببكائهم والفزع المرسوم على وجوههم الغضّة، وهؤلاء النسوة المنتحبات والرجال العاجزين عن فعل أيّ شيء تجاه توفير الحماية

لأنفسهم وصغارهم. أدرك أنّ للحروب جوانب مخيفة وكريهة فيها من القسوة الشيء الكثير وهذا بالضبط ما لمحته على وجه تلك الفتاة التي أخذت بلجام حصاني، كانت تتكلّم وقد اختلطت دموعها ببقايا كحل بان من خلال خيط رفيع على خدّ أسيل، حاول الجنود المحيطون بي منعها من الوصول إليّ ولكنّي أشرت لهم بأن يسمحوا لها بالاقتراب. كانت تتكلّم أو تبكي بمعنى أصحّ، غرقت تماماً في دقّة ملامحها الحلوة. دائماً ما تثور أحاسيس مبهمة في نفسي عندما تبكي امرأة جميلة أمامي. أشعر بضعف وخنوع واستعداد لفعل أيّ شيء في سبيل إعادة البسمة إلى وجهها الصبوح الباكي.

من خلال تلك الكلمات الغارقة في لهجة محلّية صرفة والتي فهمت منها القليل، وبعد أن ترجم لي بعض أعضاء الوفد معانيها بكلمات قليلة، أدركت أنها فقدت الزوج وطفلة رضيعة بعد أن انهار بيتهم بسبب قذيفة طائشة، فلقي الزوج والرضيعة حتفهما على الفور ونجت هي من الموت.

كم سيكون الموت قاسياً وفظّاً لو أفقد هذه الحسناء حياتها. كانت تتكلم بسرعة فينحسر لثامها الواهي عن وجهها الفاتن على الرغم عنها، فألمح وجهاً صبيحاً ربّما لن تجود بمثله هذه الصحاري مرّة أخرى. لو كانت الظروف غير هذه الظروف لاصطحبتها إلى بيتي الريفي في طرابزون وأمضيت معها سنوات عمري الباقية، حتى لو أدّى هذا إلى اختطافها أو أخذها عنوة ولكن... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... ما هذه التفاهات التي أتفوّه بها؟ الوقت غير مناسب لمثل هذه الأحلام الدبقة. لنؤجّل كلّ هذه الأحلام الآن، فهناك ما هو أهمّ...

بالكاد صرفت نظري عن تلك الحسناء. يا الله، كم هو منظر محزن رؤية امرأة جميلة تنتحب. الأمنيات المستحيلة تنبثق من خلال الخوف والوجل فتبدو كسماء بعيدة لا تستطيع السواعد الممدودة لمسها. أطرقت برأسي إلى الأرض مفكّراً حائراً وعاجزاً عن فعل أيّ شيء...

وبالرغم من ذلك، ما إن اقتربنا من جدّة حتّى كانت المناظر المؤسفة تزداد سوءاً على سوء. مناظر تدمي القلب وتجعل من النفوس جمراً لا تخمد جذوته. تحت سفح كلّ جبل أو ظلّ شجرة انتشرت أعداد كبيرة من الناس الهاربين من جحيم القصف، بعضهم افترش الأرض والتحف السماء. والبعض الآخر لاذ بالصخور الكبيرة وقد اتّخذ منها ملجأً، لا يدري هل ستطول أم تقصر به هذه الحال المؤلمة. كنت أتساءل بيني وبين نفسي ألم يتناهَ إلى مسامعهم أنّ القصف على جدّة قد توقف بسبب وصول إسماعيل باشا في الوقت الملائم؟ لماذا مكثوا هنا ولم يعودوا إلى بيوتهم؟

كانت الجبال المتاخمة لجدّة أقلّ حجماً من تلك القريبة من مكّة، ما أتاح لنا الفرصة لكي نحظى بمنظر بانورامي لجدّة عندما كان الطريق يحتّم علينا تسلّق جبيل أو هضبة من الصخور والرمال.

ومع آخر خطوة لتخطينا تلك الجبال الصغيرة الحجم عبر دروب تضيق في مكان وتتّسع في مكان

آخر، كان المنظر يجلّ عن الوصف، ليس كما كنت أعهده من قبل من منظر يأخذ بمجامع القلوب كما هو الأمر منذ شهر تقريباً. ما أراه الآن كان عن مدينة تبدو في طور الاحتضار والموت. تتصاعد منها خيوط من آهات وأنين يطاول عنان السماء. كانت تبدو كجثّة متفسخة وملقاة على قارعة الطريق. أيّ أفق دامٍ كان يمتدّ أمامي؟

قرص الشمس يقاوم لكي يبقى في سماء ملبّدة بسحب لونها أرجواني وأحمر قانٍ كدم ساح على صفحة السماء فتبعثر هنا وهناك. من هنا رأيت المآذن تشمخ كعهدي بها أبداً؛ تشقّ الفضاء غير عابئة بالدمار. كانت كدموع ساقطة متجمّدة ترتعش وتقاوم الاندثار. التفتُّ إلى أعضاء الوفد؛ كانوا يسرحون بأبصارهم إلى أماكن عدّة، إلى حيث الفراغ وجلاميد الصخور وبقايا المشرّدين المنتشرين في شعاب الجبال. لك الله يا جدّة، يبدو أنّكِ عشت مراحل انتقام عبث بكِ. لقد تجاوزت بذلك كلّ مفردات الفاجعة والمصيبة...

لحظة صعودي هذا الجبيل الصغير لا تشبه البتّة لحظة نزولي منه. انكفأت على نفسي ألجم لساني أمام هذا الصخب العاتي وذلك الطوفان من الغضب والغيظ والحسرة. كنت أشعر كأنّني أخطو داخل قبو معتم تختلط فيه الرؤى ولا سبيل فيه للخروج.

أسمع وقع سنابك الخيل تصطكّ بالأحجار الصغيرة فأشعر بها كدويّ يأتي من قعر عميق وبعيد الأغوار، تعطّلت حواسّي، ولولا بقيّة من تماسك لهويت من فوق حصاني. كنت لحظتها أفكّر في ما سيكون عليه الوضع هناك في جدّة عن قرب، لا بدّ من أن أعترف بأن الأمر فوق كلّ احتمال وصبر. كنّا نسير وقد تلاشت الكلمات منّا جميعاً، حتى لم نعد نسمع سوى آهات وزمجرة تصدر من هنا أو هناك. التفتُّ إلى من يجاورني من أعضاء الوفد فوجدته قد انتقل فجأة من طور إلى طور. ملامح وجهه تجمّدت وتخشّب جسده على حصانه فبدا كتمثال قُدّ من صخرة صمّاء. اختفت الهمسات وتلك المداولات الخفيضة الصوت وتلك الضحكات التي تشبه صهيل الخيل.

ما زلت لا أفهم هؤلاء القوم؛ ينتقلون من النقيض إلى النقيض وفي لمح البصر وبمهارة أحسدهم عليها. اكتست ملامحهم بوادر من صرامة وقسوة وعيونهم تقدح بالشرر. هل كان لذلك المنظر المؤلم الذي شاهدناه منذ برهة لهذه المدينة المنكوبة دور في ذلك؟ الله أعلم، ولكن يبدون كأنّهم ذُكّروا بميت طفت ذكراه فجأة إلى السطح، ودّوا لو أنّ النسيان طواه إلى الأبد...

عبرنا مساحة لا بأس بها من أرض سبخة، وعندما بدأت صورة تلك المدينة المنكوبة تتّضح رويداً رويداً كان يتناهى إلى سمعي صوت مؤذّن يؤذّن لصلاة المغرب، فتوقفنا عن المسير لأداء الصلاة...

صالح جوهر

عند اقترابي من تلك المرأة أدركت على الفور أنّ وجهها يبدو مألوفاً لديّ، وعلى ضوء النيران المشتعلة التي تتراقص ألسنة لهبها على الجدران وصفحات الوجوه عرفتها...

اقتربت منها وأنا أقول لها للمرة الثانية:

– نعم أنا صالح جوهر، أيّ خدمة أستطيع أن أسديها لك؟

كان عليّ أن أتوقّع ما ستقوله هذه المرأة. خفق قلبي وفجأة برز وجه منصور التهامي ليحتلّ مساحة كبيرة في عقلي، هل حدث له مكروه؟

لم تتفوّه تلك المرأة بكلمة واحدة، وكان عليّ أن أدرك أنها تريد أن تتحدّث معي بعيداً عن عيون الناس وآذانهم التي غالباً ما تكون في أحسن حالاتها في مثل هذه الظروف، تلتقط الكلمة الواحدة والحركة البسيطة فتؤوّلها تأويلات شتّى. ماذا يُنتظر من أناس مرعوبين خائفين يواجهون الموت بأيدٍ عارية من أيّ سلاح يدافعون به عن أنفسهم وأهليهم وأطفالهم وزوجاتهم وحقّهم في الحياة؟

سارت أمامي وسرت خلفها صامتاً. توقّعت أن يكون للأمر علاقة بمنصور التهامي. توقّعت أن تقول لي إنّه فارق الحياة ولكنّها آثرت الصمت مفضّلة أن أرى ذلك بأمّ عيني. هكذا خُيّل لي، فتبعتها صامتاً. نسيت كلّ شيء حتّى زوجتي وأطفالي المرعوبين.

في الطريق الغارق في البؤس والظلام والبيوت المنهارة، كنّا نتحدّث بخفوت حديث من يسير في جنازة عظيمة حاشدة لموتى كثر. أدهشني تماسكها ورباطة جأشها على الرغم من خوضنا تلك الأهوال والشهب التي ما زالت تعبر بوميض خاطف وباهر فوق رأسينا من جهة البحر فنسمع صوت ارتطامها بالبيوت والناس فيعلو صراخ وبكاء وعويل لوقت قصير ثمّ يتلاشى، تلك الأصوات المختلطة فعلت بي الأفاعيل. ماذا يحدث لكِ يا جدّة؟

في الطريق، ومن خلال ذلك الحديث المقتضب والمتبادل مع تلك المرأة، علمت بما زادني همّاً على همّ. قالت لي إن بيت منصور قد انهار بفعل القصف، وإنهم بالكاد أخرجوه من تحت الأنقاض وبمساعدة أناس هاربين ألقت بهم الصدفة في تلك اللحظة أمام بيته المتهدّم والمشتعل بالنيران. قالت لي إن الفتى للموت أقرب منه للحياة. يا للحظ التعيس. للمرّة الثانية يا منصور تقف على شفير الموت. ما هذا الحظ العاثر الذي يتلبّسك؟

ماذا يعني ذلك؟ هل مات منصور؟ عندما سألتها عن ذلك قالت:

– لا أدري...

كنت أريد الاستزادة من أخباره ولكنّ المرأة صمتت فاحترمت رغبتها في الصمت فسكتُّ بدوري.

كانت تسير وبيني وبينها خطوات قليلة، أتقدّمها حيناً وتمشي أمامي حيناً آخر، وتتقارب خطواتنا عند سماعنا لذلك الدويّ القاصف حتّى نكاد نلتصق بجسدينا من هول الصوت وقوّة النور الصادر من تلك الشهب. كانت بي شهوة للحديث والاستزادة لكي أعرف المزيد عن منصور التهامي ولكن...

منصور التهامي يطلّ بوجهه مرّة أخرى. يحتلّ مساحة كبيرة في مخيّلتي. كان من الرجال القلائل وتلك الوجوه التي لن أنساها بسهولة. لم أسأله يوماً عمّن يكون والده ولا من أين أتى أو كم يبلغ من العمر. لا، فقد كنت من النوع الذي يقدّر الرجال الحقيقيّين بغضّ النظر عمّن يكونون. لم تكن تشغلني مثل هذه الأمور ولم أكن أحفل بها.

جذبتني له خصال كان يتمتّع بها. كان يحتجب دوماً خلف قناع من الصمت. كثير السأم ملول. ينتقل من صنعة إلى صنعة. عمل "كرانيا" يقوم بجرد البضائع وحمّال "فرضة"، وساعده في ذلك تكوينه الجسماني القويّ وعضلاته المفتولة، لكنّه سرعان ما ترك هذا العمل وعمل في "الشونة" التي تُستخدم لخزن الأرزاق حتّى استقرّ به المقام غوّاصاً يستخرج المرجان الأسود من الشعب المرجانية، وباختياره هذه المهنة الصعبة الخطرة أدركت جيداً أنّ له توقاً غريباً لاقتحام الأهوال. يترك أعمالاً قليلة المجهود وذات مردود مادّي لا بأس به لأخرى مميتة وقاتلة ومحفوفة بالمخاطر. طلبت منه كثيراً أن يأخذ الحيطة والحذر في مهنته تلك وكانت إجابته طيف ابتسامة انطفأت سريعاً.

طوال الأسابيع القليلة الماضية لم أزره إلّا مرّات قليلة، كنت خلالها حريصاً على التنبيه عليه بأن يخلد للراحة ولا يغادر البيت. أوصيت به خيراً أولئك الأطبّاء الذين كانوا في أغلبهم غرباء من حجّاج ومعتمرين وعابري سبيل. جلبتهم لتطبيبه وليطلبوا منه عدم المخاطرة بحياته إلّا بعد الشفاء التام. لا أعلم هل نفّذ هذه التوصيات أم لا؟ كنت غائباً عنه طوال الأيّام السابقة. أحارب نظرات أهل جدّة الناريّة لي. لا أعلم إن كانت النجاة كُتبت له هذه المرة أم لا؟

اقتربنا من البيت فتسارعت خطوات المرأة، كانت تلهث أو تبكي، حتى سقطت جامتها ذات الثقوب التي كانت تستر بها وجهها خصوصاً بعد ما رأت مقدار ما حلّ من دمار بمنزل مجاور لمنزلها. مررنا بجانب بيت منصور المجاور لبيتهم. أصابته قذيفة فانهار جزء كبير منه. كانت النيران تشتعل في الجزء الآخر منه، وعندما رأيت ذلك الدمار الذي أصاب البيت أيقنت أنّ منصور لن تُكتب له الحياة مرّة أخرى. كنت أشعر بالخجل لكوني لم أسأل عن منصور التهامي تلك المدّة بفعل تلك الأحداث المتوالية. لم يكن لديّ وقت لالتقاط الأنفاس. كنت حريصاً عليه وأريد إبعاده بقدر استطاعتي

عن توابع تلك الفتنة وشرورها. خمّنت أن كثرة زياراتي له ستلفت نحوه الأنظار، وسيطل وجهه مرّة أخرى للواجهة ويُزجّ به مرّة أخرى في أتون تلك الفتنة. هل فعلت الصواب بتجاهلي له؟ لا أدري. أنا الآن في طريقي إليه وعلى بعد خطوات قليلة منه. ليته يكون سالماً وكفى.

عبرنا الدهليز ولمحت صهريج الماء المركون جانباً. فكرت أن أجلس على الدكّة المجاورة له لكي أتيح فرصة لأصحاب البيت ليصلحوا من شأنهم حتى لا يفاجئهم دخولي عليهم؛ لكن المرأة أبت أن أجلس هناك. قادتني إلى "الصفّة" تلك الحجرة الأصغر حجماً والتي تقع بين غرفة المجلس والمؤخر، جلست هناك بجوار صندوق سيسم ضخم مصنوع من خشب التيل، أسندت كلتا يديّ إليه ومكثت منتظراً السماح لي بالدخول لرؤية منصور.

أدخلني جوّ هذه الغرفة في حميمية ودفء المنزل المفقودة، التي يبدو أنّنا حُرمنا منها للأبد بسبب تلك الآلة الجهنّمية التي تقذف بنيرانها على هذا المدينة النازفة المكلومة. لا صبح يوشك على الانبلاج البتّة؛ فالأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ. كثافة النيران تتوالى مع مرور الوقت وتزداد شراسة وضراوة. عبر ذلك الاحتواء الناعم الذي أغرقتني فيه تلك الحجرة الأنيقة وذلك الإحساس الغامر بالسعة والرفاه، رحلت بفكري وعقلي رغماً عنّي إلى حيث أولادي وزوجتي التي لن أنسى نظراتها المستريبة التي حدجتني بها عندما نادت عليّ هذه المرأة تطلب منّي مرافقتها. ربّما لو كانت الظروف تسمح لها بالسؤال والاستقصاء لوجّهت لي زوجتي السؤال تلو السؤال ولكن يبدو أنها أدركت بحدسها أن الأمر لا يحتمل التأجيل وربّما أدركت أن ما سأفعله هو امتداد لأيادٍ بيضاء ظللت أمنحها لكثير من الناس الذين دائماً ما يلجأون لي كلّما حزبهم أمر من الأمور. لذا آثرت الصمت والسكوت إلى حين.

كمن يستفيق فجأة من خدر حلم لذيذ انتبهت على طيف يقف أمامي مباشرة؛ كانت هي تطلب منّي الدخول إلى حيث منصور الموشك على الموت. نهضت بتثاقل وتبعتها إلى حيث تقودني، أسير خلفها وبصري ينتقل بخفة في أرجاء منزل بُني بذوق عالٍ، أتذكر جيّداً أنني دخلته منذ أكثر من سنتين عندما دُعيت إلى حفل زفاف صاحبه. لم يكن بمثل هذه الأبّهة والروعة. اللمسات الأنثوية واضحة في تأثيثه وترتيبه ولمساته. كان بيتاً جذّاوياً صرفاً.

وجه مليح القسمات أراه ماثلاً أمامي لفتاة شابة منكفئة في أحد أركان الحجرة قبل أن تخفيه عنّي عندما وقعت عيناها عليّ؛ وغير بعيد كان منصور يتوسّط الحجرة مستلقياً على سرير واطئ. كم من الوقت مرّ قبل أن تقع عيني عليه؟ حاولت أن أحسب المدّة ولكني عجزت عن الإلمام بالماضي والزمن المنصرم، ربما كان ذلك منذ وقت قصير أو طويل، لا أعلم، فقدت التسلسل المنطقي لدورة الأيّام وترتيبها المعروف. نسيت حتّى اليوم هذا الذي تتصرّم ساعاته المؤلمة الفائتة. اقتربت منه ورائحة

الموت تزكم أنفي. وضعت يدي اليمنى على جبهته وغرقت في غيابٍ عقليّ أنساني وجوده ولمسي لجسده المجروح. وضعت أذني على صدره لعلّي أسمع نبضات قلبه فسمعتها خفيفة بطيئة لا تكاد تُسمع. فرحت بهذه الإشارة فهو ما زال على قيد الحياة ولكن إلى متى سيستمرّ حيّاً؟ ذلك ما كنت أعجز عن الإجابة عنه. كنت أدرس كلّ الحلول التي ستلقيها على مسمعي المرأتان.

– لا بدّ من نقله من هنا... وبعد فترة صمت استأنفت المرأة الكبيرة:

– وجوده ها هنا في مثل هذه الظروف الحالكة مدعاة لكي تلوك الألسنة سيرتنا.

لم أجب على الفور. أدركت منطقية حديثها وقوّة حجّتها، ولكن ماذا سأفعل أنا أيضاً به؟ هل أنقله إلى بيتي؟ وهل سيكون نقله إلى هناك آمناً ولا يؤثّر على حالته المتردّية؟

أطرقت مفكّراً، لا بدّ من أن أجيب. عندما التفتُّ لكي أقول ما لديّ من جواب لمحت ذلك القلب الكسير والعينين اللتين تسحّان دمعاً غزيراً، فأدركت على الفور أن هناك خيوطاً لامرئيّة تربط بين تلك الحسناء المنتحبة ومنصور، وتساءلت: كيف غاب عنّي ذلك أثناء ما عهدت إليهما الاهتمام بمنصور؟

استقبلتني بوجه باكٍ في تلك المرّة، وها هو نفس الوجه يستقبلني ببكاء صامت ولكنّه يثير ضوضاء عظيمة في فضاءات هذا البيت الجميل. كانت عيناها زائغتين ترسلان رجاءً وأملاً يصدر من حدقتَي تينك العينيين الجميلتين. هل أستبقيه هنا لأيّام أخر؟ سيكون بمأمن هنا لا شكّ، وبرعاية خفقات قلب محبّ على استعداد تامّ للموت والفناء في سبيل استبقائه في الجوار...

– معك كلّ الحقّ يا سيّدتي في ما تفضّلت بذكره، وسأنقله من هنا كما قلت...

قلت ذلك وأنا أسترق نظرة خاطفة تجاه تلك الفتاة. ما اسمها؟ حاولت أن أتذكّره ولكنّي عجزت عن ذلك. وقفت على قدميها كمن لدغتها عقرب، نظرت نحوي ثمّ إلى أمّها ثمّ إلى منصور المسجّى على ذلك السرير. كان لزاماً عليّ أن أستمرّ في المناورة إلى الآخر...

قلت بعد فترة من صمت:

– ولكني أستميحك سيّدتي عذراً في الساعات المقبلة لكي أتدبّر أمر نقله من هنا. لا بدّ من إحضار بعض الرجال الثقات لكي يساعدوني في ذلك وبسرّية تامّة... عند هاتين الكلمتين الأخيرتين تأنّيت في نطقهما لكي أعطيها التأثير المطلوب.

– ولماذا بسرّية تامّة؟

هذا ما كنت أصبو إليه والسؤال الذي أنتظر طرحه. لا بدّ من اهتبال الفرصة – رغم أنني شعرت باحتقار عظيم لنفسي لاستخدامي تلك المناورة الرخيصة تجاه هاتين المرأتين المسكينتين – إلّا أنه لا

بدّ من إكمالها حتّى النهاية. لاحت لي تلك المصيبة النائمة بعدما نسيتها في خضمّ الأحداث المتوالية. تذكّرتها فجأة فتكدّرت لذكراها لأنّها حقيقة واقعة لم أختلقها البتّة لقد نزلت عليّ كالإلهام:

– لا أخفي عليك شيئاً سيّدتي الكريمة إذا قلت لك إنّ منصور من الأشخاص الذين شاركو في اقتحام بيت القنصل الإنكليزي ولا أضمن أن يُذكر اسمه ضمن أسماء من شاركوا في هذه الفتنة. فجأة تذكّرت اسمها. كان اسمها فتنة، ويا له من اسم – لقد حاولت بشتّى السبل أن أخفيه عن العيون في الأيّام المنصرمة بسبب ما حدث له هناك ولم أجد من مكان آمن سوى هذا البيت العامر. لن يجرؤ أحد على اقتحام بيت تسكنه نساء. ما زال في البلد رجال يحمون عورات نساء لا يمتنّ لهم بصلة و...

أردت أسترسل في الحديث لولا أن سمعت صوت خطوات سريعة تتقدّم نحونا بسرعة وحفيف ثوب وبقايا عطر داعبت أنفي فسكتّ.

كانت تقف بيني وبين أمّها وقد تلاشت تضاريس ذلك الحزن الشفيف وحلّ محلّها وجه صارم ولكنّه فاتن. جاءني صوتها عميقاً حادّ النبرات:

– منصور لن يغادر هذا البيت على الإطلاق.

حاولت أن أقترح حلولاً وسطاً فقلت:

– لا بأس. سيمكث هنا قليلاً ولكنّي سأصحبه معي بعد ساعات قليلة.

بعد نقاش لم يستمرّ طويلاً وبضغط منها على أمّها صمتت تلك المرأة تحت إلحاح الفتاة ولكن على مضض. و... حدثت مفاجأة أربكتني وزلزلتني في ذلك البيت وأشاعت فيّ فرحاً عارماً رغم كلّ ما كان يحدث في الخارج من أهوال.

– سأخرج معك.

كانت كلمات ألقيت بيننا وكأنّها جاءت من قعر قبر عميق. كانت نبرتها ضعيفة وواهنة. كنت أحتاج إلى وقت حتى أقنع نفسي بأنها جاءت منه، أقصد من منصور، ولكن ذلك ما حدث.

أفاق منصور فجأة. يبدو أنه خرج من غيبوبة طويلة ونطق مثلما ينطق ميت من قبر فيسبّب الرعب والذهول لمن هم حوله، أدار ببصره في أرجاء الحجرة وعندما لمحنا ونحن متحلّقون حوله بوجوه مشدوهة باسمة فاض منه شعاع لم يستطع كبحه من امتنان أو شكر أو اعتراف بالجميل أو إحساس بالأمان والدفء. لا أدري بماذا كان يشعر في تلك اللحظات. كنت غارقاً في فرح لم يقطعه سوى دويّ هائل اهتزّت له جدران المنزل فتكوّمنا جميعاً حوله وران صمت مطبق...

نامق باشا

دخلنا جدّة عبر سورها القديم من جهة باب مكّة والظلام قد أحكم قبضته، فغرقت المدينة في ظلام دامس. راعني ما رأيت من دمار حلّ بهذه المدينة المنكوبة. رغم حلكة الليل بدت الدروب والحارات والأزقة والبيوت والبرحات والحوانيت موحشة وأشبه بمقبرة. كنت أشعر بأن بقدميّ تطآن دماءً حارّة لجثة مطعونة طعنة نجلاء. كانت تلك الجثّة هي جدّة. ماذا كنت أتوقع أن أرى؟

مدينة صغيرة تقع تحت قصف وحشيّ ومتوالٍ ليوم كامل تقريباً، كيف ستكون حالها ومآلها! ومع ذلك حمدت الله كثيراً أن هذا القبطان لم يتسرّع ويرسل جنوده إلى جدّة. تُرى ما الذي جعله يتوقف عن قصفها ولماذا لم ينزل جنوده بها؟ وما الذي يدور في خلَده الآن؟ كلّ هذه الأسئلة كانت تصيبني بالقلق والحيرة في تتبّع سير أفكار هذا الرجل...

إن لم تتلقّفك يا جدّة أيادٍ رحيمة فعليك السلام. لن يعود فيكِ ما يستوجب الحياة. أيّ حياة يمكن أن تعاش وسط الخرائب والدموع والأمنيات المدفونة تحت الأنقاض!

وصلنا إلى جدّة أخيراً بعد سفر متواصل قلّت فيه التوقفات إلّا لأداء الصلوات فقط واجتماعات سريعة للتشاور تُختلس اختلاساً من الوقت.

تفرّق أعضاء الوفد من حولي، كلٌّ توجّه إلى حيث يجب أن يكون. تركوني وحيداً أسير في شوارع هذه المدينة إلّا من بقيّة من جنود قليلين حرصت على أن يكونوا بهذا العدد القليل حتى لا يوحى لهذا القبطان المتحصّن بسفينته أننا جئنا لنحرّر هذه المدينة عنوة ووسط عدد كبير من الجنود. أرسلت جنديّين إلى حيث إسماعيل باشا ليخبروه بأنني سأوافيه غداً لكي نناقش الأمور المتعلقة بهذه الكارثة. كان هناك في عرض البحر على متن تلك السفينة التي قصفت جدّة كما عرفت لاحقاً. لم يدخل إلى جدّة ولا أدري لماذا، ولا ماذا يقصد بمثل هذه الخطوة؟ كنت أتساءل بيني وبين نفسي هل إسماعيل باشا قادر على حلّ هذه المصيبة وأنا لا أستطيع ذلك؟ كثيراً كنت ما أردّد بيني وبين نفسي وأقول لها معزّياً: أنا رجل لي مرجعيّتي العسكرية. أطيع الأوامر العليا بدون نقاش. لن أقدم على فعل ما من شأنه أن يمسّ سجلّ شرفي العسكري. لا أحد يرحم أحداً في مثل هذه الأمور. أعدائي وحسّادي كثر هناك في الآستانة. لن أترك لهم فرصة كي ينقضّوا عليّ تقطيعاً وتمزيقاً لكلّ ما قمت بإنجازه من أعمال أعتزّ بها كثيراً.

توجّهت إلى دار الإمارة لعلّي أحظى بقسط من الراحة، لا بدّ من أن أكون في أحسن حالاتي صباح الغد عندما ألتقي القبطان الإنكليزي بمعيّة أعضاء الوفد، ولكن ذلك ذهب أدراج الرياح، فقد طلبت مقابلة قائمّقام جدّة خليل باشا لكي أطمئن على أولئك المسجونين الأربعة عشر في سجن الإمارة. وعندما قال لي خليل باشا إنهم ما زالوا في السجن شعرت براحة بال حرصت على إخفائها قدر المستطاع، فأنا لا أريد أيّ مفاجآت من الممكن أن تفسد عليّ ما قدمت لأجله. ذلك القبطان الحانق الغاضب والمتحصّن داخل سفينته يتوقع أن تعالج هذه المشكلة بين ليلة وضحاها.

أذرع دهاليز وممرّات مقرّ الضيافة بدار الإمارة وحيداً إلّا من تلك الأفكار المشوّشة الجانحة إلى خيال ينثال في عقلي. أحاول من خلال ذلك الخيال أن أصوغ بمنطق ما سأقوله غداً أمام ذلك القبطان.

يجب ألّا يستشعر أيّ ضعف أو خنوع في مواقفنا وإلّا فسيدوسنا بقدمه بلا رحمة أو شفقة.

أعرف جيداً هذه النوعية من البشر التي تتّخذ من السطوة والبطش سبيلاً لإراقة الدماء بدون أن يرفّ لهم جفن. في وقفة من تلك الوقفات الضرورية التي تحدث بين مكّة وجدّة لتناول الطعام أو أداء الصلوات والتزوّد بالماء وإراحة المطايا، اجتمعت تحت خيمة تلعب بها الرياح وتصطكّ بها ذرّات الغبار بأعضاء الوفد المرافق. طلبت منهم أن تتوحّد آراؤنا وكلمتنا وأن لا تشوب تصرّفاتنا أيّ لمحة من الطيش أو الغضب. ليست القوّة بتقطيب الجبين وتصنّع الغضب، وإنما القوة كلّ القوة في نصاعة المنطق وقوّة الحجّة والأفكار المرتّبة السلسة المقنعة. كنت لحظتئذ أشبه بمعلّم خائب يلقي دروساً لطلبة أشقياء. حرصت أشدّ الحرص على أن ألقّن أعضاء الوفد ما سنقوله في حضرة ذلك القبطان قبيل دخولنا إلى جدّة للمرّة الثانية. يجب أن تتضافر الجهود وحتى الكلمات لتقوى الحجج رغم إيماني بهشاشتها وعدم منطقيّتها.

قاومت رغبة ملحّة تحدوني لكي أذهب إلى الميناء لأرى ذلك الوحش الغاضب الذي صلى جدّة بحممه ونيرانه، أقصد تلك السفينة؛ لا أدري لماذا شعرت بهذا الهاجس الذي كان يتصاعد كأمنية غير قابلة للتأجيل والانتظار.

حزمت أمري أن تكون جولتي السرية في هدأة الليل بعد ان تستكين حركة الناس والكائنات. قضيت قسماً كبيراً من الليل أنتقل بخطواتي في تلك الفراغات المظلمة والمضيئة التي تفصل بين حجرة وحجرة بدار الإمارة. أعرف نفسي جيّداً، عندما يشغلني أمر ما لا تهدأ لي قدم. أظلّ أمشي وأمشي حتّى لو كانت المساحات أمامي ضيّقة. من خلال الحركة الدؤوبة ربّما تولد فكرة ما تكون حجر الزواية في حلّ إشكال ما أو جلاء همّ تراكم بفعل أكدار النفوس.

كانت ساعات الليل تنصرم كشظايا متطايرة في فراغ سحيق، ورغبتي في الخروج تتناوشني وتلحّ

عليّ بالتعجيل لتنفيذها رغم أن كلّ جزء من جسدي كان يئنّ ويلحّ عليّ لكي آخذ قسطاً من الراحة وأرتاح من وعثاء السفر والتفكير الحثيث المتواصل، ولكن هيهات...

ارتديت ملابس بسيطة حاولت قدر الإمكان أن لا تلفت الأنظار، خرجت من باب خلفي لكي أتحاشى أن يراني حرّاس دار الإمارة. على ضوء قمر أوشك على الأفول تحرّكت ميمّماً وجهي شطر البحر حيث يجثم غريمي يحمل في جوفه الموت والدمار. حرصت على أن لا تتلكّأ خطواتي في هذا الليل. في طريقي تحاشيت أن أدقّق النظر في ما آلت إليه الأمور من خراب وتدمير. بيوت كثيرة سُوّيت بالأرض. ربما كان لتقارب البيوت بعضها بجانب بعض دور كبير في اتساع رقعة هذا الدمار. هنا في جدّة البيوت تتكئ بعضها على بعض كنساء وقفن على شاطئ البحر المتاخم يستقبلن أوبة أزواج بعد سفر طويل وانتظار ممضّ.

جدّة مدينة تدهشني في كلّ مرّة أراها فيها. حتّى وهي في هذه الحالة المزرية تحمل سحراً مخبوءاً يأتي عبر أثباج الموج وروائح البحر. مدينة خصبة عصيّة على النسيان، يعيش فيها الترف والبذخ بجانب الفقر والعوز...

انسللت عبر السور من خلال باب البنط بعد أن اخترقت حارة البحر. في تلك المساحة التي تفصل بين السور والبحر شممت رائحة البحر فدوّختني. أشعر بتلك النقرات التي تلوب في قعر جمجمتي كلّما داعبت أنفي رائحة بحر أو عبير أنثى. أمشي بسرعة وعيناي تتطلّعان نحو البحر والأفق المتسربل بالظلام. وشوشة الأمواج تحملها الريح كأغنية غارقة في حزن مقيم.

مكثت وقتاً لا بأس به أنقل ببصري بين البحر الساكن وجدّة الغافية على جروحها النازفة والخطر المحدق بها. فليحرسك الله يا جدّة وليحمِكِ ممّن يريد بك شرّاً.

انسحبت من مكاني ونجوم تومض في سماء تحمل نذر شرّ مستطير يكمن كمون المرض في جسد سقيم. لاح لي سورها القديم كحارس أعمى يحرس أطفاله في غابة مليئة بالوحوش المفترسة. عبرت السور وعقلي يصطخب بصراعات زادتني تعباً على تعب. لا يوجد ما هو جدير برؤيته بعد كلّ الذي رأته عيناي وأوجع قلبي. لم أشعر إلّا بيد غليظة وأصابع مغروسة في صدري، فانتبهت كمن ينتبه من حلم مرعب. كنت واقفاً أمام البوابة الرئيسية لدار الإمارة أمام حارس ضخم الجثّة غليظ الملامح يتفرّس في وجهي. أدركت للوهلة الأولى أنّني لم أدخل من حيث خرجت من دار الإمارة. أخذتني الهموم والتفكير المتواصل الحادّ فنسيت أن أدخل من الباب الخلفي. انتصبت في وقفتي ثمّ قلت للحارس بصوت حادّ:

– أفسح الطريق يا بنيّ، أنا الوالي نامق باشا، كنت في جولة سرّية في المدينة.

لامس اسمي أذني الحارس. انتفض كمن لدغته أفعى. أفسح الطريق أمامي معتذراً فهوّنت عليه الأمر. دلفت إلى الداخل ومع كلّ خطوة يتفاقم تعبي وشعوري بالعجز التامّ. ألقيت بجسدي على السرير، ساعدتني العتمة على الاسترخاء فدخلت في وسنات النوم رويداً رويداً...

صالح جوهر

سبحان الله العظيم الذي يحيي العظام وهي رميم. كنت أردّد هذه الكلمات وأنا أركّز ببصري نحو منصور التهامي وقد هبّ من رقدته تلك. ظلّ يتأرجح بين الموت والحياة للمرّة الثانية أو ربما هي المرّة الألف، بخيط واهن. كنت أحسَب أنّ وفاته ستكون مسألة وقت ليس إلّا بعدما لاحظت مقدار الدمار الذي أصاب بيته بسبب القصف، ولكن ها هو يعود إلى الحياة وتعود الدماء إلى عروقي، وانزاح همّ كبير عن كاهلي، فماذا كنت سأفعل به في مثل هذه الظروف من قصف وشتات نفوس وتفريق شمل؟

لملمت شعثي وأشتاتي وتقدّمت نحوه ثمّ ضممته إلى صدري. جاءت عودته للوعي في الوقت المناسب لي وله على السواء. كثرت أعبائي ومسؤوليّاتي وتركت زوجتي وأولادي الصغار هناك في برحة المظلوم بمعيّة تلك الحشود الخائفة المضطربة التي عزمت على السير الجماعي إلى مكّة لتحظى بالأمن والأمان الربّاني. لا بدّ من أن أتوقف عن هذه العواطف الجيّاشة ونؤجّل كلّ ذلك إلى وقت مناسب.

نظرات الامتنان التي أرسلها إلى منصور تصدر رغماً عنّي، ولكن لا بدّ من حسم تلك المسألة التي تقلق تلك المرأة الفاضلة. قلت بهدوء كبير وأنا أفضح له سرّاً طالما عذّبني كتمانه:

– حمداً لله على سلامتك يا بنيّ ولا بدّ من خروجك من هنا على وجه السرعة.

شملنا صمت مطبق.

– وها هما صاحبتا هذا البيت الكريم العامر تستضيفانك للمرّة الثانية في منزلهما كما تعلم، وكانتا عرضةً لأن تكونا مضغة في الأفواه...

لمحتها. كانت تنظر إليه، أدركت الآن أنّها امرأة تمرّ بمرحلة قاسية من تلك اللحظات الصعبة التي يسمّونها لحظات الوداع. تلك اللحظات التي يأتيك فيها اليقين بأنك لن ترى من تحبّهم مرّة أخرى. لا أعلم لماذا قفز أمامي فجأة وجه تلك الهندية الحسناء إيرانيا؟

– أرى يا بنيّ أن تشكر هاتين السيدتين وتغادر منزلهما وتتحامل على نفسك وتعود معي. أشعر بأنّ البلد مقدم على أمور جسام وأوضاع تنذر بشرّ مستطير...

بدا وجه منصور في تلك اللحظات منطفئاً شاحباً. رأيت مقدار تأثّره بكلامي وحججي التي صغتها له، وكنت صادقاً فيها فمسّت شغاف قلبه. انتفض وتقلّص وجهه من الألم بسبب حركته تلك. نهضت

بدوري، كنت أقف أمامه وجهاً لوجه. بريق عينيه يكاد يضيء العتمة في الدار. يبدو أنّ كلامي قد مسّ أيضاً تلك الأوتار المشدودة في داخلة، حرّك كبرياءه ورجولته وإباءه. أعرف منصور التهامي جيداً لا يقبل ان يكون عالة على أحد، لا يقبل مساعدة الآخرين له بسهولة، لا يحبّ لأحد أن يسدي له معروفاً حتّى لا يكون كحبل يُقاد به في ما بعد. كان أشبه بطائر جارح يجوب السماوات البعيدة ولا يرضى منها بديلاً.

انزوت المرأتان بعيداً عن طريقنا عندما هممنا بالخروج من المنزل، وفي طريقنا إلى بيته كان القصف يشتدّ، فكرت كثيراً في صغاري الذين هم في أمسّ الحاجة إلى وجودي بجانبهم في هذا الوقت العصيب.

سأنظر في أمر مسكنه بعد جلاء هذه الغمّة؛ سأضعه في مكان أمين وبعيد عن العيون أو سأعيده في أقرب فرصة لمن ائتمنني عليه: الشيخ إدريس. ولكن أين أجد ذلك الشيخ الصالح؟

لا بدّ من عودة منصور إلى دياره في أسرع ما يمكن.

عند وصولنا إلى الباب ندّت صرخة وراءنا، التفتُّ إلى مصدرها فوجدت تلك الفتاة تقول بصوت عالٍ:

– منصور سيبقى هنا حتّى تمرّ تلك الأزمة. لن يجد مكاناً يختبئ فيه أكثر أماناً من هذا البيت.

حاولت أمّها أن تتكلّم ولكنّ الفتاة أسكتتها بإشارة حازمة من يدها.

تحرّكت الفتاة ثمّ وقفت على الباب وحالت بيننا وبين الخروج. كنت أرى الحيرة والغضب مرسومَين على وجهها الفاتن الذي لم يفقد صباحته ووسامته. نكّست برأسي إلى الأرض وأنا ممسك بمنصور الذي أفاق من غيبوبته رغم جرحه الذي نُكئ مرّة ثانية ولكنّه يسير على قدميه على كلّ حال، وهذا هو المهم في الوقت الراهن.

ماذا عساني أفعل؟

كان الأمر برمّته في يد منصور. نكس هو الآخر رأسه إلى الأرض وهو يعضّ على شفتيه بقوّة. لكنّ تلك الفتاة لم تمهله لكي يتّخذ أيّ قرار بل سحبته من يده وقادته إلى إحدى الغرف الداخلية وأقفلت الباب عليهما معاً...

لا أدري لماذا غاب عنّي حدسي الذي لم يخب ظنّي فيه يوماً ما تجاه هذه الفتاة: فتنة...

يبدو لي أن تلك الخيوط أوثق ممّا كنت أظنّ. زادت من ترابطها بينهما. تبدو واجمة ساهية مأخوذة وتفكيرها مشتّتاً منذ قليل. أرى كلاماً محبوساً في صدرها. تريد أن تقول شيئاً ما ولكنها تتراجع في اللحظة الأخيرة ولكن هذا الكلام المحبوس اندلع إلى الخارج الآن. تريد الاحتفاظ بمنصور مهما كلفها

ذلك من ثمن. المرأة التي تنتمي لهذا النوع تكون امرأة لا يمكن التنبّؤ بما تفعل أو تقرّر. تدوس في لحظة طيش كلّ من يعترض طريقها أو يمسّ قلبها. هي محظوظة برجل مثل منصور. فهو ليس من أولئك الرجال الذين يعشقون تحطيم القلوب وانتهاك الأجساد بدون مبرّر أو وجه حقّ. له أخلاق الفرسان ونبل الكبار؛ كبار النفوس والقلوب. لم يكن من رجال النزوات التي سرعان ما تنطفئ في مكان وتعاود الاشتعال قي مكان آخر. لم يعرف معنى الترف والبذخ. لم يتقلب على الأجساد اللدنة الغضّة النديّة. كان يبدو لي من أولئك الرجال الذين يتسامون بغرائزهم ويحيطونها بسياج من الحياء والشهامة. من يعرفه جيداً لا يملك سوى أن يقدّره ويحترمه، وقد كان هذا دأبي معه منذ تسلّمت خطاب التوصية عليه من الشيخ الجليل إدريس. من البديهي أن أعيد الأمانة التي سلّمت في عهدتي كما هي بلا زيادة أو نقصان، ولكنّ هناك أموراً تحول بيني وبين ذلك يجب أن أتفرّغ لحلّها وإنجازها قبل أن يقطع عليّ خط الرجعة...

خرجت متوجّهاً بخطواتي صوب برحة المظلوم حيث يجب أن أكون. فقدت الإحساس بالزمن. لم أدرِ في أيّ وقت نحن؟

يبدو أنّ الأمور ازدادت سوءاً على سوء، فمناظر الدمار توسّعت رقعتها؛ البيوت التى انهارت بفعل القصف زاد عددها. كنت ألمح اللائذين بسور جدّة وقد انكمشوا على أنفسهم وصراخ أطفالهم يتعالى عند كلّ لحظة قصف، كانت الأرض ترتجّ تحت قدميّ. مررت بالسوق الذي يتوسّط جدّة ويمتدّ كلسان من أوّل عتبة من المسجد العتيق ويخترق بعض الحارات حتّى يلامس السور من الجهة الجنوبية الغربية جهة باب البنط. وعندما لمحت تلك المئذنة؛ مئذنة الجامع العتيق، منتصبة شامخة، أدركت أن بقاء جدّة من بقائها. كثير من الحوانيت والدكاكين والبيوت التي مررت بها كانت تبدو في تلك اللحظة لا تنتمي البتّة لهذه المدينة على الإطلاق. كانت مشرعة الأبواب وقد تحطمت رواشينها وتعالت ألسنة اللهب من جوفها والدخان الناتج عن الاحتراق يعمي العيون ويزكم الأنوف. كان أشبه بضباب كثيف جاء قبل وقته. لحظات من الصمت يعقبها دويّ هائل، يعقبه صراخ متصاعد من هنا وهناك، يكشف عن وجود أولئك المساكين المرعوبين الذين لا يعرفون ما الذي يجري ولماذا يحدث كلّ هذا.

عند اقترابي من البرحة لم ألمح شيئاً يدلّ على وجود أناس هناك. انقبض قلبي وتوقّفت عيناي عن الانطباق. أسرعت من سيري ووجدت نفسي أقف حيث تركت فلذات كبدي وزوجتي مع حشد من الناس، والآن لا أجد أحداً. هل تمكّنوا من الخروج من جدّة باتّجاه مكّة؟ كدت أبكي من الأسف والقهر والغيظ. شعرت بمدى استهتاري وسفهي لتركي أسرتي في مثل هذه الظروف الحالكة وفي مثل هذا

الليل الطويل العصيّ على الانتهاء. لمحت رجلاً يحمل طفلاً صغيراً وامرأة متّشحة بالسواد يمرّان من أمامي حاولت إيقافه ولكنّه لم يأبه لي، تبعته وسألته:

– إلى أين أنت ذاهب؟

– إلى جامع سيّدنا عثمان؛ جامع الأبنوس.

أجابني وهو يلهث ويستحثّ امرأته على الإسراع. كانت صرخات طفله أو طفلته المرعوبة تكاد تطغى على صوت تلك الانفجارات المتوالية. تبعته مثل ظلّه ولا أدري لماذا فعلت ذلك؟ بعد قليل لاح لي جامع الأبنوس عبر الظلام. بدا في تلك اللحظة كحبل نجاة مُدّ للناس فتعلّقوا به. كان الجامع غاصّاً بالهاربين من جحيم القصف، أطفالاً ونساءً، شيوخاً وشباباً، منهم من يعرف كلّ شبر في هذا الجامع، وأناس لم يسبق لهم الدخول إليه. دلفت مع ذلك الرجل وزوجته. هناك في الداخل اختلط الناس لا يأبه أيٌّ منهم بمن يجاوره. اجتمع الأغنياء والفقراء، النساء والرجال، الفتيات الناضجات والشبّان الذين كانوا على أعتاب الرجولة. هل غيّروا رأيهم ولم يذهبوا إلى مكّة؟ كان الظلام دامساً في الداخل، ورغم كثرة الناس كان الصمت يسيطر على المكان. مع كلّ لحظة انفجار تتعالى الأصوات من صراخ النساء وبكاء الأطفال وهمهمات الرجال.

قطع كلّ هذه الأصوات المتداخلة صوت جهوري:

– اطمئنوا، فما دمتم في مسجد سيّدنا عثمان بن عفّان فلن يصيبكم مكروه.

بدا كأن الناس ينتظرون مثل هذه الكلمات المشجّعة فصمتوا وحاولوا تهدئة صغارهم. كنت أتحسّس بيدي ونظري على السواء لعلّي أرى صغاري وزوجتي. كان اختراق هذه الأجساد المحشورة ضرباً من الجنون. لاحت لي فكرة أن أنادي أولادي بأسمائهم ولكن جاءتني فكرة أكثر منطقية. صحت بأعلى صوتي:

– أنا صالح جوهر، هل رأى أحد منكم أولادي وأمّهم هنا في هذا المكان المبارك؟

جاءني الجواب سريعاً. صاحت زوجتي بي:

– نحن بخير، أين ذهبت أنت؟ نحن نبحث عنك. أأنت بخير؟

هدأت نفسي وعاد لي عقلي وقلت بكلّ امتنان:

– أنا بخير ما دمتم بخير.

نامق باشا

كنت على عتبات الصحو عندما سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. كنت وقتها أنبش في ذاكرتي فلا أجد سوى صور متلاحقة باهتة سرعان ما تتلاشى عبر آفاق سوداء معتمة. كان ذلك هو الحاجب، قال لي ورأسه منكس عند قدميه:

– هناك رجال في الديوان ينتظرون معاليكم...

أعرفهم جيداً، أولئك الرجال هم سبب البلاء والتعاسة والشقاء وكلّ تلك العبارات الكئيبة التي تصيب النفس بالخواء والإحباط. أعرفها تلك الوجوه التي رافقتني من مكّة إلى هنا. تريد منّي أن أنزع فتيل فتنة أوقدوا نارها وعندما عجزوا عن إطفائها طلبوا منّي أن أخمدها وكأنّهم ما زالوا لا يدركون أنّ لكلّ شيء ثمناً وأنّ هناك أجساداً سوف تُعلّق على المشانق وأجساداً أخرى سوف يغيّبها ظلام السجون وتقتلها الوحدة وركاكة الأيّام وتفاهتها...

كان الحاجب يقف على الباب، فطلبت منه أن يذهب إليهم ويخبرهم بقدومي بعد قليل. أحتاج إلى وقت قصير أرتّب فيه أفكاري لتكتسب منطقيّة مقبولة. منذ أن جئت إلى هنا في الحجاز وجدت نفسي بمرور الأيام تميل نحو التحفّظ في القول والفعل. كلّ كلمة أو نأمة أو حركة هنا محسوبة على المرء، سيلقى صداها ولو بعد حين.

نهضت من سريري وبدأت أستفيق رويداً رويداً. أحببت أن يصل صحوي إلى ذروة سنامه بالاغتسال في مثل هذا الجوّ الحارّ والرطب، ولكن هذه الأمنية تلاشت فغسلت وجهي بكمّية قليلة من الماء بعد أن تذكرت ما أخبرني به الحاجب مساء البارحة. جدّة تعاني من نقص شديد في الماء. هرب السقّاؤون بسبب القصف، تركوا جمالهم وحميرهم وقِرَبهم وفناطيسهم ولاذوا بجانب أسرهم وأطفالهم. كلٌّ مشغول بنفسه، حتّى أولئك الرجال المنتظرون في الديوان تدور أعينهم في الفراغ ويتحسّسون حناجرهم خوفاً من الشنق ومؤخّراتهم خوفاً من الخازوق.

عبر تلك الردهة الطويلة والفارغة تماماً إلّا من صدى وقع خطواتي سمعت أصواتهم المرتفعة. يبدو أنّهم يفكّرون بصوت عالٍ وبشكل جماعيّ، وما إن وقعت أعينهم عليّ حتّى خفتت تلك الأصوات المتداخلة. ألقيت عليهم التحيّة فردّوها بفم واحد. طلبت من الحاجب أن يعدّ الركائب وثلّة من الجنود المسلّحين تسليحاً خفيفاً يليق بموكب صغير حتّى لا تصدر منه رسائل قد تُترجم بشكل سيّئ من الفريق

المقابل الذي سنذهب إليه. سبّب لي هذا القبطان الرعب. جعلني أحسب حساب كلّ خطوة من خطواتي. قيّدني وأوثق يديّ خلف ظهري.

اتّفقت مع أعضاء الوفد المعيّن ربّما للمرّة الثالثة أو الرابعة على توحيد الكلمة وإبداء المرونة والحزم أيضاً أثناء مقابلة القبطان الإنكليزي، فليس من المقبول أن تختلف الآراء والتوجّهات في مثل هذه الظروف. أنا أكثر من يعرف الإنكليز، فقد عشت بين ظهرانيهم ثلاثة أعوام في لندن سفيراً معيّناً من لدولة العليّة في بلاط الملك ويليام الرابع. أوضحت لهم أنّ هؤلاء القوم – الإنكليز – قوم باردون يديرون دقّة الحوار بكلّ هدوء حتى لو خالف هذا توجّهاتهم. يقيسون كل شيء بمقاييس الربح والخسارة، يناورون خصومهم بكلّ مهارة و...

كنت أريد أن أسترسل في حديثي معهم ولكنّي وجدت نفسي أتحدّث لنفسي! وعندما بدأوا بالنحنحة والتأفّف المكبوت والنظرات الزائغة والشاردة هنا وهناك لزمت الصمت.

طلبت من القائمّقام أن نقوم بجولة على الأشخاص المسجونين في سجن الامارة على ذمّة القضيّة. مررنا بهم ووجدناهم متحلّقين في دائرة وهم منهمكون في الحديث وكأنّ شيئاً لم يكن، وعندما شعروا بوجودنا التفتوا نحونا ثمّ ما لبثوا أن استغرقوا في حديثهم غير عابئين بوجودنا. اطمأننت إلى الحراسة الموضوعة عليهم وعززتها بأربعة من الجنود تحسّباً للطوارئ التي يمكن أن تحدث في اللحظات الأخيرة. أنا لا أضمن أن لا تفلت الأمور في لحظة ما، ولا أثق بأحد، وسننهي هذه المشكلة على أيّ حال. أريد أن تسير الأمور كما هو مرسوم لها، فلا مجال للتأنّي أو التراجع.

خرجنا من دار الإمارة وامتطينا الخيول والركائب. كنّا نسير ونفوسنا ملأى بالغبن في شوارع مدينة كسيرة حزينة ومسلوبة...

بدت جدّة في ذلك الصباح مدينة خاوية على عروشها. صورة متجسّدة لواقع مؤلم لماضٍ زاهٍ. خلت الشوارع من الناس والمنازل من قاطنيها والحوانيت من أصحابها والزوايا والأسبلة من مريديها والمقاهي من مرتاديها باستثناء قلّة من الناس تراهم يسيرون هنا وهناك بلا هدف.

طوال طريقنا إلى الميناء لم تقع عيني على امرأة واحدة، حتّى لكأنّما جدّة مدينة للرجال وحدهم.

اخترق موكبنا الحارات والأزقة وتلك المساحات الكبيرة التي يسمّونها البرحات، حتّى وصلنا إلى السور، مررنا من خلال تلك البوابة فلم نرَ أيّ حارس يحرسها كما هو المعتاد. لفح وجهي هواء بارد مغسول برائحة اليود، تلك الرائحة التي ما فتئت تدوّخني كلّما داعبت خياشيمي. زرقة البحر اليوم كانت شيئاً غير متوقع. سحب بيضاء تلوح فوق خط الأفق الذي يتلاحم عنده البحر والسماء، وأصوات

النوارس تزعق وتهوي إلى صفحة الماء وكأنها تريد الانتحار في الأعماق، ثمّ سرعان ما تعاود الطيران بعد أن تلامس الماء بأرجلها ومناقيرها.

وصلنا إلى بحر الطين، حاولت أن أتذكّر أين وقفت ليلة البارحة فلم أستطع تحديد المكان. حدّقت إلى الأفق فلمحت السفينة الإنكليزية الضخمة ''سايكولبس''، رأيت اسمها المدوّن بلون أبيض على شقّها الأيمن الضخم ترسو بعيداً عن الشاطئ. كانت سفينة بخارية من ذلك النوع الذي ترسله بريطانيا في العادة إلى أعالي البحار. سفينة مصمّمة للمهمّات الخطيرة والمناورات والمعارك البحرية الكبرى. هل تستحقّ مدينة صغيرة ومنكفئة على نفسها مثل جدّة أن تُقصف بمثل هذا النوع من السفن؟

يبدو أن فرنسا وبريطانيا قد ضربتا عرض الحائط باتفاقية باريس مع الدولة العليّة دولة الخلافة، بعد حرب القرم مع روسيا التي لم يمض على توقفها أكثر من عام. لا أجد تفسيراً آخر لذلك ينفي كلّ هذه التصوّرات والاستنتاجات.

عبر تلك المسافة القصيرة نسبياً التي تفصل ما بيننا وبين تلك السفينة لمحت قارباً يشقّ الماء باتّجاهنا، فأدركت على الفور أنّ القبطان البريطاني أو إسماعيل باشا قد أرسله لنا لكي ينقلنا إلى حيث يكون.

تحت وهج الشمس الساطع لمحت ثلاثة رجال يجذّفون نحونا، وما إن اقتربوا من الشاطئ حتّى تقافزوا إلى الماء وأخذوا يسحبون القارب نحونا. توقف الجنود الثلاثة أمامنا مباشرة. كانوا جنوداً إنكليزيين، طلبوا منّا جميعاً برفق أن نسلّم أسلحتنا إن كنّا نحمل أسلحة، ولحسن الحظ لم يحمل أيّ من مرافقيّ أيّ سلاح. ركبنا ظهر الزورق وانطلقنا صوب السفينة البريطانية سايكولبس.

مع اقترابنا منها بدت ضخامتها تبرز شيئاً فشيئاً، وعندما حاذاها الزورق مُدّ لنا سلّم حديدي، فصعدنا الواحد تلو الآخر. هناك على سطح السفينة كانت بانتظاري مفاجآت أسعدتني بالفعل وكانت أشبه ببصيص ضوء في ظلام حالك. رأيت إسماعيل باشا مبعوث الباب العالي وبمعيّته عدد من الباشوات واقفاً أمامي يهشّ ويبشّ في وجهي.

جاء إسماعيل باشا فجر اليوم التالي مباشرة للقصف. جاء فجر ذلك اليوم الصعب والدموي على جدّة وأهلها. قال لي إنّه عرف أنّني قادم إلى جدّة فقرّر انتظاري حتّى نضع معاً حلاًّ لهذه الكارثة.

بسبب هذا الرجل توقف القصف المتوالي على جدّة، ولو تأخّر وصوله لسُوّيت بالأرض وأصبحت أرضاً خراباً وقاعاً صفصفاً تسفي فيها الرمال ليلاً ونهاراً. هذا تحديداً ما جعلني أكون ممتنّاً له.

دلفت بمعيّة أعضاء الوفد الجدّي وإسماعيل باشا إلى إحدى الكبائن الواسعة في السفينة سايكولبس، وهناك وجدنا القبطان وليام بولين في انتظارنا ومعه ثلّة من الضبّاط الإنكليز. كنت أتساءل بيني وبين

نفسي كيف تمّ اللقاء بين هؤلاء القوم جميعاً على متن السفينة الضخمة سايكولبس.. هل كان للصدفة دور فيه؟

كان القبطان الإنكليزي بولين من أولئك الرجال الذين تستعين بهم بريطانيا في إخماد الفتن والثورات عبر إمبراطوريتها المترامية الأطراف. جاب العالم طولاً وعرضاً. كان الكابتن وليام بولين رجلاً ممشوق القوام أشيب الشعر، وعندما كان يبتسم يزوي بشفتيه إلى اليسار فتنقلب تلك البسمات إلى نوع من السخرية.

بعد تحيّات مقتضبة وكما هي عادات الإنكليز طلب منّا الدخول في لبّ المشكلة على الفور، فلا وقت للمجاملات. حول طاولة مستطيلة الشكل بدأ اجتماعنا الأوّل، كنت أقوم بمهمّة الترجمة لأعضاء الوفد، وعلى الرغم من سخونة الموضوع وأهمّيته سار ذلك الاجتماع سيراً سهلاً ولكنّه لم يخلُ من المنغّصات التي كانت موجّهة لي على وجه الخصوص.

كان الكابتن بولين رجلاً قليل الكلام في ما يبدو. أخذ دقّة الحديث وتكلّم بهدوء وثقة:

– أيّها السادة، يمكنني القول إن الحكومة البريطانية تشعر بأسى شديد حيال قتل ممثل بريطانيا في الحجاز، هذا بالإضافة إلى السخط العارم في أوروبا نظير قتل المواطنين الأوروبيين في جدّة بدون سبب وجيه...

ما هذه البداية السيّئة أيها القبطان المتعجرف؟ هكذا قلت لنفسي.

ولكن بالرغم من هذه البداية العدائية وغير المشجعة، ضحكت في سري وقلت لها معزياً: ألا تشعر بالأسى أيضاً أيها القبطان لقصفك جدّة وقتل وتشريد سكانها؟

توقف قليلاً وبدا كأنه يقيس تأثير كلامه على الحاضرين، استأنف الكلام قائلاً:

– نحن نريد حلّ هذه المشكلة في أضيق نطاق، فبريطانيا ما زالت تحترم المعاهدات الموقعة مع حكومة الباب العالي وتريد لهذه المعاهدات أن تستمرّ وتسير في الطريق المرسوم لها...

ثم أردف بلهجة فخمة وبأسلوب خطابي بحت:

– أيها السادة، إن ما فعله سكان جدّة من قتل للأبرياء العزل قد وضع الحكومة البريطانية في وضع حرج تجاه شعبها وكانت الضغوط شديدة لكي تتصرّف على وجه السرعة قبل أن يستفحل أمر هذه الكارثة فيستعصي الحل، لذا فقد جاءتني الأوامر بقصف مدينة جدّة بعد أن عجز الوالي عن وضع حل عادل وشافٍ لهذه المجزرة و...

هل هذا القبطان يريد بكلامه إلقاء تبعات هذه الكارثة على عاتقي؟ كان لا بدّ من مقاطعة حديثة قبل أن يستمرّ في هذا الطريق الملتوي:

– اسمح لي بتصحيح معلوماتك والاعترض على كلامك كابتن بولين، فكلامك فيه الكثير من المغالطات، فليس كل سكان جدّة قد قاموا بفعل هذه المقتلة بل هم قلة قليلة، وبحكم كوني والياً للحجاز فأنا لي مرجعيتي السياسية التي من البديهي أن أعود لها قبل اتّخاذ أي قرار مصيري في هذه الكارثة أو المجزرة كما قلت...

قلت وقد غيّرت من لهجتي لتأخذ طابعاً شفافاً من السخرية قرّرت فيها ان أهتبل الفرصة وأردّ الصفعة بصفعة أشدّ:

– ألم يكن من الأجدى لي ولك كابتن بولين أن تتأنّى قليلاً وتتريّث حتّى يأتي الردّ من حكومة الباب العالي قبل أن تقصف جدّة بمثل هذه الوحشية. ألا تتّفق معي كابتن بولين على أن العقاب كان قاسياً وجائراً في هذه القضية؟

كنت أريد أن أستأنف الحديث فقاطعني إسماعيل باشا:

– إن ردّ حكومة الباب العالي كان يحتاج إلى مزيد من الوقت حتى يتم التشاور مع أصدقائنا وحلفائنا الإنكليز والفرنسيين، وقد اتفق الجميع على حلّ هذه المشكلة بما يحفظ كرامة ومقام الشركاء الثلاثة...

ثمّ استأنف كلامه بنبرة فخمة:

– إن حكومة الباب العالي قد أصدرت أحكاماً مشدّدة تجاه من قتلوا القناصل والرعايا المسيحيين ومن شارك في هذه الفتنة من تأليب أو تقديم يد العون، وأنا مخوّل من حكومة الباب العالي بشكل مطلق بتنفيذ أحكام الإعدام بدون أي فرمانات مسبقة فالوقت لم يكن يسمح بذلك...

كان الارتياح بادياً على وجه إسماعيل باشا وهو يقول هذا الكلام وزادت ابتسامته اتساعاً عندما قال موجّهاً حديثه للجميع:

– لقد أحسن الوالي نامق باشا صنعاً عندما ألقى القبض على أولئك القتلة ومثيري الفتنة وأودعهم السجن وتحفّظ عليهم ريثما يصدر الخليفة أمره فيهم باعتبارهم رعايا للدولة العثمانية.

هل كان إسماعيل باشا يروم بهذه اللفتة الموجّهة لي امتصاص غضبي الذي قد أخذ في الاشتعال بسبب ما قاله هذا القبطان الإنكليزي أم لتلطيف الأجواء التي أخذت في التأزّم؟

يبدو أن إسماعيل باشا يجيد القفز على الحبال المشدودة بمهارة عالية. ورغم ذلك لم يكن يهمّني تلميحه ذاك...

استأنف إسماعيل باشا الكلام:

– أما بالنسبة للأموال المنهوبة فقد أولت حكومة الباب العالي هذا الجانب اهتماماً كبيراً أيضاً فقد قرّرت الحكومة دفع تعويضات مجزية وعاجلة.

أعرف هذه اللعبة جيداً. إمساك العصا من المنتصف. هذا ما كان إسماعيل باشا يفعله.

تلك الكلمات والحلول المزمع بها علاج هذه المشكلة وضعها إسماعيل باشا أمام الجميع فلم يبق شيء يستحق أن يقال. الحلول كانت جاهزة ولم يبق سوى التنفيذ والوسائل التي ستكون أكثر مرارة لتنفيذها.

توقف الاجتماع بعد حوالى ساعتين ودعانا الكابتن بولين إلى تناول الغداء معه. وبعد الغداء كنت أقف مع إسماعيل باشا على سور السفينة سايكولبس. هبّت ريح طيبة، كان الجوّ ألطف هنا في عرض البحر. كان يسند ذراعيه المليئتين بالشعر ويدخن غليونه.

عند ذلك السور، أدركت أن إسماعيل باشا كان في عجلة من أمره في سبيل حل هذه المشكلة.

خُدعت أوّل الأمر، اعتبرته شريكاً لكنه رآني منافساً.

إذا أراد أن يبني مجده هنا على أرض جدّة ودماء أهلها فليبنِه بعيداً عنّي...

شبعت أنا من الأمجاد. شربت منها حتى الثمالة. ليته يدرك ذلك ويفصح عمّا يجول في نفسه بدون مواربة أو مخاتلة. لا سنّي تسمح بذلك ولا الوقت أيضاً.

قال لي إسماعيل باشا والحزم بادٍ على وجهه:

– أنت لا تعرف مقدار أهمّية حلّ هذه الفتنة في أسرع ما يمكن من قبل الدولة العليّة. طلبوا منّي أن أقدّم من قتلوا القناصل إلى المحاكمة فوراً وبدون إبطاء. أصبحت تلك الاتفاقيات التي تربط بين الدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا في وضع مأزوم بالفعل، والباب العالي في اسطنبول منزعج جداً من هذه الفتنة التي قد تعصف بعلاقات حكومة الباب العالي مع أصدقائها في هذا الوقت العصيب، فربما استغلّت روسيا هذه الأزمة وأشعلت الحرب مجدّداً في البحر الأسود. هؤلاء القوم كما تعرفهم أنت جيداً قوم نهّازو فرص من الممكن أن ينقلب النصر في حرب القرم المتوقفة حديثاً إلى هزيمة ساحقة في غمضة عين.

استأنف إسماعيل باشا حديثة وهو يدخّن غليونه:

– الباب العالي كان يعوّل عليك كثيراً في حلّ هذا الإشكال فأنت تمتلك خبرة لا بأس فيها في تعاملك مع العرب طوال السنوات الفائتة، فإن لم تخنّي الذاكرة فقد قضيت ثلاث سنوات في الحجاز تؤهّلك لكي تكون أهلاً للمسؤولية... يُخيّل لي أن المضبطة التي أرسلتها إلى حكومة الباب العالي والوقت الذي استغرقته ساعدت في تفاقم هذه المشكلة. ربما كان لوجود السفينة سايكولبس في السويس القريبة نسبياً من جدّة ووصولها إلى هنا في وقت قصير دور في قصف جدّة ولم تعطك الوقت الكافي والمهم لوضع العلاج السريع لهذه المذبحة. أعرف جيداً أيّها الوالي أنك لم ولن تدّخر جهداً في سبيل حلّ هذه

الكارثة ولكن ربما كان عنصر المفاجأة والمباغتة ووجود الإنكليز قريباً منك لم يساعدك في وضع الحلول الناجعة والسريعة والمناسبة لهذه الفتنة.

هل كان إسماعيل باشا يحاول تلطيف الأجواء الملبّدة بالغيوم في ما بيني وبينه ويرتق خيبة الأمل تلك التي أصبت بها من خلال موقفه المتخاذل نسبياً؟ لست أدري.

ومع ذلك قلت له مع علمي الأكيد أنه يدرك صحّة كلامي هذا بحكم أنه رجل عسكري يدرك تراتبية الأوامر: إن صلاحياتي محدودة وإن الأحكام الكبيرة لا أستطيع البتّ فيها بدون موافقة الباب العالي كما نوّهت بذلك في الاجتماع المنصرم منذ قليل. إلا أن إسماعيل باشا لم يمهلني على الإطلاق بل استمرّ في إرسال حممه عليّ بدون رأفة أو شفقة...

مجّ من غليونه كمّية كبيرة من الدخان الأزرق فتصاعدت سحب زرقاء فوق رأسه ثم استأنف قائلاً:

– لا بدّ من حل هذه الفتنة حالاً ولا بدّ من صدور حكم بإعدام كلّ من اقترف قتل القناصل والرعايا المسيحيين في أسرع وقت ممكن. التأخير ليس في مصلحتنا على الإطلاق. دعني أسألك سؤالاً واحداً: هل ألقيت بالفعل القبض على من قاموا بالقتل ومن أثاروا الشغب والفتنة كما أرسلت إلى جناب الباب العالي؟

أجبت بهزة من رأسي بالإيجاب وأنا أستغرب مثل هذا السؤال الذي لا معنى له فهو يعلم جيداً أنني قد قمت بهذه الخطوة وقد نوّه عنها في الاجتماع المنصرم قبل قليل.

هل يشكّك إسماعيل باشا في ما قمت به؟ أم القصد هو إخراجي عن طوري وتماسكي؟

أتمنّى أن لا يختبر صبري في هذه اللحظات.

استمرّ إسماعيل باشا بالقول وهو ينظر في عينيّ مباشرة:

– عال. ستغادر السفينة أنت وأولئك النفر الذين جاؤوا معك في الحال. لا بدّ من تهيئة الأمر للناس عاجلاً، نحن لا نضمن سورات الغضب أو ردود الفعل غير المحسوبة.

قلت له بهدوء:

– وماذا تريدني أن أفعل؟

– الأمر بسيط تقوم بمحاكمة سريعة لمثيري الفتنة فتقتل من قتل القناصل على الفور وتسجن من ساعد في إثارتها، والباقي يُنفى خارج جدّة لمدد متفاوتة والبعض الآخر يُنفَون عن جدّة نهائياً.

قلت لإسماعيل باشا:

– إن أمر هذه المحاكمة يخصّك أنت وحدك فأنت تحمل معك أوامر الباب العالي، أليس كذلك؟

وكأنما إسماعيل باشا كان ينتظر هذا الجواب مني فأجاب بسرعة:

– وهو كذلك. سنلحق بك في جدّة صباح الغد أنا والقبطان وليام بولين. اذهب إلى هناك وهيّئ لنا الجوّ المناسب لعقد تلك المحاكمة.

لم يكن من العسير عليّ أن أدرك أن العقوبة ستكون أكبر من الجرم كما توقعت، ولكنّها السياسة ودهاليزها ووجهها الآخر البشع والمليء بالندوب والقبح. هل كنت أتوقع أن تأخذ الأمور منحى آخر أخفّ وطأة؟ لا أدري، ولكن الجواب أتى سريعاً أكثر ممّا كنت أتوقع، فبعد الظهر كان اجتماعنا النهائي مع القبطان بولين. طرح عليه إسماعيل باشا تلك الحزمة من الحلول فبدا الرضى على الجميع. أما أنا فقد انتابتني مشاعر شتى لم أجد لها تفسيراً. كنت واقعاً تحت تأثير مشاعر متباينة تشرّق بي وتغرّب. كان هناك إحساس مرّ يتصاعد إلى حنجرتي وأنا أشعر بنفسي أمسك بمدية كبيرة وأسهم بطعن خاصرة جدّة والدم يندفع منها وهي تُحتضر...

صالح جوهر

قبيل منتصف ليل اليوم التالي توقف القصف. يوم عصيب ومرير كنّا فيه تحت الجحيم. يوم انصرم ونحن محشورون في ذلك الجامع وسط بكاء الصغار وصراخ النسوة والروائح الكريهة والمؤذية لبول الصغار وبرازهم التي كانت تتصاعد من هنا وهناك. يستكين القصف قليلاً ثم يعود بوتيرة أعلى من ذي قبل. لم نشعر بجوع ولا عطش. كانت الحياة أهمّ من كلّ هذه الضروريات. ولولا مجموعة من الشباب الشجعان الذين خاطروا بأرواحهم وجلبوا قليلاً من الطعام والماء لمات الصغار والرجال والنساء العجزة من شدّة الجوع والعطش. هؤلاء الشباب الشجعان ذهبوا بالماء والطعام إلى أماكن أخرى لجأ لها سكان جدّة في الجوامع الأخرى وتحت السور وأسفل الجدران وحتى إلى الناس الذين رفضوا أن يغادروا مساكنهم وفي كلّ مكان. استكان الناس المتجمّعون في الجامع وقتاً ليس بالقصير في أماكنهم، امتدّ إلى ساعات الفجر الأولى. كانوا يحتاجون إلى مزيد من الوقت لكي يتأكدوا من توقف القصف بالفعل، كانوا في غنى عن المراوغات والمفاجآت غير المحسوبة.

خرج الناس من الجامع بعد ساعات جسّ النبض تلك لمعرفة مدى مصداقية توقّف القصف من عدمه. تتابع خروج الناس بعد تلك الساعات وكأنهم خرجوا من قبر جماعي كبير، منكوشي الشعر وأعينهم محمرّة وظهورهم منحنية وسمعهم مرهف لكلّ صوت طارئ. مع بزوغ نور الفجر الباهت تجمّعوا في الساحة الملاصقة للجامع يتفقّد كلّ ربّ أسرة أطفاله وأهله وذويه. صخب الأطفال الرضّع يتصاعد مع مرور الوقت. انزوت الأمّهات بعيداً وألقمت كلّ أمّ ثديها رضيعها فخفّف هذا قليلاً من البكاء والنحيب. بحثت عن أطفالي وزوجتي، وجدتهم أخيراً تحسّست وجوههم مرّات كثيرة وكأنني كنت غائباً عنهم سنوات طويلة رغم أننا كنا محشورين معاً في ذلك الجامع العتيق. كانت زوجتي تلومني بسبب تركهم هكذا مساء البارحة بدون سبب مقنع، أرى احتجاجها وعتبها يطفر من نظرات عينيها. ما فائدة العتاب الآن؟ قلت ذلك مبرّئاً نفسي من كلّ لوم أو عتاب.

قالت لي زوجتي إنّ المسيرة قرّرت عدم التوجّه إلى مكّة بسبب تزايد القصف فلجأوا إلى مسجد سيدنا عثمان.

انطلق كل رجل مع أسرته صوب بيته، أخذ الناس يتفقدون الأضرار التي لحقت ببيوتهم وممتلكاتهم. جُلت في شوارع المدينة بعد أن أوصلت أطفالي وزوجتي إلى بيتنا، حمدت الله كثيراً لكون الأضرار التي لحقت به بسيطة نسبياً. أكثر الضرر كان في حجرة الطيرمة العلوية. يبدو أن قذيفة ما مرّت

بجانبها فمسّت جزءاً منها فتهدّم. غادرت البيت بعد قليل، كنت أجول بتؤدة وعلى مهل في المنطقة التي كانت حول بيتي، وجدت قسماً كبيراً من رجال جدّة وهم ينتقلون من بيت إلى بيت يتفقدون ساكنيه ويستخرجون من كان لا يزال تحت البيوت المنهارة.

عاد قسم كبير من سكان جدّة الذين لجأوا إلى الأودية والجبال المجاورة، بعضهم عاد بأسرته والبعض الآخر عاد وحده مفضّلاً التريّث والانتظار حتى تتّضح الرؤية هل سيتوقف القصف أم سيعود من جديد؟ كان الخوف هو العدوّ اللدود في تلك اللحظات.

انتقلت عبر حارات جدّة الأربع، الشام واليمن والبحر والمظلوم، ولمحت حركة دائبة من أناس كثر يأتون خلسة يأخذون ما يحتاجون إليه من ثياب وغذاء وممتلكات ثمينة لم تطَلها أيدي اللصوص المنتظرين مثل هذه الفرص ثم يغادرون مساكنهم على الفور، كانوا لا يأمنون جانب هذه السفينة الضخمة الجاثمة في الميناء أن تعاود القصف مرّة أخرى، ولكن – يا للغرابة – توقف القصف طوال الساعات التالية ما حدا بالبعض إلى العودة إلى جدّة وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى.

لم تطمئن نفسي لذلك الهدوء المريب، فربّما كان ذلك هو السكون الذي يسبق العاصفة. طلبت من أسرتي أن تغادر إلى مكّة على الفور بعد أن رتّبت لهم أمورهم من خلال التوصيات التي حملتها معهم لمعارفي الكثر هناك. انطلقت من الساحة المجاورة للجامع العتيق قافلة كبيرة جلّها كان من النساء والأطفال والشيوخ والعجائز إلى مكّة هرباً من الأيّام المقبلة فهي حُبلى بشرّ غير متوقّع كما يبدو. أصرّت زوجتي على أن أرافقهم إلى مكّة ولكنّي اعتذرت بشدة. غادروني على مضض بعد وعود كثيرة بأن ألحق بهم. لا؛ لست أنا ممّن يتركون أرض المعركة وأهرب كجرذ مذعور. سأبقى هنا، فلديّ الكثير من الأمور العالقة التي تتطلّب حتميّة وجودي. في اليوم التالي كان الهدوء سائداً. نهضت فجراً وذهبت إلى المرفأ. أتّجه نحو الشمال الغربي من جدّة. أقف على شاطئ بحر الطين وأرقب تلك السفينة الرابضة في عرض البحر التي بعثرت السلام والطمأنينة من نفوس سكان جدّة، ثمّ أنتقل ببصري إلى الميناء العامر بالسفن التي حملت الحجّاج إلى هنا. تداخلت بعضها في بعض واختلط الحابل بالنابل. لمحت سفينتي الأثيرة إيرانيا. لهفي عليك يا سفينتي العزيزة، لقد افتقدتك كما أفتقد تلك الحبيبة الهندية التي غادرتني في لمح البصر، أمكث في المرفأ حتّى تلهب الشمس ظهري ورأسي بسياط اللهب فأعود أنتقل في دروب جدّة وطرقاتها صامتاً والشعور بالذنب يشلّ تفكيري ويتلبّسني كهمّ ثقيل، خطواتي مبعثرة، أسير على غير هدى ويكتم أنفاسي سؤال:

– هل كنت سبباً رئيسياً في إثارة هذه الفتنة التي جرّت الويلات والمصائب على أناس لا ذنب لهم فيها؟ هل سكّان جدّة على حقّ عندما حاربوني بذلك السلاح الذي لا يرحم، سلاح النظرات العاتبة

اللائمة التي تحمل ألف معنى ومعنى؟

صباح هذا اليوم كانت في انتظاري مفاجآت عدّة أزالت الكثير من ذلك الغبار الذي عكّر هدوء نفسي. عرفت أن حكومة الباب العالي قد أرسلت مبعوثاً خاصاً لحلّ هذه المصيبة وأنه قد وصل إلى جدّة. جاء بعد خراب مالطة. لم أعرف متى كان وصوله صباحاً أو مساءً. لا يهمّ ذلك، المهمّ أنه وصل ولا بدّ من أن يتوقف هذا القصف الذي أهلك الناس وأهلك كل أمل لهم في الحياة. انتشر هذا الخبر كانتشار النار في الهشيم، وعندما تسامع الناس بذلك ارتاحت نفوسهم وهدأ قلقهم بعدما توقف القصف طوال اليوم التالي. بريطانيا لن تجرؤ على معاودة القصف ورجل من الدولة العلية يمثّلها بوجوده هنا. لست أدري لماذا تأتي الحلول التي تحقن الدماء متأخرة هكذا؟

تجمع كثير من الناس عند دار الإمارة ربّما طلباً لمزيد من الأمن والاطمئنان الذي من الممكن أن يكون حول المراكز السلطوية ورموز الحكومة في البلد. افترشوا الطرقات حولها، حاول البعض الدخول إلى الوالي ولكن الجنود منعوهم من الدخول فسكتوا على مضض.

لا أدري لماذا لاح لي وجه الوالي نامق باشا عندما كنت أسير بجانب دار الإمارة؟ مرّت أسابيع منذ أن رأيت الوالي عندما ذهبت إليه هناك في مكة طالباً ذلك الفرمان المشؤوم الذي يخوّلني إنزال العلم الإنكليزي وإحلال علم الدولة العليّة مكانه. ليتني لم أقم بتلك الخطوة الحمقاء، فماذا جنيت من ذلك سوى الدماء والقتل العشوائي والتشريد لأولئك البسطاء الذي كانوا وقوداً لحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

عقلي كان نشطاً يعجّ بالاحتمالات والفرضيّات والتساؤلات، أفكّر في النتائج قبل المقدّمات. جنود عثمانيون وإنكليز يأتون إلى دار الإمارة، تُفتح لهم الأبواب ثمّ تُغلق ولا أحد يمكنه التنبّؤ بما يدور خلف تلك الجدران.

نامق باشا

عرفت من رجال ثقات أنّ الباب العالي قد عيّن الشريف عبد الله الابن الأكبر للشريف محمد بن عون شريفاً لمكّة. وعند وصوله إلى المدينة – مدينة رسول الله – قادماً من الآستانة توقف هناك وأحجم عن الذهاب إلى مكّة بعدما سمع بحدوث هذه الفتنة. قرّر أن يمكث في المدينة حتى انتهاء هذه المصيبة. خطوة ذكيّة بلا شك منه. ولكن هل من العدل أن يتركني هكذا وحيداً ولا يمدّ لي يد العون؟

هل سيرافقني سوء الحظ هكذا دائماً في بلاد العرب؟

تلك الأخطاء التي حدثت لي في السابق هل ستتكرَّر مرة أخرى هنا في جدّة؟

أخمدت ثورات كانت تطلّ برأسها هنا وهناك ولكنّي كنت دائماً ما أنوء تحت نير عواطفي الإنسانية، تغلبني رغماً عنّي ولكنها دوماً ما تكون سبباً في إلقاء اللوم عليّ وتنتقص من لذّة اكتمال النصر... في مجال عملي حيث تُنسج خيوط دول لكي تنهض وتقوم وأخرى تُنسج حولها الدسائس والمكائد لكي تسقط، لا مجال هنا للرخاوة والشفقة والعطف، السياسة لها بريق أخّاذ ولكنّ أساليبها دائماً ما تتّصف بالدناءة والوضاعة.

أعضاء الوفد الذين كانوا برفقتي إلى السفينة سايكولبس ظلّوا صامتين طوال الطريق إلى مقرّ الإمارة. أستشف من خلال حركاتهم العشوائية المتوتّرة كلاماً محتقناً داخل صدورهم عزّ عليه الخروج وصعب. يبدو أنهم شعروا أخيراً بفداحة الكارثة وأنعموا النظر في نتائجها القاسية التي لن تستثني كبيراً أو صغيراً منهم.

قال لي إسماعيل باشا إنه سيلحق بي ومعه الكابتن وليام بولين إلى جدّة في صباح الغد لاستجواب قاتلي القناصل الذين يقبعون في سجن الإمارة. ماذا سيفيد استجوابهم أو تكوين محكمة لمحاكمتم الآن؟ هم اعترفوا بذنبهم وكفى. هم جاهزون لكلّ الاحتمالات، وعندما تنعم النظر في وجوههم فستجد كأنهم خُلقوا للموت وحده.

هل هي مجرّد محاولة أخيرة لإضفاء شرعية من نوع ما حتى يقال إن المتّهمين قد حوكموا قبل إعدامهم؟

أعترف بأنني أحياناً لا أفهم ماذا يدور في عقل إسماعيل باشا. إنّني لا أضمن حدوث ثورة هنا في جدّة إذا ما حُكم بالإعدام على بعض أبنائها. لذا من الضروري بتّ هذه المسألة في أسرع ما يمكن. أسمع همهمات وأصواتاً مختلطة تأتي من الخارج وعبر أحد الرواشين، نظرت إلى الخارج فوجدت

جمعاً غفيراً من سكّان جدّة يحيطون بدار الإمارة من كلّ الجهات وقد حدث احتكاك بينهم وبين الجنود الإنكليز الذين أرسلهم الكابتن وليام بولين لبسط الأمن ودرءاً للمفاجآت غير المستحبّة التي من الممكن أن تحدث في آخر لحظة. أرادوا إبعاد الناس عن مقرّ دار الإمارة. احتكاك مع الإنكليز مرّة أخرى؟ هل ستحدث كارثة أخرى وأنا هنا وعلى بعد أمتار قليلة منهم؟ طلبت من الحاجب أن يفرّق الناس قبل أن يحدث ما لا تُحمد عقباه. أطلق الجنود أعيرة نارية في الهواء أعادت الناس إلى تلك الأجواء المرعبة وقفزت فجأة أمام أعينهم ليلة الرعب والموت والدمار تلك. انسحب الناس من محيط دار الإمارة. كانوا في غنى عن إزهاق المزيد من الأرواح. يكفي ما حدث.

بعد حوالى ساعة من استيقاظي من نومي المتقطّع جاء إسماعيل باشا صباحاً بمعيّة الكابتن وليام بولين. بعد مجاملات قصيرة طلبا منّي التحفّظ على المساجين بزيادة عدد الحرّاس حولهم فنفّذت ما طلبا. أدرك تمام الإدراك أنهم لن يستطيعوا الهرب من السجن، ولو خرجوا منه لعادوا من تلقاء أنفسهم ولن يتأخر منهم رجل واحد. تساءلت ماذا يعني ذلك؟ لن يفعل مثل ذلك سوى من يؤمن بأن ما قام به هو عين الصواب، يرون أنفسهم أنهم أصحاب حق والهروب من المعركة ليس من شيمهم حتى لو أدّى ذلك إلى قتلهم جميعاً. بل إنني على استعداد تامّ للمراهنة على أنهم حتى لو لم يُزجّ بهم في السجن فلن يهربوا ولن يذهبوا إلى أيّ مكان آخر على الإطلاق. يردّدون دائماً هذه العبارة: الموت ولا العار. هذا ما يؤمنون به ويرسم طريقهم فيسلكونه بدون تردّد أو ريبة. يُخيَّل لي أحياناً أنهم يلقون بأنفسهم إلى الموت بسبب هذه القضيّة بكل أريحية وعن طيب خاطر. أعرف أن العلاقات الإنسانية بين سكان جدّة متشابكة ومعقدة وتبدو في أحيان كثيرة لا منطقية. تكشفت لي في الأعوام الثلاثة الماضية الكثير من هذه القيود الخفيّة التي تشكل خطوطاً عريضة لمبادئهم التي لا يحيدون عنها قيد أنملة.

صُعقت عندما طلب مني إسماعيل باشا الزجّ في السجن بقائمّقام جدّة وقاضي القضاة ووضع عدد لا بأس به من كبار التجّار تحت الإقامة الجبرية وتكوين حراسات مشدّدة عليهم وعدم السماح بمغادرتهم لبيوتهم على الإطلاق.

حاولت أن أتحاشى تنفيذ كلّ تلك الإجراءات أو التخفيف منها على الأقل، ولكن إسماعيل باشا قال لي وابتسامة صغيرة لا معنى لها أخذت ترتسم على ملامح وجهه الجامدة:

– ألا ترى معي يا معالي الباشا أن مثل هذه الإجراءات هي مجرّد إجراءات احترازية القصد منها الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الأشخاص المتورّطين في هذه المذبحة وإتاحة الفرصة لجميع الأطراف للإدلاء بما يعرفونه من خفايا في هذه القضية لكي نصل معاً إلى ما نصبو إليه من الحقيقة المجرّدة؟

الحقيقة المجرّدة؟

أتمنّى أن لا تتعب نفسك كثيراً إسماعيل باشا، فلا وجود لشيء اسمه الحقيقة المجرّدة. كنت أريد أن أقول له ذلك ولكنّي تريّثت وأمسكت لساني عن التفوّه بكلمات قد تؤدّي إلى مناوشات أنا في غنى عنها. حانت نهاية هذه القصّة. لا أريد لها أن تأخذ منحى آخر في آخر فصولها. افعل ما تراه مناسباً يا معالي الباشا. الحفلة حفلتك، أنت بطلها الأوحد.

فلتتحمّل تبعات ما ستقوم به وحدك...

ماذا يقصد فؤاد باشا وزير الحربيّة هناك في الآستانة من إرسال هذه النوعية من الضباط المتعجرفين والمتعالين الذين لا يفقهون شيئاً في أصول التعامل مع أناس يعتزون بقوميّتهم وأرومتهم العربيّة؟

لا حقائق مجرّدة هنا في بلاد العرب على وجه الخصوص.

أدركت الآن أن إسماعيل باشا يريد منّي أن أكون مجرّد سلطة تنفيذية تنفّذ ما يُملى عليها من أوامر، أو بمعنى أصحّ يريد إسماعيل باشا تحييدي عن هذه القضيّة وإبعادي عنها ربّما لأهداف خافية في نفسه. أعرف جيداً تلك الأهداف. فإسماعيل باشا كان باحثاً عن المجد، يريد سلّماً ليصعد إليه وهذا السلّم هو كتفاي وتضخيم أخطائي وهفواتي البسيطة.

تم إقصائي للمرّة الثانية ولكن هذه المرّة من ابن جلدتي وأرومتي التي أنتسب لها.

هنيئاً لك هذا الانتصار إسماعيل باشا.

فلتهنأ به وحدك.

جاء إسماعيل باشا ومعه القبطان الإنكليزي صباح اليوم التالي باكراً. كان بمعيّتهم جنود كثر مسلحون تسليحاً جيداً. وصلوا إلى دار الإمارة وطلبوا إغلاق الأبواب جميعاً، ثمّ طلب إسماعيل باشا منّي تجهيز أكبر الغرف مساحة لتكون مقرّاً للمحكمة. كنت أحاول تخمين ما يدور في عقل هذا الرجل ولكنّي عجزت عن ذلك فسكتّ على مضض.

محاكمة (1)

طاولة خشبية طويلة حولها مقاعد كثيرة وقد جلس عليها رجال عثمانيون وإنكليز وعرب.

ويقف غير بعيد رجل آخر هائل الجثة ذو شنب كثيف يحمل في يده اليسرى إناءً صغيراً.

خلف هؤلاء الرجال يقف أربعة جنود أجسامهم ضخمة مسلّحين تسليحاً جيداً.

أمامهم مباشرة كرسيّ خشبي خُصّص لجلوس المتّهمين المزمع محاكمتهم.

يقوم إسماعيل باشا بالترجمة لبعض الكلمات التي لا يستطيع الآخرون فهمها أو استيعابها.

– ما اسمك؟

– عبد الله المحتسب.

– ماهي طبيعة عملك؟

– ....

– ماذا تعمل في جدّة؟

– محتسب.

يلتفت القبطان وليام بولين مستفهماً نحو إسماعيل باشا الذي يشرح له طبيعة عمل المحتسب.

– أنت متّهم بتحريض مجموعة من الناس على قتل القنصل الإنكليزي والفرنسي؟

– أنا لم أقتل أو أحرّض على القتل.

– لكن شيخ السادة وقائمّقام جدّة اعترفا بتحريضك الناس ومدّهم بالسلاح والرجال وهذه هي أقوالهم وبصماتهم.

يقترب منه ذلك الرجل صاحب الصوت القوي ويشير له إلى صفحة مكتوبة وفي أسفلها لطخة من حبر أحمر لبصمة إصبع.

يصاب المتهم بخيبة أمل ويُذكون نيران الشكوك والظنون في قلبه. يلتفون من حوله بكلام معسول وتلطف بالغ ووعود بإخراجه من تلك المشكلة. يقول ذلك الرجل بعد أن اطمأنّت نفسه:

– أنا كنت مأموراً بأمر إبراهيم آغا قائمّقام نامق باشا في مكّة وبيننا مكاتبات ومخاطبات بهذا الشأن.

ستضع بصمتك على أقوالك. يقولون له تلك الجملة وهم يبتسمون. يتقدّم ذلك الرجل الذي يطرح الأسئلة ويأخذ الأوراق عن الطاولة ويتقدّم بها إلى حيث المتّهم ويحمل في يده اليسرى إناءً صغيراً فيه سائل أحمر بلون الدم، يغمس إصبع الإبهام للمتهم في ذلك السائل ثم يضعه أسفل الصفحة.

ثمّ يزجّون بالمتّهم في سجن انفرادي ويستدعون شخصاً آخر:

محاكمة (2)

– ما اسمك؟

– سعيد العمودي؟

– ماذا تعمل؟

– تاجر.

– أنت متّهم بإثارة الفتنة وقتل القنصل الإنكليزي والفرنسي، ما قولك؟

– لم أقتل ولم أحرّض على القتل.

– ولكنّ قاضي جدّة الشيخ عبد القادر وعبد الله المحتسب اعترفا قبلك بلحظات بأنك قمت بذلك.

يحسنون له القول وإعطاءه إحساساً بكونه ضحيّة لهذه الفتنة.

يمدّون له بأوراق عليها بصمة إصبع. تطوّح به بذرة الشك بعيداً. يشعر بطعم الخديعة فيقول:

– أنا كنت أنفّذ أوامر شيخ السادة عبد الله با هارون وعبد الله المحتسب.

– ما هي هذه الأوامر؟

– طلب منّي عبد الله المحتسب أن أسلّح مئة رجل بالأسلحة ثم أذهب برفقتهم إلى منزل القنصل الإنكليزي لكي نخيفه بالسلاح والرجال.

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– لم يلتزم الرجال المسلحون بالأوامر.

– ماذا فعلوا؟

– قتلوا القنصل وقتلوا بعض النصارى وكنت أريد...

لم يستمعوا لبقية حديثة بل اكتفوا بذلك. رفعوا كفوفهم طالبين منه التوقّف عن الكلام.

يغمسون إصبعه في ذلك الحبر الأحمر...

ثم يأمرون بزجّه في سجن انفرادي.

محاكمة (3)

ثمّ يحضرون شخصاً آخر:

– ما اسمك؟

– ....

– ماذا تعمل؟

– تاجر.

– أنت قتلت القنصل الإنكليزي؟

– لا

– ولكنّ التاجر (...) اعترف بذلك ووضع بصمته على اعترافه ذاك...

ثمّ يشير إسماعيل باشا إلى ذلك الرجل الضخم فيتقدّم حاملاً تلك الأوراق ويقرّبها من وجه المتّهم...

– أنا لم أقتل القنصل الإنكليزي.

– إذاً هل تعرف من قتله؟

– نعم.

– من هو؟

– عبد الله سمكري.

– والقنصل الفرنسي، هل تعرف من قتله؟

– نعم.

– من؟

– محمد بيومي ومبارك قارورة والعبد أمان عبد علي أفندي.

– هل تعرف شخصاً آخر قتل أو ساعد في القتل؟

– نعم؟

– من؟

– سليم باكروس وسليمان قهوجي قتلا نفرين من النصارى.

– هل لديك شيء تريد إضافته؟

– لا.

يبصم على أقواله بذلك الحبر الأحمر...
يطلبون من الحارس الزجّ به في سجن انفرادي...
ويستدعون رجلاً آخر...

محاكمة (4)

ثمّ مع رجل آخر...

– ما اسمك؟

– ....

– ما هو عملك؟

– حمّال.

– أنت متّهم بإثارة الفتنة في جدّة وأسهمت في قتل القناصل الأجانب.

– أنا لم أفعل شيئاً ممّا ذكرتم.

– ولكن عيد باخريبة اعترف بأنّك ساعدته في قتل النصارى؟

– هو أيضاً قتل...

– قتل مَن؟

– الخواجة ساوا.

– فقط؟

– لا. هناك رجل قتل ثلاثة أنفار من جماعة الخواجة ساوا.

– من هو هذا الرجل؟

– علي تركي.

– هل تعرف أحداً شارك في عملية القتل أو ساعد فيها؟

– نعم.

– من؟

– صالح مراد وعبد العزيز غوّاص وفرج حداد.

– هل لديك ما تريد إضافته؟

– لا.

يطلبون منه غمس إصبعه في ذلك السائل ثمّ يضع بصمته أسفل الصفحة، يفعل ما يطلبونه منه ثمّ... يزجّون به في سجن انفرادي.

محاكمة (5)

يأتي رجل آخر...

– ما اسمك؟

– فضل الله أبو ناب.

– أنت متّهم بالقتل وإثارة الفوضى في جدّة.

– أنا لم أفعل شيئاً.

– ولكن (...) اعترف بذلك.

يتلطّفون معه بالكلام ويخبرونه بأنهم هنا مجنّدون لإظهار حقيقة الأمر وإخراجه من هذا المأزق تماماً كما فعلوا مع من سبقه من المتّهمين.

يقترب منه ذلك الرجل ويريه صفحات مكتوبة وأسفل منها بصمة إصبع.

– أنا لم أقتل، ولكنّي نهبت بيت الخواجة ساوا.

– ماذا أخذت؟

– نقوداً ومشغولات ذهبيّة.

– وأين هي تلك المسروقات؟

– ليست كلّها معي وحدي...

– من هو شريكك؟

– فلان بن فلان.

– هل تعرف شخصاً ساعد في إثارة هذه الفتنة أو أسهم في قتل الرعايا الأجانب؟

– ....

ثمّ يُزجّ بذلك الفتى في سجن انفرادي.

محاكمة (6)

– ما اسمك؟

– ....

– ....

– ....

– ....

– ....

– ......

محاكمة (9)

- ....
- ....
- ....
- ....

محاكمة (14)

– ما اسمك؟

– مبارك قارورة.

– أنت متّهم بقتل القنصل الفرنسي.

– أنا لم أقتل أحداً.

– ولكن محمّد بيومي اعترف بأنك شاركت في عملية قتل القنصل الفرنسي.

– ....

– هل لديك ما تريد إضافته؟

– ....

انتهى التحقيق مع آخر رجل وصُدّقت أقواله ثمّ زُجّ به في حبس انفرادي مثل رفاقه الباقين.

يدور نقاش بين أعضاء المحكمة حول كيفية تنفيذ حكم الإعدام في المتّهمين، هل سيُعدمون رمياً بالرصاص أم شنقاً حتّى الموت. لم يستمرّ النقاش طويلاً، فقد استقرّ الرأي على الإعدام شنقاً بحكم أنّ هذا هو المتّبع في تنفيذ حكم الإعدام في الدولة العثمانية، وبحكم أن هذه الجريمة وقعت على أرض تخضع للسيادة العثمانية ومن قاموا بتلك الأفعال هم من رعايا الدولة العثمانية.

يكتفون بهذا العدد وبهذا الرأي ثم ينهضون وهم يتبادلون قفشات ضاحكة وترتسم على وجوههم أمارات الرضى والارتياح. يفتح لهم الحاجب الباب ثم يذهبون إلى مكان ما من دار الإمارة برفقة عدد كبير من الجنود المسلحين...

نداء

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

أمر معالي الوالي نامق باشا والي الحجاز

بتنفيذ حكم الإعدام

في من أثاروا الفتنة صباح يوم غد عند باب البنط

يا أهالي جدّة

ليعلم الحاضر منكم الغائب

أمر معالي الوالي نامق باشا والي الحجاز

بتنفيذ حكم الإعدام في من أثاروا الفتنة غداً

عند باب البنط

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

ليعلم الحاضر منكم الغائب

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

جدّة في صباح أحد الأيام من عام 1858م:

غصّ الجامع العتيق بالمصلين في صلاة الفجر. توافد الناس من كلّ مكان من جدّة وحاراتها الأربع. لم يتّسع الجامع لتلك الأعداد الهائلة، فصلّى البعض خارج الجامع في الساحة المحيطة به... قرأ الإمام في صلاته آيات من القرآن الكريم بصوت رخيم تهدّج واختنق بالبكاء مرّات عديدة، لكنّه واصل الصلاة حتى انقضت. لم يمكث ذلك الحشد بعد الصلاة كثيراً بل ساروا واجمين صامتين، فوجئوا بعد وصولهم إلى الساحة المجاورة لباب البنط بقطعٍ من الخشب مغروسة في منتصف الساحة، كانت عبارة عن قائمتين من خشب تعلوهما خشبة تلتحم بها من عند الأطراف وتدلت منها حبال غليظة رُبطت بشكل مخيف، ينتهي كلّ حبل بشكل بيضوي يكفي لإدخال رأس بشري فيه.

ابتعد الناس عنها بخوف ورعب بعدما عرفوا الغرض منها وسبب وجودها، كانوا ينظرون إليها شزرا وبطرف أعينهم. لاذوا بظلال البيوت المحيطة بالساحة يستظلّون تلك الجدران التي بدت في تلك الساعة كئيبة تشيع في النفس قلقاً حثيثاً ومتواصلاً. انقباض القلوب انعكس على ملامح الوجوه فزادها ذلك غمّاً على غمّ. ومع انتشار ضوء الشمس لاحظ الناس حركة غير عادية تأتي من رواشين البيوت المحيطة بالساحة. سُمع بكاء ونحيب يأتي من هنا وهناك، وأصوات نسوة صارخات بأصوات تنتهك حدّة السكون المحيط بالناس. يرفع الرجال رؤوسهم إلى حيث تلك الأصوات، ثمّ سرعان ما يطأطئونها إلى الأرض مرّة أخرى.

من ناحية حارة الشام أقبلت ثلّة من الجنود المدجّجين بالسلاح، أعقبتها مجموعة أخرى أكثر عدداً أحاطت بالساحة إحاطة السوار بالمعصم ومنعوا كلّ شخص حاول المرور من جهة إلى أخرى، ومنعوا الناس أيضاً من الخروج أو الدخول من باب البنط بحزم وقسوة، عقب ذلك أقبلت خيول تسير ببطء تحيط بمجموعة من الجنود الذين كانوا يشكلون دائرة محكمة الإغلاق حول أربعة عشر شخصاً مكتوفي الأيدي. وعندما شقّوا طريقهم إلى منتصف الساحة أطلق الجنود وابلاً من الرصاص لعلع في السماء التي بدت واطئة في ذلك اليوم حتّى كادت تلامس هامات الناس المحتشدين. اهتزّت الأرض تحت الأقدام وتصايح الأطفال بالبكاء، ربّما ظنّوا أن ذلك قصف جديد لجدّة ولكن سرعان ما حلّ الصمت من جديد.

تقدّم رجل بيده ورقة وبدأ يقرأ منها، ولكنّ حاسّة السمع في تلك اللحظة كانت معطلة في ذلك الحشد الكبير من الناس، لا يمكنك أن ترى سوى العيون المبحلقة التي لا تكاد تطرف.

أنهى ذلك الرجل قراءة بيانه المقتضب، طوى الورقة ثمّ أفسح الجنود المتكوّمون بجانب المشانق، فرأى الناس جنديّين يسحبان رجلاً مغطّى الوجه ثمّ يصعدان إلى المنصّة الخشبية وهما يساعدان ذلك الرجل على ركوب قطعة من خشب بدت أشبه بكرسيّ بدون مسند للظهر أو اليد، وضعوا رأس الرجل في أنشوطة الحبل البيضوية الشكل، ابتعد الجنديّان اللذان حملاه إلى الأعلى، تقدّم جنديّ ثالث من الكرسيّ ثمّ في لمح البصر ركل الجندي ذلك الكرسي بكلّ قوّته فتهاوى الرجل المربوط برقبته وتدلّت رجلاه في الهواء. انتفض جسده قليلاً ثمّ همدت حركته تماماً بعد وقت قصير.

ضجّ الناس بالتهليل والتكبير، وازداد صراخ النساء عبر الرواشين، وعندما اشتدّ لغط الناس أكثر ممّا هو معتاد وتداخلت أصواتهم، أطلق الجنود وابلاً من الرصاص في الهواء فصمت الناس مرة أخرى.

بعد قليل يصعد رجل ذو زيّ مختلف عن زيّ الجنود، يقترب من الرجل المعلق في الهواء يتحسّس

بيده أماكن مختلفة من الجسد المعلق، ثمّ يشير بيده للجنود فيصعد ثلاثة أو أربعة منهم يخلصون الرجل من الحبل الملفوف حول عنقه، يرفعه اثنان من الجنود من أسفل ويفكّ الثالث الحبل الملتفّ حول رقبته. يحمل الجنود الرجل الميت ثمّ يضعونه على مساحة من الأرض فُرشت بحصيرة كبيرة نسبياً وحولها جنود يحرسونها حراسة مشدّدة... يصعد إلى المنصّة رجل آخر يفعلون معه مثلما فعلوا مع من سبقه. يتكرّر المشهد هذا أربع عشرة مرّة. وفي كلّ مرّة يضجّ الحضور بالتهليل والتكبير، ولكن عند شنق الرجل الخامس تقريباً حلّ محلّ تكبيرهم وتهليلهم اللعن والسبّ والتلويح بأيديهم وقبضاتهم. يطلق الجنود وابلاً من الرصاص أكثف من المرّات السابقة، ولكنهم هذه المرة بعد إطلاق الرصاص في الفضاء لا يضعون بنادقهم بجانبهم، بل يصوّبونها نحو صدور الرجال المحتشدين حولهم.

بعد شنق الرجل الثامن تقريباً وصلت تعزيزات من الجنود أحاطت بالمتجمهرين من الخلف تماماً. هدأ ضجيج الناس وبلعت النسوة المطلّات من الرواشين ألسنتهنّ. انسحب بعض الرجال الذين استشعروا خطراً ما من الساحة وخصوصاً من كان برفقة أطفاله الصغار الذين لم يتمكنوا من رؤية أيّ شيء بسبب تقارب الناس الشديد حيث كانت الكتف بالكتف والقدم بالقدم.

بإعدام آخر رجل جمع الجنود الجثث الأربع عشرة وغادروا بها صوب دار الإمارة.

انفضّ الناس بدورهم. كانوا يسيرون ببطء شديد، ينتزعون خطواتهم انتزاعاً من الأرض، بعضهم عاد إلى بيته، والآخر توجّه صوب البحر، وآخرون صوب المقاهي... وفي بقيّة ساعات ذلك النهار الطويل تحاشى الناس المرور بتلك الساحة بل إن البعض تحاشى المرور عن طريق باب البنط على الرغم من أن الجنود قد فكّكوا تلك الأخشاب والحبال وعادت الساحة إلى وضعها السابق وكأن شيئاً لم يكن.

نداء

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

الوالي نامق باشا والي الحجاز

أصدر أوامر جديدة تقول:

من كان له قريب من الذين أعدِموا اليوم

فليأتِ إلى دار الإمارة بعد صلاة ظهر اليوم ليتسلّمه

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

الوالي نامق باشا أصدر أمره

بأنّ دفن الموتى سيكون

في مقبرة أمّنا حوّاء بعد صلاة العصر لهذا اليوم

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

من كان له قريب من الذين أُعدِموا اليوم

فليأتِ إلى دار الإمارة بعد صلاة ظهر اليوم ليتسلّمه

يا أهالي جدّة

يا أهالي جدّة

صالح جوهر

بعد أيّام صعبة ومريرة كانت بانتظاري مفاجأة سارّة لم أكن أتوقّعها على الإطلاق.

– أهلاً بك يا شيخ إدريس...

أراه أمامي الآن يداعب بيده تلك العصا الأثيرة المقطوعة من غصن شجرة أبنوس، أهداها له حاج من تومبكتو منذ زمن طويل كما أخبرني هو بذلك...

هتفت باسمه وفرح طاغٍ يجتاحني. كنت بحاجة إلى وجه بشوش طيّب يخرجني من تلك الغموم الكئيبة المتراكمة. ها هو واحد منها، وجه أرتاح لرؤيته كلما وقع نظري عليه، ها هو ماثل أمامي، اعتبرت ذلك فأل خير...

– أهلاً يا شيخ إدريس.

هززت يده وأنا أنظر إلى ذلك الوجه الباسم فأشعر بأن للحياة جانباً مضيئاً يشعّ بالطهر والنقاء. تصافحنا طويلاً ثمّ سحبته بيده حتّى وصلنا إلى مركاز بعيد نسبياً عن العيون. جلس وجلست قبالته. كان كالعهد به دائماً خفيف الروح عذب الحديث، ينتقل بي من حال إلى حال في رمشة عين. أخرجني بلطف معشره من تلك الحالة البائسة المزرية. وجدت نفسي أثرثر بكلام غزير وهو ينصت لي ويهزّ رأسه كلّ حين وآخر. شعرت كأن حملاً أزيح عن كاهلي. هل كنت في حاجة لمن ينصت لي بصبر وسكون؟

تشعّب بنا الحديث إلى الحجّ هذا العام، أخبرني الشيخ إدريس أنه قد أدّى الفريضة هذا العام أيضاً. باركت له أداءها بصحّة وسلامة. قال لي إنه بحث عنّي كثيراً وبصعوبة استطاع الوصول إليّ.

تطرّق بنا الحديث إلى تلك المنطقة السوداء الدامية: جدّة. وتلك العواصف والأنواء التي عصفت بها ولا تزال.

بعد تنفيذ حكم الإعدام في أولئك الرجال الأربعة عشر كانت فصول المأساة لا تزال تُكتب في جدّة.

كانت المحاكمات قائمة على قدم وساق لمن قاموا بإثارة الفتنة ولمن قدّم رأياً أو مشورة أو مساعدة. محاكمات بالنفي شملت الكثير من أعيان جدّة وتجّارها، وكان بطل هذه المحاكمات وقطبها الأوحد: نامق باشا.

هذا الرجل ازداد شراسة وأصبح كهمّ ثقيل يجثم على أنفاس جدّة وأهلها.

وضع جنوداً على أفواه السكك وعلى بوّابات جدّة، ومنع خروج أيّ شخص إلا بإذن مسبق منه شخصيّاً.

يوماً وراء يوم والسجون تضيق بالمتّهمين والصدور تمتلئ بالقيح والكره والحقد...

حتّى جدّة أصبحت كمدينة واقعة تحت تأثير طلسم كبير عنوانه الشؤم والموت وأيضاً المرض، فمرض الكوليرا أسهم في تفاقم المشكلة. تجد أناساً كثيرين مُلقَين تحت السور وفي الخرائب والبيوت المهجورة وقد فارقوا الحياة.

ما إن يصيب أحدهم القيء الشديد والإسهال الشديد حتى يدرك تمام الإدراك أن الموت قد أصبح قريباً جداً.

وهناك في الميناء كانت المأساة أشدّ. كثير من الحجّاج فارقوا الحياة وقد انتشرت جثثهم على الشاطئ وفي السفن وحتى في البحر، يموت أحدهم فيعجزون عن دفنه بسبب الخوف من المرض فيلقونه في البحر.

ونحن هنا في جدّة كنّا كثيراً ما نستيقظ على صراخ الجنود وصيحاتهم في هذا البيت أو ذاك وهم يقتادون الرجل والرجلين ثمّ يزجّون بهم في غياهب السجون.

قال لي الشيخ إدريس إنه كان يروم العودة إلى دياره في تهامة ولكنّه آثر أن يزورني. طلب من القافلة التي كان هو سيّدها ومتصرّفها أن تنتظره خارج جدّة. قال لهم إنّه سيحاول اللحاق بهم في أقرب وقت إذا أمكنه ذلك. ثم قال لي باسماً:

– وأريد أن أسترجع أمانتي التي بحوزتك.

– أيّ أمانة يا شيخنا الجليل؟

– منصور التهامي.

– آه... منصور التهامي.

بانت على ملامح الشيخ إدريس سمات الجدّ وأخذ ينظر إليّ بنظرات حادّة بعثرت طمأنينة ملامح وجهه ثمّ قال بصوت أجش:

– هل حدث لمنصور مكروه؟

– لا، أبداً، هو بخير ولكن...

– ولكن ماذا يا صالح؟

وقف الشيخ إدريس على قدميه. كان ينظر في عينيّ مباشرة. خفّت تلك الإشعاعات الوادعة التي كانت تصدر من قسمات وجهه.

– أريد رؤية منصور في الحال.

– اطمئن. ستراه الآن.

نهضت بتثاقل من فوق المركاز. مشيت بجانب الشيخ إدريس الذي كان في حال من التوتر والعصبية. قال لي للمرة الثانية إن قافلته تنتظر بالقرب من جدّة، استأذنهم في الذهاب إلى جدّة لكي يتسلّم أمانة تخصّه من أحد تجّار جدّة.

قال لي أيضاً إنه قصد بزيارته تلك الاطمئنان على منصور خصوصاً بعد تلك الأحداث التي ألمّت بجدّة وإنه بصدد تخييره ما بين البقاء هنا أو العودة معه إلى قريته.

كان الشيخ إدريس يتحدّث وآثرت أنا الصمت. أشكر الله كثيراً لوجود الشيخ إدريس في جدّة في مثل هذا الوقت العصيب. أتمنّى أن يسترجع أمانته ويغادر في أسرع ما يمكن. مررنا بحارات جدّة وأزقتها ونحن نسير الهوينى، كنت أتحدّث حيناً ويتحدّث الشيخ إدريس حيناً آخر، وعند اقترابنا من بيت منصور لاحظنا حوالى عدة جنود يستوقفون المارّة ويسألونهم عن أمر ما. شعرت بخوف مفاجئ وذلك الحرقان الذي بدأ يتصاعد من بطني ويصل حتّى حنجرتي. ناديت أحد الصبية، اقترب منّا، سألته عمّا يريد هؤلاء الجنود فقال لي الصبيّ:

– إنهم يسألون عن منزل منصور التهامي...

انتفض الشيخ إدريس كمن لسعته عقرب. كان الآن يقف أمامي مباشرة يكزّ على أسنانه وهو يسألني عن تفسير ما سمعه الآن.

– لماذا يريد هؤلاء الجنود منصور؟ ماذا فعل؟

– اهدأ ياشيخ إدريس. سأشرح لك كلّ شيء.

بقدرة قادر انقلب الشيخ الوديع المسالم إلى أسد شرس يكشّر عن أنيابه. كان في حالة ميؤوس منها وعلى استعداد لفعل أيّ شيء من شأنه أن يعقّد الأمور.

– منصور مُتّهم بإثارة الفتنة في جدّة. ومن المؤكّد أن هؤلاء الجنود جاؤوا لأخذه، ربّما وشى به واشٍ ممّن شاركوا في تلك الفتنة.

بعد أن تفوّهت بتلك الكلمات شعرت كأنّ الهواء الذي أستنشقه قد قلّ وعزّ وجوده من حولي، شعرت بأنفاسي تتسارع، كنت ألهث كمن صعد جبلاً عالياً.

تسارعت خطوات الشيخ إدريس. كانت خطواته خطوات فتى لم يتجاوز العشرين عاماً لا خطوات شيخ تجاوز عمره نصف قرن تقريباً.

اقتربنا من المنزل وعندما كنّا نسير في أوّل الزقاق المترب سمعنا صوتاً أجشّ يأتي من الخلف:

– أين بيت منصور التهامي؟

كان ذلك السؤال مطروحاً لنا من أحد الجنود. لم يجبهم أيّ أحد منّا، تركناهم وواصلنا سيرنا مسرعين نحو البيت. بعد أن عبرنا ذلك الزقاق المفضي إلى البيت التفتّ ورائي ولاحظت أن أولئك الجنود الأربعة ما زالو يقفون في أول الزقاق وهم ينظرون نحونا بنظرات مليئة بالشك والريبة. انقبض قلبي، وأسرعت في المشي. كانت خطوات الشيخ إدريس أسرع من خطواتي. كان وجهه شاحباً وأنفاسه تتلاحق وعيناه لا تطرفان، ممسكاً بعصاه الأثيرة وقد تبخرت سمات السماحة والدعة عن تقاسيم وجهه وحلّ محلها الجدّ والصرامة.

عندما وصلنا إلى بيت تلك الفتاة فتنة توقفت وأشرت إلى الباب الموارب أمامنا. لم يطرق الشيخ إدريس الباب بل دفعه بقوّة ودلف إلى الداخل ودلفت أنا وراءه مباشرة وأقفلت الباب بهدوء.

وكأنّما الزمن قد توقف فجأة على المشهد التالي: امرأتان تنتصبان من الخوف وقوفاً على قدميهما، وشابّ مستلقٍ على سرير واطئ، عيناه مفتوحتان على آخرهما وفمه أيضاً مفتوح.

– الشيخ إدريس!

حاول منصور الوقوف، ولكن الشيخ إدريس تقدّم منه وضمّه إلى صدره.

بعد لحظات قليلة سمعنا طرقاً هائلاً على الباب... لم يكن هناك وقت.

قال الشيخ إدريس موجّهاً حديثه لفتنة:

– هؤلاء جنود يريدون أخذ منصور ليحاكموه على جرم لم تقترفه يداه.

ثمّ قال برجاء:

– أخبريني يا ابنتي ألا يوجد منفذ آخر لهذا البيت كي نستطيع الخروج منه بأمان؟

قالت الفتاة باندفاع:

– نعم، هناك باب خلفي من الجهة الأخرى يُستخدم لخروج النساء عندما يمتلئ البيت بالرجال في أوقات المآتم والأفراح.

قال الشيخ لمنصور بلهجة هادئة واثقة:

– هيّا بنا يا بنيّ سنغادر جدّة الآن وبدون تأخير.

مشت فتنة أمامنا ثمّ عبر دهليز طويل ومعتم أشارت إلى باب صغير. خرجنا منه أنا والشيخ إدريس ومنصور الذي كان يقف بيني وبين الشيخ إدريس.

من خلال ذلك الباب الخلفي غادرنا على عجل. كنّا نسير عبر زقاق مهجور ثمّ ندخل في زقاق آخر. لحسن الحظ لم نلق أحداً في طريقنا. كنت أعرف خفايا دروب وأزقة جدّة لكنّي لم أمش يوماً في هذا

الزقاق. كنت ألمح ذلك الشيخ الطاعن في السنّ وهو يمشي بخفّة وحيوية الشباب. شعرت براحة تامّة. ها هي الأمانة التي في عنقي تعود إلى من أمّنني عليها.

بعدما اجتزنا ذلك الزقاق المعتم مشينا مسافة لا بأس بها. شعر وقتها منصور بالتعب. لمحنا رجلاً يبدو أنّه حمّال يجرّ معه حماراً. ناداه الشيخ إدريس. نفحه مالاً نظير التخلّي عن حماره ذاك. وافق الرجل على الفور عندما لمح تلك النقود التي تفوق سعر حماره أضعافاً مضاعفة. أركب منصور عليه ثمّ انطلق بعد أن ودّعته على عجل. لم يكن هناك وقت لطقوس الوداع. كان منصور ينظر نحوي وأرى في عينيه شيئاً ما يريد قوله ولكن لم يكن الوقت أيضاً يسمح بذلك. وقفت أرقبهما حتى تواريا عن الأنظار.

عدت أدراجي إلى حيث فتنة وأمّها، وجدتهما في حالة رعب شديد. قالتا إنّ جنوداً أربعة اقتحموا البيت وهم يسألون عن منصور. فتّشوا في البيت وعندما لم يجدوا أحداً غادروا بسرعة.

التفتت نحوي تلك الفتاة. أعرف ما تريد قوله. خنقتها العبرات. قلت لها:

– لا تخافي. منصور بخير. غادر جدّة إلى حيث يجب أن يكون.

نظرت نحوي بامتنان. هزّت رأسها ثمّ ذهبت إلى إحدى غرف البيت. انصرفت بدوري أنا بعد قليل. كنت أشعر براحة تامّة. شعرت بأن همّاً كبيراً أزيح عن كاهلي، وعندما كنت أسير في طرقات جدّة وجدت نفسي خفيفاً نشط الحركة لأول مرّة منذ وقت طويل...

لقطات

* خرجت جدّة عن بكرة أبيها عصر يوم تنفيذ الإعدام إلى مقبرة أمّنا حوّاء الواقعة خارج سور جدّة لتشييع ودفن الذين أُعدِموا من أبنائها.

* غادرت السفينة الإنكليزية سايكولبس ميناء جدّة في اليوم التالي لتنفيذ الإعدام.

* دفعت الحكومة العثمانية تعويضات مجزية لفرنسا وبريطانيا بسبب أحداث السلب والنهب التي حدثت لرعاياها أثناء تلك الفتنة.

* اجتاح جدّة مرض الكوليرا في نفس العام وحصد الكثير من أرواح الحجّاج وسكان جدّة على السواء.

نامق باشا

عُزل عن ولاية الحجاز مع الوكيل إبراهيم آغا وعُيّن علي باشا الكتاهيلي خلفاً له، وأيضاً عّين الباب العالي الشريف عبد الله، الابن الأكبر للشريف محمد بن عون، شريفاً على المدينتين المقدّستين. غادر نامق باشا جدّة بعد أيّام قليلة من هذه الحادثة، وقضى تلك الأيام – بتكليف مباشر من إسماعيل باشا – في المساعدة في نفي أربعين رجلاً من رجالات جدّة ممّن شاركوا في تلك الفتنة بالرأي وتقديم المساعدة والتأييد وتسليح الرجال وحكم عليهم بالنفي بنوعيه المؤبّد والمحدود إلى جزيرة قبرص وإلى أماكن أخرى. ونظراً لتاريخه الطويل والمشرّف في خدمة الدولة العليّة أصدر السلطان العثماني عبد العزيز الأوّل فرماناً سلطانيّاً بتعيينه نائباً للوالي العثماني في بغداد والبصرة ومكث في بغداد حتّى تقاعد من الخدمة وقضى سنواته الأخيرة في قصره المنيف في منطقة كوناك في اسطنبول بتركيا.

فتنة

لم يُعثر لها على أثر بعد تلك الأحداث. قيل إنّها شوهدت برفقة أمّها في قافلة متّجهة جنوباً نحو صحراء تهامة.

صالح جوهر

هناك ثلاث روايات عنه لا يمكن الجزم بصحّة أيّ منها وخصوصاً بعدما استطاع التاجر فرج يسر

إنقاذه من النفي بسبب علاقاته الجيدة مع الكثير من ذوي الشأن:

الأولى تقول إنّه قضى نحبه هو وعائلته بسبب مرض الهواء الأصفر (الكوليرا) الذي اجتاح جدّة في عام **1858**م بسبب تكدّس الحجّاج المصابين بهذا المرض في جدّة وذلك لتعثّر عودتهم إلى ديارهم بسبب الأضرار الكبيرة التي لحقت بسفنهم جرّاء تلك الفتنة.

الرواية الثانية تقول إن مرض الكوليرا قضى على عائلة صالح جوهر عن بكرة أبيها وبقي هو لم يصبه ذلك الوباء، وقيل إنه بعد ذلك صفّى تجارته وباع كلّ ما يملك وشوهد آخر مرّة وهو على ظهر سفينة غادرت إلى مكان غير معلوم.

الرواية الثالثة رواها أحد تجّار جدّة الذي سافر إلى مدينة بومباي في الهند بعد تلك الأحداث بأربعة أعوام. يقول ذلك التاجر الجدّي: كنت في خان في مدينة بومباي وإذا بي أسمع صوتاً ليس غريباً عنّي لرجل كثّ اللحية ينادي على فتاة فائقة الجمال تُدعى إيرانيا كانت تمتلك ذلك الخان الذي تعوّدت النزول فيه كلّما ذهبت إلى بومباي، التفتت تلك الفتاة نحوه ثمّ تأبّط الرجل ذراعها. ناديت عليه باستغراب وأنا بين مصدّق ومكذّب: صالح جوهر... التفت نحوي بشدة ولكنّه تجاهلني ومضى إلى حيث لا أعلم...

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

لم يكن صالح جوهر يعلم أنه بإنزاله علماً ورفعه علماً آخر، سيفتح باباً على الجحيم.

بين قتل القناصل الأجانب وبعض التجّار وقصف البوارج البريطانية لجدّة، بين صراخ الأطفال رعباً وهرب الأهالي في كل اتّجاه، يحاول نامق باشا حقن الدماء وإيقاف الدمار.

وبين فتنة المدينة وفتنة جارته الساحرة، يتأرجح منصور التهامي بين الحياة والموت، بين ماضيه الكئيب وتلك الكوّة من الأمل، التي فتحها سكنه قرب بيت «فتنة».

نبذة عن المؤلف

مقبول العلوي قاص وروائي سعودي.

كتب أخرى للمؤلف

«زرياب»، «القبطي»

Table of Contents